

لا إله إلا الله محمد رسول الله

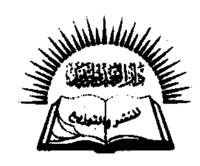
تأليف
صلاح الدين

الجديدة



دار الغد الجديد

رقم الإيداع : ١٣٤٢٢ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 372 - 022 - 5

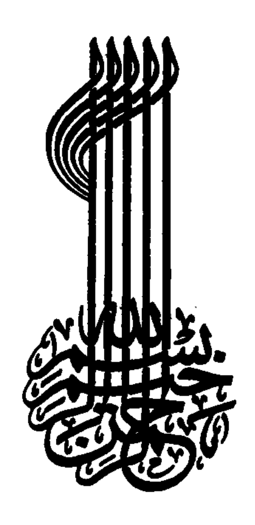


الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

المنصورة - مصر
أمام جامعة الأزهر

تـ وفاكس: 2254224 - 050 - 002
صندوق بريد: 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستهديه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١ ـ ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله. وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم. وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإن تعلم مغازي رسول الله ﷺ من الأهمية بمكان وإن الناظر في حياة الصحابة رضي الله عنهم يرى هذا الأمر جليًا واضحًا.

حيث يقول محمد بن سعد بن أبي وقاص كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها(١).

وقال أيضًا علي بن الحسين كنا نُعَلَّم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن(٢).

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقاني (١/ ٤٧٣).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي والسامع (٢/ ٢٥٢).

وإن هذه المغازي تدعو الإنسان إلى بذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل وعدم الركون إلى الدنيا.

من أجل ذلك قمت بجمع غزوات وسرايا الرسول ﷺ وذيلتها ببعض الدروس والعبر المستخلصة من حياة النبي ﷺ وجهاده.

سائلاً الله عز وجل أن ينفعني والمسلمين بها وأن ينصر الإسلام ويعز المسلمين وأن يذل الشرك والمشركين.

وصلى اللهم وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

أبو أنس / صلاح الدين محمود السعيد

أولا: فضل الجهاد في سبيل الله

اعلم وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أن الجهاد في سبيل الله أفضل تطوع البدن وعَدَّه بعض العلماء ركنًا سادسًا لدين الإسلام وهو ذروة سنام الإسلام وموجب الهداية وحقيقة الإخلاص والزهد في الدنيا. ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة. كما لهم الرفعة في الدنيا. فهم الأعلون في الآخرة. وكان كثير من الناس يتلهفون على الجهاد الذي أغلقت أبوابه من زمن بعيد. من عهد أن كان الرجل يخرج بنفسه وبماله. آملاً أن ينفق كل ماله في سبيل الله وأن يحظى بالشهادة في سبيل الله. فإذا رجع سالمًا إلى أهله رجع حزينًا على ما فاته من مقام الشهادة التي كان يحرص عليها كل الحرص ولقد كان المسلمون في أول هذه الأمة أقلية بين الأمم. وكانوا مع ذلك فقراء من المال. ولكن كانوا أغنياء بين ذوي البطولات. يعتمدون في تلك البطولة على معونة مولاهم لهم في كل حال من الأحوال وقد ورد في فضل الجهاد والحث عليه وبيان عظيم ثوابه ايات وأحاديث كثيرة. نذكر طرفًا منها إن شاء الله تعالى.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ففي هذه الآية الكريمة ترغيب في الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة.

قال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم. إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن. وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيدات:

أولاً: إخبارهم بصيغة الخبر المؤكدة بأداة إن.

ثانيًا: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذى وقع

ثالثًا: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه. وإنه هو الذي اشتري من المبيع.

رابعًا: انه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يخلفه ولا يتركه.

خامسًا: أنه أتى بصيغة (على) التي للوجوب. إعلامًا لعباده بأن ذلك حق عليه. أحقه هو على نفسه.

سادسًا: أنه أكد ذلك بكونه حقًا عليه.

سابعًا: أنه أخبر عن محل هذا الوعد وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوارة والإنجيل والقرآن.

ثامنًا: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

تاسعًا: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضًا. بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

عاشرًا: أنه أخبرهم إخبارًا مؤكدًا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم. والبيع هذا ها هنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة. وقوله ﴿بَايَعْتُم بِهِ﴾ عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون إلخ انتهى [١].

ويقول سيد قطب رحمه الله على هذه الآية:

هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ألف مرة أو تزيد في أثناء حفظي للقرآن. وفي أثناء تلاوته بعد ذلك ودراسته. في أكثر من ربع قرن. هذا النص أشهد أنني أدرك منه اللحظة ما لم أدركه في ألف مرة أو تزيد. إنه نص رهيب يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين الصادقين بالله وعن حقيقة البيعة التي في أعناقهم طول الحياة. فمن بايع البيعة. ووفى بها فهو المؤمن الحق. الذي ينطبق عليه معنى المؤمن وحقيقته. وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق.

حقيقة هذه البيعة : أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً ـ إن الله سبحانه وتعالى قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد منها شيء. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية. لا ينفقونها في سبيل الله. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا كلا إنها بيعة كاملة. فالثمن الجنة والطريق الجهاد. والنهاية هي النصر أو الاستشهاد. ومن

(١) حادى الأرواح ص٧٩ ، ٨٠ .

رحمته أن جعل للصفقة ثمنًا وإلا فهو مالك الأنفس والأموال ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً. وكَرّمَه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها حتى مع الله وكرمه فقيده بعقوده وعهوده. وجعل وفاءه بها مقياس آدميته الكريمة كما جعله مناط الحساب والجزاء.

وإنها لبيعة رهيبة بلا شك. ولكنها في عنق كل مؤمن. لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه والعياذ بالله. يا الله عونك ـ فإن العقد رهيب. وهؤلاء القاعدون بالملايين. في مشارق الأرض ومغاربها يدَّعون أنهم مؤمنون بك. وهم قاعدون. لا يقاتلون لإعلاء كلمتك. ولا يَقتُلون ولا يُقتَلون. ولا يجاهدون جهادًا ما دون القتال والقتل. يسدون به ثغرة ويساهمون به في الدفاع عن دينك الذي أردت له النصر والاستعلاء قال :

ولقد كانت هذه الكلمات تدخل إلى قلوب مستمعيها الأولين. على عهد الرسول ﷺ. فتتحول من فورها إلى واقع من واقع حياتهم. ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ويحسونها مجردة في مشاعرهم كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها لتحويلها إلى حركة منظورة لا إلى صورة متأملة هكذا أدركها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة.

قال محمد بن كعب القرظي: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ ـ يعني ليلة العقبة ـ اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع: لا نُقيلُ ولا نستقيل. فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

ومن الآيات التي وردت في الحث على الجهاد والترغيب فيه وملازمة الصبر عليه. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

---

(١) انظر السيرة النبوية الصحيحة (١ / ١٩٩).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ⑳ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ㉑ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ـ٢٢].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ـ٩٦].

وقال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ㊈ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨ـ٨٩].

وأما الأحاديث الواردة في فضل الجهاد والحث عليه بالنفس والمال فإليك منها طرفًا فتأمله وأسأل الله أن يقيم علم الجهاد في سبيله وأن يرزقنا وإياك الشهادة وأن يلحقنا بالسلف الصالح ويجمعنا وإياهم في رحمته إنه جواد كريم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله

---

(١) البخارى (٢٦) مسلم (٨٣).

تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله»(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»(٣) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله». قال: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله. ويدع الناس من شره»(٤) .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها. والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى. أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»(٥) .

وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة. خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»(٦) .

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن فتنة القبر»(٧)

وعن عثمان رضي الله عنه. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم في سبيل

---

(١) متفق عليه البخاري (٥٢٧) مسلم (٨٤).

(٢) متفق عليه البخاري (٢٥١٨) مسلم (١٣٦).

(٣) متفق عليه البخاري (٢٧٩٦) مسلم (١٨٨٠).

(٤) متفق عليه البخاري (٢٧٨٦) مسلم (١٨٨٨)

(٥) البخارى (٢٨٩٢) مسلم (١٨٨١) .

(٦) صحيح مسلم (١٩١٣) والنسائي (٦ / ٣٩).

(٧) صحيح أبو داود (٢٥٠٠) والترمذى (١٦٢١) واحمد (٦/ ٢٠) أبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٤٤) الصحيحة (٥٤٩).

الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالك قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجن إلا جهاداً في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي. فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعهُ إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من مَكْلُوم يُكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كلم. لونه لون دم. وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولايجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل»(٢) .

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلوم يُكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يدمي. اللون لون دم والريح ريح مسك»(٣) .

وعن معاذ رضي الله عنه. عن النبي ﷺ قال: «من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم. أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت. لونها الزعفران. وريحها كالمسك»(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فيه هذا الشعب ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة أغزوا في سبيل الله. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»(٥).

وعنه قال: قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه»

---

(١) حسن الترمذي (١٦٦٧) وحسنه الألباني في التعليق على الأحاديث المختارة (٣٠٥ ـ ٣١٠).
(٢) متفق عليه البخاري (٣٦) مسلم (١٨٧٦).
(٣) صحيح البخاري (٧/ ١٢٥) أحمد (٢/ ٣٨٤).
(٤) صحيح الترمذي (١٦٥٧) وابن ماجه (٢٧٩٢) وأحمد (٢/ ٤٤٦، ٥٢٤) وصححه الألبانى فى المشكاة (٣٨٢٥).
(٥) حسن الترمذي (١٦٥٠) وأحمد (٢/ ٥٢٤) وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ١٧٤) وصحيح الجامع (٧٣٧٩).

فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا. كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه» ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله. لا يفتر من صلاة ولا من صيام. حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»(١) .

وفي رواية للبخاري أن رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد. قال: «لاأجد» ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك. فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفتر؟». فقال: ومن يستطيع ذلك؟

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله. يطير علي متنه كلما سمع هيعه أو فزعه طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانه أو رجل في غنمة أو شعفة من هذه الشعف. أو بطن واد من هذه الأودية. يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير»(٢) .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(٣) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله وبالإسلام دينًا وبمحمدًا رسولاً وجبت له الجنة».

فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله فأعادها عليه قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».قال وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله. الجهاد في سبيل الله»(٤) .

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي رضي الله عنه ـ بحضرة العدو ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقال رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسر جفن سيفه. ثم مشى بسيفه الى العدو.

(١) متفق عليه البخاري (٢٧٨٥) مسلم (١٨٧٨).
(٢) صحيح مسلم (١٨٨٩) وابن ماجه (٣٩٧٧) والنسائي في التفسير والسير.
(٣) صحيح البخاري (٢٧٩٠) والترمذي (٥٣٠) وابن حبان (١٥٨٦).
(٤) صحيح مسلم (١٨٨٤) والنسائي (٦ / ١٩).

فضرب به حتي قتل(١) .

وعن أبي عبس عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما اغبرت قدم عبد في سبيل الله فتمسه النار»(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم»(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار. عين بكت من خشية الله. وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٤) .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا. ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا»(٥) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»(٦) .

وفي رواية: «لما يرى من فضل الشهادة».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»(٧) .

وفي رواية له: «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين».

في هذه الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة بيان فضل الجهاد والشهداء وكرامتهم.

---

(١) متفق عليه البخاري (٢٨١٨) مسلم (١٩٠٢).
(٢) صحيح البخاري (٢٨١١) والبيهقي (٩/ ١٦٢).
(٣) صحيح رواه الترمذي (١٦٣٣، ٢٣١١) وصححه الألباني في المشكاة (٣٨٢٨).
(٤) صحيح الترمذي (١٦٣٩) وصححه الألبانى فى المشكاة (٣٨٢٩) وصحيح الجامع (٤١١٣).
(٥) متفق عليه البخاري (٢٨٤٣) مسلم (١٨٩٥).
(٦) متفق عليه البخاري (٢٨١٧) مسلم (١٨٧٧).
(٧) صحيح مسلم (١٨٨٦)

وما مَّن الله عليهم به من فضله وإحسانه وفي ضمنها تسلية للأحياء عن قتلاهم وتعزية لهم وتنشيط لهم على القتال في سبيل الله والمثابرة عليه. والتعرض للشهادة والجد والاجتهاد في الحصول عليها.

نسأل الله الحي القيوم العلي العظيم أن يوفقنا لها إنه القادر على ذلك.

عن أنس بن مالك - في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى بئر معونة - قال: لا أدرى أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري. فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتو غارًا مشرفًا على الماء فقعدوا فيه. ثم قال بعضهم لبعض. أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أُراهُ - أبو ملحان الأنصاري: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى حول بيتهم. فاختبأ أمام البيوت. ثم قال: يا أهل بئر معونة إني رسول الله إليكم. أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فآمنوا بالله ورسوله. فخرج رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتي خرج من الشق الآخر فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار. فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل وقال إسحاق وهو ابن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآنا: ﴿بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرض عنا ورضينا عنه﴾. ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زمانًا وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

فقال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر. لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم إطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

قال ابن القيم:

عَزَّى الله نبيه وأولياءه عمن قتل في سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٨٦، ٤٠٨٧).

﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه. وأنهم عنده وجريان الرزق المستمر عليهم وفرحهم بما آتاهم الله من فضله وهو فوق الرضا واستبشارهم بإخوانهم الذين يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير. يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا. فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة»(١) .

(١) متفق عليه : البخارى (٢٨١٧) مسلم (١٨٧٧) .

ثانيًا: أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى

١ ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩ـ٤٠].

قال صاحب الظلال: هناك واجب آخر على الجماعة المسلمة ، وهو أن تحطم كل قوة تتعرض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أوتهدد حرية اكتشاف العقيدة وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتي تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله.. لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان.

ولكن بمعنى إستعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يفتن أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يقي عليه، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله بأية وسيلة وبأية أداة وفي حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد في الإسلام.. إنه الجهاد للعقيدة لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالإعتداء عليها، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثبت عليه، ويعتبر الذين يقاتلون فيه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياء(١) .

٢ ـ حماية الشعائر والعبادات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٨٧).

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٨ـ٤١].

قال النسفي رحمه الله: أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة، لاستولى المشركون علي أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات أي كنائس، ولا المسلمين مساجد، أو لغلب المشركون في أمة محمد ﷺ على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم، وهدموا متعبدات الفرقتين وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجودًا، أو لقربها من التهديم(١).

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠ـ٢٥٢].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بأخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا(٢)

وقال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر به الأرض(٣).

(١) تفسير النسفى (٣/ ١٠٦) تفسير المراغي ٦/ ١١٩) الكشاف (٣/ ١٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٦٢).
(٣) تفسير الكشاف (١/ ٣٨٢) تفسر أبي السعود (١/ ٢٤٥).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: إن في هذه الآية عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان، والأموال.

وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً[١].

٤ ـ الإبتداء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ـ٦].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم وليبلوا أخباركم[٢].

كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال صاحب الظلال: إنما يتخذ الله المؤمنين ـ حيث يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إيمانهم ـ إنما يتخذهم سبحانه ستاراً لقدرته ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة، كما انتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم.

وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

أ ـ يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء ليستجش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٠٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ١٥٤).

البشرية من طاقات واتجاهات، فليس أكرم في النفوس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتقتل وتقتل، ولاتسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تهب هذه الحياة في غير ظله.

ب ـ ويريد ليربيهم فيظل يخرج من في هذه نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه، ويظل يقوي نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، وينفي كلها زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية ودعوة الله للجهاد، والتطلع إلى وجه الله ورضاه ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارات وأنها تربت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي ولكنها تقدر وتختار .

ج ـ ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعود النفس الإستهانة بخطر المخوف ، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه، وهو هين، هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لا قاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئًا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها،عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها، وهانت عليهم، الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها ويصلح العباد ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلم في راية القيادة للكفر والضلال والفساد، وهي قد اشترتها بالدماء ، والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه لراية لا لنفسها ولكن لله (١) .

٥ ـ إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم :

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٦).

وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧) ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ [التوبة: ١٧-١٨]

٦ - كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: أي لابد أن يعقد شيء من المحنة، فيظهر فيه وليه، ويفصح فيه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به أستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ورسوله ﷺ [١].

٧ - إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما﴾ [النساء: ١٠٥].

٨ - دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد في سبيل الإسلام دفع عدوان الكافرين، وهذا الجهاد أنواع منها:

أ - أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار - لا سيما إذا لم تستطيع أن تنتقل إلى بلاد تأمين فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والإعتداء الواقع عليها قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤ـ٧٥].

قال القرطبي رحمه الله: (حض على الجهاد، ويتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته واستنفار المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف المؤمنين في نفوسبهم، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال، وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أهون منها)[1] .

ب ـ أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين:

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠ـ١٩٢].

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا، ونفذ فيهم أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال ابن قدامة رحمه الله : (ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع) :

الثاني: إذا نزل الكفاربيلد معين على أهله قتالهم ودفعهم[2] ، وقال بعض علماء الحنفية (وحاصله إن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو)[3] .

---

(١) تفير القرطبي (٥/ ٢٧٩).
(٢) انظر المغني (٩/ ٢٧٩).
(٣) انظر حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

ت ـ أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً:

لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم، والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلموين أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١]. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل كف الظلم عن المظلوم الكافر الذي يبغضه المسلم لكفره قال السرخسي، رحمه الله: (وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذمة على أن يترك ليحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقريرعلى الظلم مع إمكان المنع منه حرام) (١).

ج ـ الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله:

إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨].

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يسمعوا الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل، والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها والناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى (٢).

قال الله تعالى: ﴿ لَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) انظر المبسوط للسرخسي (١٠ / ٨٥).

(٢) انظر فقه التمكين في القرآن الكريم للصلابي ص٤٨٨ .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ١-٤].

ومما تقدم يتضح لنا أن للجهاد أهدافًا سامية، ومصالح كريمة، وفوائد عظيمة، تتحقق للمسلمين وغيرهم، وأن الجهاد من آثار الهجرة ونتائجها المهمة، وأنه من الدعائم التي أقامها الرسول ﷺ لبناء الدولة الإسلامية ولتوطيد أركان السلام(١) .

وذلك (لأن الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها فإذا كان لها جيش قوي احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها فيسود عند ذلك السلام) .

ذكر سيفه صلى الله عليه وسلم:

أول سيف ملكه رسول الله ﷺ سيف يقال له مأثور، وهو الذي يقال أنه من الجنة ورثه من أبيه قدم به إلى المدينة في الهجرة.

وأرسل إليه سعد بن عبادة بسيف يقال له: العضب حين سار إلى بدر، والعضب مصدر عضبه عضبًا إذا قطعه(٢) .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ تنقل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد(٣) .

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان اسم سيف رسول الله ﷺ ذا الفقار(٤) .

(١) الهجرة في القرآن الكريم ص٤٥٣ .
(٢) ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤٨٥).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٢٩) وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأما الزيادة فقد أخرجها البخاري (٤٠٤١ـ٨) انظر زاد المعاد (٣/ ١٠٢).
(٤) رواه أبو الشيخ في أخلاق الرسول ﷺ ١٤٧ .

وعن ابن عاصم قال: أخرج إلينا علي بن الحسن سيف رسول الله ﷺ فإذا قبيعته والحلقتان اللتان فيهما الحمائل، من فضة.

قال: فسللته، فإذا هو قد نحل، كان سيفًا لمنبه بن الحجاج السهمي، اتخذه رسول الله ﷺ يوم بدر[١].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت قبيعيه سيف رسول الله ﷺ من فضة[٢].

ذكر درعه صلى الله عليه وسلم:

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان اسم درع النبي ﷺ، ذو الفضول[٣].

وعن جابر رضي الله عنه تعالى عنه قال: عن عامر الشعبي قال: أخرج علي بن الحسين لنا درع رسول الله ﷺ، فإذا هي يمانية رقيقة، ذات زراقين، فإذا علقت بزرا فيها شمرت، فإذا أرسلت، مست الأرض[٤].

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: كانت في درع رسول الله ﷺ، حلقتان من فضة[٥].

وعن السائب بن زيد رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان عليه يوم أحد، درعان، قد ظاهر بينهما[٦].

ذكر مغفره صلى الله عليه وسلم:

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى رأسه مغفر من حديد[٧].

---

(١) المرجع السابق ص١٤٩.
(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤٣).
(٣) المرجع السابق ص١٥٠.
(٤) المرجع السابق ص ١٥٠.
(٥) المرجع السابق ص١٥١.
(٦) صحيح رواه أبو داود (٢٥٩٠) والترمذي في الشمائل (٩٠ ـ مختصر) وابن ماجه (٢٨٠٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٣٢) وروى البخاري ومسلم نحوه.
(٧) متفق عليه رواه البخاري (١٨٤٦) ومسلم (٤٥٠).

ذكر قوسه صلى الله عليه وسلم:

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبهم يوم الجمعة في السفر، متوكئًا علي قوس قائمًا[١] .

ذكر رمحه صلى الله عليه وسلم:

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان للنبي ﷺ رمح أو عصا، تركز له فيصلي إليها[٢] .

ذكر حربته صلى الله عليه وسلم:

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان تركز له الحربة. فتوضع بين يديه، فيصلي إليها والناس وراءه.

وكان يفعل ذلك في السفر، فمن ثم، اتخذها الأمراء[٣] .

وعن ابن زيد قال: بعثنى نجدة الحروري إلى ابن عباس أسأله:

هل كان يُستر بين يدي رسول الله ﷺ بحربة؟

قال: نعم في خيبر[٤] .

ذكر رايته ولوائه صلى الله عليه وسلم:

عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رضي الله تعالى عنهما، أن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء ولواءه أبيض[٥]

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان لواء رسول الله ﷺ أبيض، وكانت رايته سوداء من مرط لعائشة مرحل[٦] .

---

(١) ضعيف رواه الطبراني في الكبير (١٢٠٩٨، ١٢٠٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٩٠) ضعيف.
(٢) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٤٦ .
(٣) صحيح البخاري (٤٩٤،٤٩٨) وأبو داود (٦٨٧) والنسائي في المجتبي (٢/ ٦٢)
(٤) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٥٥ .
(٥) رواه ابن عدي في الكامل (٢/ ٨٣١) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ص١٥٢، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢١٠٠).
(٦) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٢١) المرط: كساء من خز أو صوف. والمرحل: الذي فيه صور الرحال.

وعن يونس بن عبيد مولى محمد بن القاسم قال: بعثن محمد بن القاسم إلى البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أسأله عن راية رسول الله ﷺ ما كانت ؟

قال: كانت سوداء مربعة من نمرة (١).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض مكتوب فيه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» (٢).

وعن الحسن رضي الله تعالى عنه قال: كانت راية رسول الله ﷺ تسمى العقاب (٣).

ذكر قضيبه صلى الله عليه وسلم:

عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يستحب العراجين، فلا يزال في يده منها شيء، فدخل يومًا المسجد وفي يده عرجون، فرأى نخامة في القبلة فحكها بالعرجون (٤).

وعن على بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد، فقعد ومعه مخصرة، فنكس، وجعل ينكت يده (٥).

ذكر شعاره صلى الله عليه وسلم في جهاده:

عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: كان شعار النبي ﷺ أمت أمت (٦).

وقال زيد بن على رضي الله تعالى عنهما: كان شعاره: يا منصور أمت (٧).

---

(١) صحيح أحمد في المسند (٤/ ٢٩٧) وأبو داود (٢٥٩١) والترمذي (١٦٨٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٥٨).

(٢) حسن رواه الترمذي (١٦٨١) وابن ماجه (٢٨١٨) والحاكم (٢/ ٤٠٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢١٠٠).

(٣) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٥٤ .

(٤) المرجع السابق ص١٥٥ .

(٥) المرجع السابق ص١٥٦ .

(٦) صحيح أحمد (٤/ ٤٦) وأبو داود (٢٥٩٦) وابن ماجه (٢٨٤٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٦١).

(٧) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٦٥ .

وعن المهلب بن أبي صفرة عمن سمع النبي ﷺ يقول : «إن لقيتم العدو فإن شعاركم: حم لا ينصرون»[١] .

وكان رسول الله ﷺ إذا لم يخرج للغزو، بعث السرايا، وكان عذره ﷺ في عدم الخروج ما روي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعه فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيخلفون بعدي، والذي نفسي بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل»[٢] .

شجاعته صلى الله عليه وسلم:

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه(٣) .

وعن سعد بن عياض الثمالي، قال: كان رسول الله ﷺ قليل الكلام، قليل الحديث، فلما أمر بالقتال، تشمر، وكان من أشد الناس بأسًا(٤) .

وعن البراء، رضي الله تعالى عنه قال: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، يعني النبي ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به(٥) .

وعن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه، قال: ما لقي النبي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب(٦) .

---

(١) صحيح أبو داود (٢٥٧٩) والترمذي (١٦٨٢) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٠٧) وصححه الألباني في المشكاة (٣٤٩٨).
(٢) صحيح رواه البخاري (٣٦، ٣١٢٣) والنسائي في المجتبى (٥٠٢٩، ٥٠٣٠).
(٣) صحيح رواه أحمد (١/ ١٥٦) ومسلم (٧٩) نحوه.
(٤) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص٥٨ .
(٥) المرجع السابق ص٥٨ .
(٦) المرجع السابق ص٥٨ .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله ﷺ من أشجع الناس، وأسمح الناس(١) .

وعن البراء رضي الله تعالى عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق، ينقل التراب حتى وراى الغبار شعر صدره، ورأيت النبى ﷺ يرتجز يوم الخندق، وهم يحفرونه، وهو ينقل التراب حتى وارى جلدة بطنة(٢) .

وعن جابر رضي الله تعالى عن، قال: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه يحفرون الخندق ثلاثًا، ما ذاقوا طعامًا فقالوا: يا رسول الله، إن هذه كدية من الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «رشوها بالماء»، فرشوها، ثم جاء النبي ﷺ، فأخذ المعول أو المسحاة، ثم قال: «بسم الله» ثم ضرب ثلاثًا، فصار كثيبًا يهال.

قال جابر: فكانت منه التفاته فرأيت رسول الله ﷺ وقد شد بطنه بحجر(٣) .

وعن البراء رضي الله تعالى عنه، قال: لما غشيه المشركون، نزل فجعل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، فما رؤي في الناس يومئذ أحد كان أشد من النبي ﷺ (٤) .

وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لأمراء السرايا والجيوش:

عن سليمان بن بريدة كان أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أمير على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته، بتقوى الله عز وجل، وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال:

«اغزواباسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا واحدا.

*** فإذا لقيت عدوك من المشركين: فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فأقبل منهم، وكف عنهم.**

(١) متفق عليه البخاري (٢٩٠٨) مسلم.
(٢) متفق عليه البخاري (٢٨٣٧، ٤١٠٦) مسلم (١٨٠٣).
(٣) صحيح رواه أحمد (٣/ ٣٠٠) والبخاري (٤١٠١) نحوه.
(٤) صحيح البخاري (٣٠٤٢).

* ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم.

* وادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

* فإن أبو أن يتحولوا منها، فأَخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة أو الفيء شيء؛ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

* فإن هم أبوا، فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا، فاستعن بالله عز وجل، وقاتلهم.

* وإذا حاصرت أهل الحصن، فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله عز وجل وذمة رسوله.

* وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟»[١].

وكان ﷺ ينكر على من خالف ذلك، فقد روى سالم عن أبيه فقال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيرًا حتى إذاكان يوم، أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره.

فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له.

فرفع ﷺ يده وقال : «اللهم إن أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين[٢] .

---

(١) صحيح مسلم (١٧٣١) وأبو داود (٢٦١٢، ٢٦١٣) الترمذي (١٦١٧) وابن ماجه (٢٨٥٨).
(٢) صحيح رواه البخاري (٤٣٣٩، ٧١٨٩) وأحمد (٢/ ١٥٠، ١٥١).

غزوة الأبواء

كانت هذه الغزوة المسماة بالأبواء. أو (وَدَّان) لقرب ما بين الأبواء وودّان إذا ما بينهما من مسافة قد لا تزيد على ستة أميال وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ وكان في صفر. وسببها أنه ﷺ بلغه مرور عير لقريش بالأبواء ووجود ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة في المنطقة فخرج لذلك. بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة رضي الله عنه. ولما وصل إلى ديار بني ضمرة. وادعته هذه القبيلة بواسطة سيدهم وصاحب الأمر فيهم مخشي ابن عمرو الضمري (١).

وفاتت عير قريش. فعاد ﷺ ولم يلق كيدًا غير أنه أقام بالأبواء بقية صفر وعاد في ربيع الأول.

وكان لواؤه ﷺ في هذه الغزوة أبيض يحمله عمه حمزة رضى الله عنه (٢).

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٤٥).

(٢) السير ة النبوية للدمياطي ص١٨٥ .

غزوة بواط

وبعد عودة الرسول ﷺ من غزوة (وَدَّان) أو (الأبواء) في ربيع الأول من هذه السنة الثانية من هجرته المباركة استخلف علَى المدينة النبوية السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد بن معاذ رضي الله عنهما. وخرج في نفس شهر ربيع الأول في مائتي راكب يريد عِيرًا لقريش عليها مائة رجل من بينهم أمية بن خلف. وتعداد أبعرتها يبلغ ألفين وخمسمائة بعِير. فسار ﷺ ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص حتى بلغ بواط من ناحية جبل رضوي جهة ينبع النخل.

فلبث ببواط بقية شهر ربيع الثاني. وعاد في أوائل جمادى الأولى إلى المدينة دار هجرته المباركة ولم يلق كيدًا وذلك لعدم اصطدامه بعير قريش حيث فاتت ونجت بتدبير الله عز وجل وإرادته. وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وحسب رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم اجتهدوا باذلين الأسباب. وليس عليهم إلا ذلك. أما بلوغ الأرب والحصول على المطلوب فهو لله عز وجل. وهو يعطي ويمنع. لحكم عالية يجب التسليم له في ذلك والرضا بما قضى[١] .

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١ / ٣٤٦) والسيرة النبوية للحافظ الدمياطي (ص١٨٥، ١٨٦).

غزوة العشيرة

في آخر جمادى الأولى وبعد عودته في أول الشهر من غزوة بواط. بلغ النبي ﷺ أن أكثر من عير لقريش ـ أي قوافل تجارية ـ ذاهبة إلى الشام. فعزم على السير إليها لعله يظفر ببعضها.

فخرج ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد. وأعطى اللواء عمه حمزة رضي الله عنه. وسار حتى نزل العشيرة من بطن ينبع. ولم يلق من عيرات قريش ولا عيراً لفواتها.

ولكنه ﷺ وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فكان في ذلك خير للإسلام والمسلمين. فأقام بالمنطقة بقية جمادى الأولى. وليالي من جمادى الآخرة وعاد إلى المدينة ولم يلق كيداً من أحد. والحمد لله رب العالمين(١).

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٥٤) والسيرة النبوية للحافظ الدمياطي (ص ١٨٦، ١٨٧).

غزوة بدر الأولي

إن سبب هذه الغزوة هو أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة ـ أي ما شيتها من إبل وغنم وبقر ـ وذلك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة العشيرة ببضعة أيام من ثلاثة إلى تسعة.

فلما أغار كرز على سرح المدينة. خرج الحبيب ﷺ مع أصحابه في طلبه لافتكاك الماشية منه. فاستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة مولاه. وأعطى اللواء على بن أبي طالب. وسار في كرز حتى بلغ واديًا يقال له:

سَفْوان من ناحية بدر. وفاته كرز فلم يدركه. فسميت هذه الغز،ة بغزوة بدر الأولى. إذ انتهى فيها مسير رسول الله ﷺ إلى قرب بدر. ووصفت بالأولى. لأن بعدها بدراً الكبرى التي نصر الله فيها الرسول والمؤمنين على أبي سفيان والمشركين. وهناك بدر الآخرة.

فلذا قيل في هذه بدو الأولى(١) .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٤٦) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٩).

غزوة بدر الكبرى

لهذه الغزوة الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، والمُعَنْ لها في القرآن - بيوم الفرقان - لها خطوات قبل الإلتقاء فيه، وله أحداث جسام عنده وبعده،وهذه هي الخطوات التي تمت من الجانبين: الإيماني - والكفري أو التوحيد - والشركي.

١ - قافلة تجارية كبري لقريش خرجت من الشام يقودها أبو سفيان ورجاله في طريقها إلى مكة المكرمة.

٢ - يصل خبر القافلة إلى النبي ﷺ ، فينتدب بعض أصحابه لاعتراضها إذا مرت بالحجار، لعل الله تعالى ينفلهم إياها - أي يرزقهم ما تحمله من بضائع وسلع نافعة وعظيمة - وهم أحوج ما يكونون إلى ذلك، لأن أموالهم تركوها بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فصادرتها قريش منهم، ولنستمع إلى الرسول ﷺ يقول لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»(١) .

فخف بعض، وثقل بعض، لأن الأمر ما كان ملزمًا وإنما هو مجرد عرض لا غير. كما أنهم ما كانوا يظنون أن النبي ﷺ سيواجه حربًا ويلقى قتلاً.

٣ - أبو سفيان يدنو من الحجاز بقافلته، وها هو ذا يتحسس الأخبار ويسأل كل من يلقى من الركبان؛ خوفًا من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقة، وفعلاً أصاب خبراً من بعض الركبان مفاده أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه له ولغيره، فقوى بذلك خوف أبي سفيان؛ فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشًا فيخرجوا لحماية عيرهم التي بها أموالهم.

٤ - في مكة ترى عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضمضم الغفاري مكة بثلاث ليال، فتبعث إلى أخيها العباس رضي الله عنه فتقول له: يا أخي، لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني.

وتخوفت أن يدخل على قومك شر ومصيبة. فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكبًا

---

(١) السيرة لا هشام (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس.

أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يالغدر لمصارعكم في ثلاث. فرأى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا بالغدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منه فلقة.

فقال لها العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد واستكتمته. إياها إلا أنه قصها على الوليد بن عتبة صديقه واستكتمته إياها، فذكرها الوليد لأبيه، ففشت حتى بلغت أبا جهل فغضب لذلك، فلما رأى العباس يطوف ناداه: يا أبا الفضل إذا فرغت فأقبل إلينا، فلما جاءه قال له: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة!!

قال العباس: فقلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فستربص هذه الثلاثة: فإن يك حقًا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب. وبعد ثلاث وصل ضمضم بن عمرو الغفاري، ووقف على بعيره، وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً: اللطيمة. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركونها، الغوث الغوث؛ وتجهزت قريش وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك(١).

ولما اجتمعت قريش للمسير ذكرت ما بينها وبين بني بكر من حرب فخافت أن تضرب من خلف، إلا أن إبليس جاءهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة فقال لهم: أنا جار لكم فلا تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فطمأنهم بهذا فمشوا سراعًا.

٥ ـ وخرج النبي ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه، وذلك يوم الإثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم إلا

---

(١) السيرة لابن هشام (٢ / ٢٦١ ـ ٢٦٥).

أنه رد أبا لبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة، وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وكان أمامه ﷺ رايتان سودوان: العقاب وكانت مع على بن أبي طالب، والأخري مع بعض الأنصار، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعقبونها.

وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً، وليس معهم إلا فرسان: فرس الزبير بن العوام، وفرس المقداد بن عمرو.

ثم سلكوا طريق العقيق على فج الروحاء، ونزل الرسول ﷺ ببئر الروحاء ثم ارتحل منها، فترك طريقًا على يساره، وسلك ذات اليمين، وقطع الوادي إلى مضيق الصفراء، ثم بعث بسبس الجهني وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره، ثم سار سالكًا ذات اليمين على وادي ظفران، ولما قطعه نزل وقد أتاه ﷺ الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن مسير قريش فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله ﷺ امض لما أمرك الله به؛ فنحن معك؛ والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك[١] الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ : «أشيروا عليَّ أيها الناس».

فوقف سعد بن معاذ فقال وقال: والله كأنك تعنينا يا رسول الله ﷺ قال: «أجل»! فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامضي يا رسول الله لما أردت ونحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا أحد، وما نكره أن تلقي بنا غدًا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله[٢] ، فسر الرسول ﷺ لقول سعد ونشطه، فقال: «سيروا أبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[٣] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي (٧/ ٢٨٧) وبرك الغماد : موضع قريب من مكة إلى الجهة اليمنى.
(٢) صحيح مسلم (١٧٧٩).
(٢) صحيح أحمد فى المسند (٣٦٩٨) والبداية والنهاية (٣/ ٢٦٢) وإسناده صحيح .

وطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يُشيروا عليه كان يعني به الأنصار، لأن شروط بيعة العقبة التي كانت بينه وبينهم لم تتضمن نصرتهم له خارج المدينة وإنما داخلها فقط، فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله، فلذا طمأنه سعد بما قال وسر به، وتابع ﷺ سيره تجاه بدر حتى نزل قريبًا منها.

تدبير حربي:

وركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، والأصحاب نزول، ركبا ليمسحا المنطقة التي نزلوا بها تعرفًا إلى ما في المنطقة، وتطلعًا إلى أخبارالعدو «العير وقريش» معًا فعثر على شيخ يقال له: سفيان الضمري ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد ﷺ وأصحابه، وماذا يعرف عنهما، فقال الرجل: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إن أخبرتنا أخبرناك» - في هذا القول من الحيطة والإحتراس ما فيه - فقال الشيخ: أذاك بذاك؟ فقال النبي ﷺ: «نعم». فقال الشيخ مخبرًا: قد بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان كذا وكذا، للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدقني الذي أخبرني فهم الان بمكان كذا وكذا إشارة إلى المكان الذي هم الأن به وهو العدوة القصوي، ثم قال: وأنتما؟ قال النبي ﷺ: «نحن من ماء...» أي من جنس الماء الذي خلقنا منه لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فكانت منه ﷺ تورية حسنة يتطلبها الموقف.

فأخذ الشيخ يردد كلمة من ماء محتارًا في هذه النسبة، أمن ماء العراق هما أم من ماء كذا(١) . وعاد النبي ﷺ إلى المعسكر الإسلامي.

تدبير آخر:

وفي المساء أرسل النبى ﷺ عليًا والزبير وسعد بن أبي وقاص في رجال يتحسسون العدو ويتعرفون أخباره، فعثروا على رجلين يسقيان الماء لقريش، فأتوا بهما إلى المعسكر الإسلامي فسألوهما فقالا: نحن سقاة لقريش، فأنكروا عليهما ذلك، واتهموهما بأنهما سقاة للعير لا لقريش رغبة من الأصحاب في العثور على العير لا النفير، لأن العير لا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

شوكة فيها بخلاف النفير وهم يودون غير ذات الشوكة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وسالوهما، فلما أصرا على ما قالا، ضربوهما فأوجعوهما فقالا: إنهما لأبي سفيان وكان النبي ﷺ يصلي - فلما سلم من صلاته قال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقًا والله إنهما لقريش. أخبرانا عن قريش».

فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال رسول الله ﷺ: «كم القوم» فقالا: كثير، قال: «فما عدتهم»؟ قالا: لا ندري. فقال: «كم ينحرون كل يوم من الإبل»؟ قالا: ما بين التسعة إلى العشرة، فقال ﷺ: «إذا القوم ما بين التسعمائة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، و.... و .... فذكرا كمًا من أشراف قريش. وهنا أقبل الرسول ﷺ على الناس، وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»(١).

ثم سار رسول الله ﷺ مع أصحابه فنزلوا مكانًا قريبًا من العدوة الدنيا لا ماء فيه، فعطش المعسكر، وأصاب بعضه جنابة بالاحتلام، فلم يجدوا ماء يغتسلون به، ووسوس الشيطان لبعضهم: كيف تقاتلون غدًا وأنتم جنب، وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم، قد تموتون عطشًا.. إلى آخر ما يلقي الشيطان في نفوس الناس، فأكرمهم الله تعالى فأنزل عليهم مطرًا، فسقوا واغتسلوا ولبد الرمل ليسهل الكر والفر عليه.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

تدبير سابق:

وكان المعسكر الإسلامي قد بعث بسبس بن عمرو وعدي بن الزغباء يتحسسان أخبار العدو ويرقبان تحركاته، فنزلا على تل قريب من الماء، ثم نزلا يسقيان الماء في شيء لهما، وعلى الماء رجل يقال له: مجدي بن عمرو الجهني فسمع بسبس وعدي صوت جاريتين، تقول إحداهما لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعده، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك،

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٤) وابن هشام (٢/ ٢٢٩).

فسمع عدي وصاحبه حديثهما وما دل عليه، فجلسا على بعيرهما، وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا من خبر ورود العير غداً أو بعد غد. إلا أن أبا سفيان لحذره وشدة توقعه تقدم العير إلى ماء بدر فوصله ووجد مجديًا فسأله قائلاً: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا إني رأيت راكبين. قد أناخا هذا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما وأخذ من بعير ناقتيهما، ففتته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى العير سريعًا فحولها عن طريقها فأخذ الساحل وترك بدرًا يسارًا، وانطلق مسرعًا وبذلك نجت العير بكل ما فيها.

وأرسل أبو سفيان إلى قريش يخبرهم أن العير قد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ـ وكانوا بالجحفة ـ فنقيم عليها ثلاثًا فننحر الجُزُرَ، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وترى مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا، وكانت بدرًا سوقًا سنوية يجتمع فيه الناس، ورفض الأخنس بن شريق الثقفي ـ وهو حليف بني زهرة ـ فقال: يا بني زهرة، ارجعوا فإنه لا حاجة لكم بالمسير إلى بدر، إذ نجى الله أموالكم، وخلص صاحبكم ـ وهو مخرمة بن نوفل، فرجعوا إلى مكة فلم يشهدوا بدرًا، وسارت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى.

عودة إلى المعسكر الإسلامي:

ونظر الحباب بن المنذر إلى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ بأصحابه فرآه غير لائق عسكريًا، فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل؟ أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيد» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ : «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين ، وسار إلى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه فملئوه ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية.

تدبير صالح :

وتقدم سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون

فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقي عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءانا، فقد تخلف عنا أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وبني العريش وجلس فيه رسول الله ﷺ ، وكان هذا من سعد تدبيرًا حسنًا.

تقارب المعسكرين:

وتحركت قريش نحو الوادي، (وادي المعركة) فلما رآها رسول الله ﷺ تنحدر من الكثيب إلى الوادي قال: «اللهم هذه قريش قد أقلبت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم أحنهم الغداة » (١)

ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا»(٢)

في معسكر الكفر:

ولما استقرت قريش في معسكرها، بعثت عمير بن وهب الجمحي يحرز لهما أصحاب محمد ﷺ ، فأجال فرسه حول المعسكر الإسلامي ثم رجع، فقال ثلثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر ما إذا كان للقوم كمين أو مدد، وضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ماوجدت شيئًا، ولكن قد رأيت - يا معشر قريش - البلايا.

تحمل المنايا، نواضح (٢) يثرب تحمل الموت الناقع (١) قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فروا رأيكم.

وكان هذا من عمير - وإن كان نصحية - لكنه بث فى نفوسهم الخوف فلما سمع حكيم بن حزام ما قال عمير أتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها

(١) صحيح مسلم (١٧٦٣) وأبو داود (٢٦٩٠) والترمذي (٣٠٨١).

(٢) المستفاد من قصص القرآن (١٣١-١٣٢).

والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال: فعلت فعلى عقله (١).

وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية ـ أبا جهل ـ فإني لا أخشى أن يشجر (٢).

أمر الناس غيره. إلا أن عتبةقام خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم ـ والله ـ ما تصنعون شيئًا بلقائكم محمدًا وأصحابه، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه الرجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته؛ فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا، منه ما تريدون.

وأتى حكيم أبا جهل وأخبره أن عتبة أرسله إليه بكذا وكذا (أي بالعدول عن الحرب والعودة إلى مكة) فقال: انتفخ ـ والله سحره (٣).

كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأي أن محمدًا وأصحابه أكلة جذور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه. فلما بلغ عتبة قول: أبي جهل (انتفخ والله سحره) قال: سيعلم مصفر . استه من انتفخ سحره: أنا أم هو؟

في معسكر الإسلام:

وشرع القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ في تعديل صفوف أصحابه، وكان بيده قدح، يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية وهو مستنتل (٤) من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استوا يا سواد» فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني ـ وقد بعثك الله بالحق والعدل ـ فأقدني من نفسك، فكشف له ﷺ عن بطنه، وقال له: «استقد» فاعتنقه يقبل بطنه، فقال له: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله حضر ما تري، فأردت أن يكون أخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير(٥).

وبعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، رجع إلى العريش فدخل ومعه أبو

---

(١) أى : عليَّ ديته .

(٢) يشجر : يفرق .

(٣) كناية عن الجبن والخوف .

(٤) أى متقدم .

(٥) صحيح السيرة النبوية ص٢٣٦ .

بكر الصديق ليس معه فيه غيره، وقام الحبيب ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها في الأرض»، وجعله يهتف بربه ويقول: «اللهم إنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك»، ويرفع يده إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبو بكر رضي الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ويقول مشفقًا عليه من كثرة الإبتهال: يا رسول الله بعض مناشدتك ردك، فإنه سينجز لك ما وعدك(١). وخفق النبي ﷺ خفقة أي إغفاءة قليلة، ثم انتبه منها فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع»(٢). أي الغبار.

التقاء الفريقين:

في صبيحة يوم الجمعة من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة تلاقى فريق التوحيد مع فريق الشرك، وقد قَلَّل الله كلاً من الفريقين في عين الآخر، جاء هذا في قول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤].

وبدأت المعركة، فرمى المشركون مهجعًا مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بسهم فكان أول قتيل من المسلمين في المعركة، ثم رمي حارثة بن سراقة ـ أحد بني عدي بن النجار، وهو يشرب من ماء الحوض بسهم ـ فأصاب نحره فقتل، وهو الذي جاءت أمه رسول الله ﷺ لما عاد إلى المدينة وقالت: يا رسول الله، أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإلا فليرين الله ما أصنع، ـ تريد من البكاءوالنياحة عليه ـ فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»(٣).

وخرج من معسكر المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ـ وكان رجلاً شرسًا سيء الخلق ـ فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه ـ فخرج إليه حمزة رضي الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فأطن(٤) قدمه بنفس ساقه ـ وهو دون الحوض ـ فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر بيمينه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض، فكان أو قتيل من المشركين في بدر.

---

(١) مسلم (٣/ ٣٨٤). (٢) البخارى (٣٩٩٥).

(٣) البخارى (٣٩٨٢) عن أنس.

(٤) اى قطع قدمه من نصف الساق.

المبارزة قبل الإلتحام:

من سنة الحرب عند الأولين أنهم يبدءون المعركة بالمبارزة بأن يطلب أحد المعسكرين المبارزة من الآخر من باب إثارة الحمية وتهييج المقاتلين. وهنا في غزوة بدر، خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة بن ربيعة فدعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار، وهم عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة فسألوهم: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على».

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال على: على، قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدة عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز على الوليد بن ربيعة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وكذلك على لم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، فأثبت * كلاهما صاحبه، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذفقا ** عليه واحتملا صاحبهما وحازاه إلى معسكرهم (١) .

ثم ظهر النبي ﷺ للناس، فحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم الرجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبرًا إلا أدخله الله الجنة»(٢) فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة - وي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل - رضي الله عنه وأرضاه (٣)- ثم تقدم إلى رسول الله ﷺ ابن عفراء - وهو عوف بن الحارث - فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عباده؟ قال: «غمسه يده في العدو حاسراً»، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل - رضي الله عنه وأرضاه - وهنا تقدم الحبيب ﷺ فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشًا بها، وقال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه وقال: «شدوا» وعاد إلى العريش (٤) ،

*أى جرح كلاهما صاحبه . **أى أسرعا قتله .

(١) انظر الرحيق المختوم (ص١١٦ - ١١٨).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٣٩).

(٣) مسلم (١١٥٧).

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

واقتتل الفريقان وكانت الهزيمة للمشركين، فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون كان الحبيب محمد ﷺ ساعتئذ في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفًا عليه من كرة العدو عليه.

نهاية سعيدة :

ودارت المعركة وشاركت فيها الملائكة وعلى رأسهم جبريل - عليه وعليهم السلام - وكان عددهم ألف ملك في صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهورهم إذ شوهد بعضهم وأخبر بهم الرسول ﷺ - وفى سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩] أي تطلبون الغوث منه؛ لأنهم رضي الله عنهم ضجوا بالدعاء عند ملاقاة المشركين سائلين الله تعالى أن يمدهم بنصر منهم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] وفيها أيضًا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

فبعض الملائكة قاتل بالفعل وبعضهم كان يثبت قلوب المؤمنين حتى تصبر على القتال.

ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين إذ قتل من صناديد قريش سبعون وأسر منهم سبعون. وكان من بين القتلى الطاغية فرعون هذه الأمة، أبو جهل، وعتبة بن ربيعة وولده الوليد بن عتبة وأخوه شيبة بن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن معيط، وأبو البختري، وعبيدة بن سعيد بن العاص، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن هشام وأمية بن خلف وغيرهم إذ كانوا سبعون قتيلاً.

ومن بين الأسرى: العباس عم النبي ﷺ وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن أبي سفيان وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير،وسهيل بن عمرو أحد ساسة قريش البارزين.

آية محمدية :

كانت المعركة دائرة والقتال مستمرًا وسيف عكاشةبن محصن ينقطع من الضرب في يده فكيف يقاتل؟ فأتى الرسول ﷺ وهو في العريش - مركز القيادة - وشكا إليه انقطاع سيفه،

فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطب، وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فلما أخذه من يد رسول الله ﷺ هزه في يده، فصار سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمي «العون» وما زال مع عكاشة يقاتل به حتى قتل رضي الله عنه في حرب الردة على عهد أبي بكر الصديق. فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القوية.

جيف المشركين:

لما خمدت المعركة ـ ودفن المسلمون شهدائهم، وكانوا أربعة عشر شهيداً.

سحبت جيف المشركين إلى قليب كان في ساحة المعركة، فالقوا فيه إلاما كان من الطاغية أمية بن خلف، فإنه قد انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليحركوه فتزايل لحمه فتركوه مكانه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه:

وفي جوف الليل سمع النبي ﷺ وهو واقف على القليب ـ الذي فيه جيف المشركين ـ يناديهم موبخًا لهم مقرراً: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني، وآواني الناس، وقاتلموني ونصرني الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا».

فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادي قومًا قد جيفوا؟!.

فقال لهم: «ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا»(١)
وفي هذا يقول حسان في قصيدة سجل فيها غزوة بدر منها قوله:

فدع عنك التذكر كل يوم
ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبر بالذي لاعيب فيه
بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر

(١) البخاري (٣٠٦٥) مسلم (٢٨٧٥).

لنا في المشركين من النصيب
غداة كان جمعهم حراء
بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع
كأسد الغاب مرادن وشيب
أمام محمد قد وازروه
على الأعداء في لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات
وكل مجرب (١) خاطي الكعوب
بنوا الأوس الغطارف وازرتها
بنو النجار في الدين الصليب (٢)
فغادرنا أبا جهل صريعًا
وعتبة قد تركنا بالحبوب (٣)
وشيبة قد تركنا في رجال
ذوي حسب إذا نُسبوا حَسِيب
يناديهم رسولُ الله لما
قذفناهم في كباكبَ في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقًا
وأمر الله يأخذُ بالقلوب
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا:
صدقت وكنت ذا رأي مُصيب

خلاف الأحبة وحسمه:

وأمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ بعد إنجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرهم - أمر بجمع الغنائم فجمعت، واختلف الأصحاب المجاهدِون - رضوان الله عليهم - فيمن هو الأحق بها -؟ فقال الجامعون لها: هي لنا، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم. والله لولا نحن ما أصبتموها، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم

(١) المكتنز الممتلئ .
(٢) الشديد من صلابته .
(٣) وجه الأرض .

حتى أصبتم الذي أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ في العريش؛ خشية أن يخالف له العدو: والله ما أنتم أحق بها منا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسمًا للخلاف، ثم أنزل قسمتها في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائيًا (١) ، والحمد لله رب العالمين.

بشائر النصر:

وعجل الحبيب محمد ﷺ بتبشير المسلمين في المدينة بالنصر الذي تم، فبعث عبد الله ابن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: أتانا الخبر - حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان رضي الله عنه أن زيد بن حارثة قد قدم، فجئت وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري، وأمية بن خلف، وبنيه ومنبه بن الحجاج، فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بني.

طلوع البدر:

وطلع الحبيب محمد د من بدر عائدًا إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه ﷺ الغنائم، وجعل عليها عبد الله بن كعب النجاري وسار ﷺ، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية إلى سرحة به، فقسم هناك الغنائم بالسوية على المسلمين، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه بالنصر المبين، وأثناء مسيره وبالصفراء بالضبط - قتل عليُّ بن أبي

(١) أحمد (٥/ ٣٢٢).

طالب النضر بن الحارث ـ أحد الأسرى ـ كما قُتل عقبة بن أبي معيط قتله عاصم بن ثابت الأنصاري بعرق الطيبة، وثم لقي رسول الله ﷺ أبو هند حجام الرسول ﷺ ، لقيه بحميت[1] حيًا.

فقال فيه رسول الله ﷺ : «إنما هو أبو هند أمرؤ من الأنصار فأنكحوه، وأنكحوا إليه» ففعلوا، وكان أبو هند مولى لفروة بن عمرو البياضى ، ثم مضى رسول الله ﷺ في مسيره إلى المدينة فوصلها قبل الأسارى بيوم.

أيهما خير؟ القتل أو الفداء:

إنه بعد أن أتم الله نصره لرسوله وللمؤمنين ـ حيث انهزم المشركون وفروا من المعركة لائذين تاركين وراءهم سبعين جثة ألقيت في القليب وسبعين أسيرًا وضعوا في القيود، وقفل رسول الله ﷺ راجعًا، ونزل منزلاً، واستشار أصحابه في الأسرى أيقتلون أم يفادون بمال يستعان به على مواصلة الجها د؟ فقال ﷺ : «إن الله قد أمكنكم منهم، فما تقولون في هؤلاء الأسرى»؟ فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ . ثم عاد ﷺ إلى قوله طالبًا المشورة في الأسرى، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نرى أن تعفوا عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب عن وجه النبي ﷺ ما فيه من الغم فعفا عنهم وقبل الفداء، فأنزل الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فوافقت الاية عمر رضي الله عنه فيما رآه من قتل الأسرى في المعركة. وأنزل الله تعالى عذر نبيه ﷺ وعذر صاحبه أبي بكر الصديق فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ـ ٦٩].

وأنزل في الأسري قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فشجعهم بهذا على دفع الفدية وواعده بالمغفرة والرحمة إن هم أسلموا وحسن إسلامهم.

من بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وعقيل بن أبي طالب

(١) الزم من الجلد والحيس السمن يخلط بالتمر والأقط .

وغيرهما وبهذا كان القتل للأسرى في هذه المعركة البدرية خيرًا من المفادة، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام. وإن كان المفاداة في غيرها خيرًا، وفي كل خير والحمد لله إذ أنزل تعالى بعد هذه الآيات من سورة الأنفال، أنزل سورة القتال، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

فخير تعالى في هذه الآية الإمام بين المن مجانًا وبين الفداء بما قبل، وبين القتل، فليدُرُ الإمام مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن كانت في الفداء وإن كانت في القتل قتل، وإن كانت في المن من.

كرم محمدي:

إنه لعظم كرمه ﷺ ووافر رحمته، لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة النبوية مفرقين بينهم، قال لهم: «استوصوا بالأسارى خيرًا»(١). وها هو ذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وقد أسر يحدث فيقول: مر بي أخي مصعب ورجل من الأنصار بأسيرين، فقال له شد يديك به، - أي حافظ عليه - فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك؟ قال أبو عزيز: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غذائهم أو عشائهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ بنا، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها على أحد، فيردوها على ما يمسها. فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله!! فصلى الله عليه وسلم، ما أرحمه!! لقد نالت رحمته أعداءه، ورضي الله عن صحابته الطيعين البرزة الخيرين.

صدى هزيمة المشركين في مكة:

ودخل مكة أول داخل من المعركة الحسيمان بن عبد الله الخزامي، فسألوه في لهف: ما ما وراءك؟ قال: عتبة وشيبة وأبو الحكم وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه، وأبو البحتري، فلما أخذ يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر: والله ما يعقل هذا، فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالسًا في الحجر، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦) وقال رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

ولنستمع إلى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ يحدث بنبأ هزيمة المشركين فيقول: كنت غلامًا للعباس، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام، فلما جاءه الخبر أقبل يجر رجيه بشر، حتى جلس على طنب حجرة زمزم - أي طرفها - فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم، فما إن رآه حتى قال له: هلم إلى، لعمري عندك الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال له: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقد لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق (١) . شيئًا ولا يقوم لها شيء، فقال أبو رافع: قلت: تلك - والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك على يضربني، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة شقت رأسه، وقال: أستضعفته أن غاب عنه سيده؟ فقام موليًا ذليلاً، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليال فرماه الله بالعدسة(٢). فقتلته.

هذه واحدة من صدى الهزيمة. .(٣) .

وأخرى: وهي أن قريشًا لما فوجئت بالكارثة الشديدة، ناحت نساؤها نوحًا شديدًا، ثم رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه إذا علموا ذلك شمتوا بهم، فصدر أمر بمنع النياحة، وعدم المطالبة بمفاداة الأسرى خشية أن يغالى محمد وأصحابه في ثمن الفداء.

ومن غريب ما حصل، أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده وهم: زمعة، وعقيل، والحارث فأحب أن يبكي، وحال دون ذلك قرار المنع الذي صدر عن قريش. فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل تنوح، فقال لغلام له اذهب فانظر هل أحل النحب؟ أي هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكي على أبي حكيمة - ولده زمعة - فإن جوفي قد احترق، فذهب الغلام وعاد فقال له: إن الباكية امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فأنشد يقول:

أتبكي أن يضل لها بعير
ويمنعها من النوم السهود

---

(١) أى : ما تبقى شيئًا .
(٢) فرحة قاتلة كالطاعون .
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٨) .

فلا تبكي على بكر ولكن
على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص
ومخزوم ورهط أبي الوليد(١)

من أصداء المعركة وآثارها:

إن لمعركة بدر أصداء وآثارًا إنا ـ وإن كنا قد عايشنا المعركة ورأينا أحداثها داخل الساحة وخارجها ـ إلا أن لهذه المعركة التاريخية الفاصلة أصداء وآثارًا ذات مدى قريب أو بعيد، فحسن رؤية ذلك ومشاهدته. وإزاء النقاط السود نذكر ما يمكن ذكره من ذلك:

فداء أبي وداعة:

لقد أسر أبو وداعة السهمي فيمن أسر في المعركة، فلما رآه النبي ﷺ أو سمع به أنه ضمن الأسرى قال ـ فداه أبي وأمي ـ: إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال وكأنكم به وقد جاءكم في طلب فداء أبيه. ولما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسراكم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبي وداعة: صدقتم لا تعجلوا، وانسل هو ليلاً، فقدم المدينة ففدى والده بأربعة آلاف درهم، وهكذا يفعل الأكياس البررة بآبائهم، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وكانت آية نبوة.

سهيل بن عمرو:

قدم مكرز بن حفص المدينة في فداء سهيل بن عمرو، وكان قد أسره مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف الأنصاري، فلما خاطبهم مكرز في فداء سهيل بن عمرو قالوا: هات الذي لنا ـ يريدون من المال ـ مقابل فداء سهيل. فقال لهم مكرز: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزًا مكانه، وكان سهيل رجلاً أعلم ـ أي مشقوق الشفة العليا وكان خطيبًا ـ فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقدم عليك خطيبًا أبدًا، فقال رسول الله ﷺ «لا أمثل به، فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا، وإنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه عليه»(١).

---

(١) السيرة النبوية لابن شهاب (٢/ ١٧١).

(١) البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

أبو العاص بن الربيع:

أبو العاص بن الربيع هو ختن النبي ﷺ إذ هو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ زوجه إياهاقبل البعثة النبوية برغبة من والدتها خديجة - رضي الله عنهم أجمعين وألحقنا بهم آمين - ولما بعث النبي آمنت خديجة وكذا بناتها ومنهن زينب، وبقي أبو العاص على شركه، وخرج مع المشركين إلى بدر، فوقع في الأسر، فبعثت زينب في فداءه بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بني بها فلمارأها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله وأطلقوه وردوا عليها الذي لها - وتجلت في هذه آيات الحب الصادق والطاعة الإيمانية والبشرية المحمدية الطاهرة الرفيعة.

هجرة زينب رضي الله عنها:

لما من عليه ﷺ على أبي العاص بدون مقابل كأنه التزم للنبي ﷺ أن يخلي سبيل زينب لتلتحق بأبيها ﷺ بالمدينة النبوية.

من هنا لما وصل أبي العاص بن الربيع لمكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجل من الأنصار إلى مكة ليأتيا بزينب وقال لهما: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر تقريبًا، فلما قدم أبي العاص أمرها باللحوق بأبيها.

وبينما زينب تتجهز للسفر، لقيتها هند بنت عتبة، فقالت لها: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فخافتها زينب فقالت لها: ما أردت ذلك فقالت لها: أي إبنة عمي لا تفعلى، إن كانت لكي حاجة بمتاع مما يرفق بكي في سفرك أو بمال تبلغين إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا تفعل ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

ولما فرغت زينب من جهازها، قدم لها حموها كنانة بن الربيع بعيرًا فركبته وأخذ هو قوسه، وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها على البعير وسمع من ذلك رجال من قريش فأدركوها بذي طوي فكان أول من سبق إليها فروعها هبار بن الأسود بن مطلب بن أسد إذ أشار إليها بالرمح فخافت فطرحت ما في بطنها وبرك على الأرض

حموها ونثر كنانته ثم قال لهم والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمي فتراجعوا عنه وانصرفوا، ثم تقدم نحوه أبو سفيان مفاوضًا له فقال له: إنك لم تصب؛ خرجت بالمرأة على رؤس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذا خرجت بإبنته علانية على رؤس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة. وما لنا في ذلك من ثؤرة (١) .

ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلُها سرًا وألحقها بأبيها، قال: ففعل فأقامت ليالي حتى هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدم بها على رسول الله وكان في قصة هجرة زينب عبرة لأولى الألباب.

إسلام أبي العاص وكيف كان:

قبيل فتح مكة خرج أبي العاص بن أبي الربيع بعل زينب بنت رسول الله ﷺ المهاجرة إلى أبيها بالمدينة ـ خرج تاجرًا إلى الشام، وكان رجلاً مأمونًا بأخذ أموال أرباب الأموال ويتجر فيها، وعند رجوعه من الشام اعترضته سرية من سرايا الرسول ﷺ فأخذ ما معه من أموال، وهرب فأعجزهم، ووصل المدينة ليلاً مختفيًا فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته، وقد جاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح، وكبر فيها وكبر الناس معه صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبى العاص بن الربيع فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت»؟ قالوا: نعم، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم». ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته وقال: «أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليكي فإنكي لا تحلين له» (٢) .

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى أفراد السرية فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتُم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإن نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، وأنتم أحق به». فما كان منهم إلا أن ردوا عليه كل ماله حتى إن

---

(١) طلب ثار .

(٢) صحيح السيرة النبوية (ص٢٦١).

الرجل يأتي بالشنة والأخر يأتي الشظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره، فاحتمله إلى مكة ورده إلى أهله ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا؛ فقد وجدناك وفيًا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أني إنما أردت أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ فرد عليه زينب بعد فترة فرق الإسلام بينهما لتقدم إسلامها وتأخر إسلامه.

مثل رائع يضربه أبو العاص:

إنه لم قدم أبو العاص من الشام ومعه أموال التجارة واعترضته السرية قال له رجالها: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنها أموال المشركين؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي، فرفض المقترح، وكان الذي كان... ووصل مكة وأدى أموال الناس وهي أمانات في ذمته، ثم أعلن إسلامه، فكان هذا مثلاً رائعًا في الوفاء يضربه ختن الحبيب محمد ﷺ أبو العاص بن الربيع فرضي الله عنه، وأرضاه، وجعل الجنة مأوانا ومأواه آمين.

إسلام شيطان:

كان بمكة رجل يدعي عمير بن وهب يمثل الشيطان في كيده وخبثه؛ أذى المؤمنين في مكة أذى كبيرًا وكثيرًا. وصف بأنه شيطان من شياطين قريش، جلس (١) يومًا يتحدث مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر، فذكر أصحاب القليب فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم - خير، فقال عمير: صدقت والله، ثم قال: أما والله لولا دين على ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله؛ فإن لي قبلهم علة: ابني وهيب أسير في أيديهم، فأغتنمها صفوان، وقال: على دينك، أنا أقضيه عنك، عيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال صفوان: أفعل.

فأمر عمير بسيفه، فشحذ له وسُمّ (٢).

ثم انطلق حتى أتي المدينة. فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف،

---

(١) انظر أبو داود (٢٦٢٩) وأحمد (٦/ ٢٧٦) والسيرة لابن هشام (٢/ ٣٢٥).

(٢) خشبة صغيرة.

فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، ثم دخل عمر على رسول الله، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. فقال رسول الله ﷺ: «أدخله علي» فأخذه عمر بحمالة سيفه في عنقه ولببه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من الخبيث؛ فإنه غير مأمون ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه - قال: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير» فدنا وقال: انعموا صباحًا - وكانت هذه تحية الجاهلية - فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا بتحية خير من تحيتك يا عمير: بالسلام، تحية أهل الجنة» فقال عمير أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال: «فما جاء بك يا عمير»؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم - يعني ولده وهيبًا - فأحسنوا به، قال الحبيب محمد ﷺ: «فما بال السيف في عنقك»؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟ قال: «أصدقني الذي جئت له»؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال النبي ﷺ: «بل قعدت مع صفوان بن أمية، في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين علي، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان دينك، وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فو الله إني لأعلم أنه ما آتاك به إلا الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره» ففعلوا، وعاد عمير إلى مكة وقام بالدعوة إلى الإسلام بنفس القوة التي كان يدعو بها ضد الإسلام وأوذي كثيرًا في ذلك، وقد دخل بدعوته في الإسلام خلقٌ كثير(١).

وهكذا بعد ما كان عمير بن وهب شيطانًا، أسلم فأصبح داعية إسلامية، وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا. وهنا تتجلى آية النبوة المحمدية الإيمانية وهي أن من يهد الله فلامضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

شرف أهل بدر:

أهل بدر هم المؤمنون الذين خرجوا من المدينة مع النبي ﷺ لاعتراض عير قريش

(١) انظرا البداية والنهاية (٣/ ٣٤٢) والسير لابن هشام.

القادمة من الشام. ثم لما نجت العير تصدوا لقتال كفار قريش في وادي بدر، وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً على عدة قوم طالوت، هؤلاءهم أهل بدر الفائزون بأكبر فضل وأعظم شرف؛ تدل لذلك الأخبار النبوية الآتية:

١ ـ قوله ﷺ لأم حارثة الشهيد الأنصاري، وقد سألته قائلة: يا رسول الله! قد عرفت منزلة حارثة، فليرين الله، ما أصنع ـ تعني من البكاء والنوح ـ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، أو هبلت،؟ أو جنة واحدة؟! إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس»(١). فهذا الخبر ـ وإن كان في شهداء بدر ـ فإنه دال على فضل أهل بدر من استشهد منهم ومن لم يستشهد.

٢ ـ قوله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدر أو الحديبية»(٢) رواه أحمد على شرط مسلم، فهذا الحديث صريح في بيان فضل أهل بدر والحديبية.

٣ ـ روى البخاري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» ـ أو كلمة نحوها ـ قال (أي جبريل»: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة.

٤ ـ رواية الشيخين في حاطب بن أبي بلتعة، وقد كتب كتابًا إلى أهل مكة قبيل تحرك الجيش الإسلامي لفتح مكة، فقال عمر: أئذن لي يا رسول الله اضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: «قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم»(٣) . فدمعت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم.

هذا بيان وشرف أهل بدر وفضلهم ولا يسعنا نحن إلا أن نترضى عنهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا معهم بفضل منه ورحمة، إنه بر رحيم، وجواد كريم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٢) عن أنس.
(٢) انظر السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٣).
(٣) البخاري (٣٩٨٣) مسلم (٢٤٩٤).

١ ـ العمل بمشروعية: جزاء السيئة سيئة مثلها؛ إذ قريش طردت المسلمين وصادرت أموالهم، فاعتراض عيرها لأخذ ما معها من أموال كان عدلاً لا ظلم فيه.

٢ ـ الأخذ بمبدأ الدفاع عن النفس؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

٣ ـ لا إثم ولا عتاب على ترك المندوب من الأقوال والأعمال؛ إذ لم يعتب على الذين لم يخرجوا إلى غزوة بدر لكون الطلب كان ندبًا لا وجوبًا.

٤ ـ مشروعية الشورى وإنها من الواجبات الضرورية في كل ما يهم أمر المسلمين، لاستشارة رسول الله ﷺ أصحابه في أمر قتال المشركين في بدر.

٥ ـ وجوب مراعاة العهود والمواثيق والإلتزام بها، تجلى هذا في طلب النبي ﷺ بيان موقف الأنصار من القتال معه فيما لو حدث قتال بعد نجاة العير.

٦ ـ بيان فضل أبي بكر وعمر والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ، تجلى ذلك في كلماتهم التي قالوها للرسول ﷺ عند طلبه المشورة من أفراد أصحابه حيث قرت بذلك عينا النبي ﷺ.

٧ ـ بيان أن من ضروريات الحرب بث العيون للتعرف على تحركات العدو وعلى أماكن وجوده وتقدير قواته وحرزها، ومعرفة مدى ما تقدر عليه.

٨ ـ مشروعية الضرب الخفيف الذي لا يكسر عضوًا ولا يشين جارحة؛ من أجل استنطاق أفراد العدو للحاجة إلى ذلك وحرمة التنكيل وشدة التعذيب.

٩ ـ مشروعية استعمال المعاريض والتورية في الكلام في حالة الحرب والتعمية على العدو وقطع الطرق عليه ، والحيلولة بينه وبين المرافق التي قد ينتفع بها في شن غاراته والزحف بقواته.

١٠ ـ ضرورة استعمال الرأي والمكيدة في الحرب.

١١ ـ آية انقلاب العصا سيفًا صارمًا ـ في يد عكاشة بن محصن قاتل به طوال حياته: من أعظم آيات النبوة المحمدية.

١٢ ـ آية حفنة الحصا التي رمي بها النبي ﷺ فأصابت جيشًا بكامله فخبلته، وأصابته بالتمزق والهزيمة من آيات البنوة المحمدية.

١٣ ـ تقرير مبدأ لا موالاة بين الكافر والمؤمن؛ إذ قاتل الرجل ولده، وقاتل أباه، وقاتل ابن عمه في معركة بدر.

١٤ ـ قتال الملائكة في معركة بدر، ورؤية بعضهم وظهور آثارهم: آية النبوة المحمدية.

١٥ ـ خذلان الشيطان إخوانه من المشركين إذ فر هاربًا لما رأى الملائكة في ساحة المعركة بعد أن أجارهم ودخل المعركة معهم .

١٦ ـ بيان هلاك المستهزئين مصداقًا لقول الله تعالى لرسوله وهو في مكة: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] إذ هلك بالمعركة جلهم كأبي جهل وعتبة، وأمية والوليد وعقبة بن أبي معيط.

١٧ ـ وجوب رد الخلاف إلى الله والرسول في كل ما يشجر بين المسلم والمسلم، إذ الخلاف الذي تم في شأن الغنائم رد إلى الله والرسول، وقضى الله تعالى فيه فيما هو العدل والخير.

١٨ ـ مشروعية فداء الأسرى أو قتلهم، أو المن عليهم إذا رد هذا إلى الإمام يحكم بما فيه خير للإسلام والمسلمين.

١٩ ـ موافقة عمر رضي الله عنه ربه في أسرى بدر، إذ كان قتلهم أولى من فدائهم.

٢٠ ـ تجلي الرحمة المحمدية في وصيته ﷺ بالأسرى خيرًا وبيان مدى طاعة أصحابه له ﷺ.

٢١ ـ تقرير مبدأ الجوار في الإسلام وأن المسلمين يجير عليهم أدناهم والمرأة في الجوار كالرجل سواء.

٢٢ ـ بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من بعض الكمالات كالأمانة والنجدة والعفة.

٢٣ ـ أية النبوة المحمدية في إخباره ﷺ عمير بمَا قال في الحجر مع صفوان وليس معهما أحد إلا الله.

٢٤ ـ بيان تاريخ غزوة بدر، وأنها في رمضان من السنة الثانية من الهجرة [(١)].

(١) هذا الحبيب يا محب ص١٩٤ .

غزوة الكدر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر بلغه أن بني سليم قد تجمعوا لحرب الرسول ﷺ على ماء لهم يقال له: «الكدَر» فسار إليهم ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه فواصل سيره طالبًا جموع بني سليم التي تجمعت لحربه رضي الله عنه حتى بلغ ماءهم «الكدر» فلم يجد عنده أحدًا، وإنما وجد نعمًا ورعاء، فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبوية، ولم يلق كيدًا. والحمد لله، وبعد آيام أرسل غالب بن عبد الله الليثي في سرية إلى بني سليم وغطفان فقتلوا فيهم وغنموا النعم، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ـ رحمهم الله تعالى ورضي عنهم(١) .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها في الآتي:

١ ـ تقرير مبدأ محاربة ومسالمة من يسالم.

٢ ـ مشروعية الاستخلاف عند غيبة الحاكم العام.

٣ ـ حلية الغنائم، وهي من خصائص هذه الأمة.

---

(١) السيرة النبوية للحافظ الدمياطي (ص١٩٠، ١٩١).

غزوة السويق

إنه بعد هزيمة قريش في معركة بدر وما أصاب رجالها من قتل وأسر:

آلى أبو سفيان بن حرب الا يمس، رأسه ماء من جنابة ـ أي لايطأ نساءه ـ حتى يغزو محمداً ﷺ ويشفي صدره بقتل أصحابه أو أسرهم، ولما لم يجد طريقًا إلى ذلك، وطالت به مدة حلفه، أراد أن يتحلل من يمينه فانتدب مائتي راكب من قريش وخرج يقودهم إلى المدينة لغزوها، فوصلها ليلاً، فترك رجاله خارجها وأتي حيي بن أخطب النضري اليهودي فقرع الباب فلم يفتح له، تخوفًا منه فأتى سلام بن مشكم ـ وهو سيد بني النضير وصاحب خزانة أموالهم ـ فاستأذن فأذن له ودخل وأطعمه وسقاه وبطن له من خبر الناس ـ أي أطلعه على ما يجري في المدينة من أمور هامة ثم خرج من عنده ليلاً فأتى رجاله فأمر عدداً أن يدخلوا المدينة وأن يحرقوا بعض نخيلها، فأتوا ناحية العريض شرق المدينة وحرقوا أصوارًا من النخيل ـ أي مجموعات من النخل ـ ووجدوا فلاحًا وحليفًا له فقتلوهما، وانصرفوا راجعين إلى مكة، وما إن وصل الخبر إلى النبي ﷺ حتى خرج في أصحابه طلبًا لأبي سفيان ورجاله ففاتوه هاربين، وكان معهم سويق ـ هو زادهم في غزوتهم ـ فألقوه في الأرض، ليتخففوا منه وهم هاربون، فوجده النبي ﷺ وأصحابه فأخذوه، وبذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، ورجع رسول الله ﷺ، والمؤمنون ولم يلقوا كيداً. فسأل بعضهم رسول الله ﷺ أنطمع أن تكون لنا هذه الغزوة؟ قال ﷺ: «نعم» ولأبي سفيان أبيات شعرية قالها وهو يتزود لغزو المدينة النبوية، إذا قال فيها:

كروا على يثرب وجمعهم
فإن ما جمعوا لكم نفل
إن يك يوم القليب كان لهم
فإن ما بعده كان لكم دول
ليث * لا أقرب النساء ولا
يمس رأسي وجلدي الغسل
حتى تبيروا ** قبائل الأوس والـ
ـخزرج الفؤاد يشتعل

* حلفت . ** تهلكوا

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلي:

١ ـ بيان أن المشركين من العرب كانوا يغتسلون من الجنابة، وهي مكرمة فيهم من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل، ومن ذلك الختان فقد كانوا يختتنون.

٢ ـ بيان أن مشركي العرب كانوا يؤمنون بالله ويحلفون ويبرون أيمانهم.

٣ ـ بيان أن الخروج للجهاد بنيته يحصل به الأجر، ولو لم يقاتل[١] .

(١) انظر هذا الحبيب يا محب ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .

غزوة ذي أمر

ودخلت السنة الثالثة ـ بعد انقضاء الثانية بما فيها من أحداث جسام وأمور عظام ـ وها هي ذي السنة الثالثة تفتتح بغزوة ذي أمر.

وذلك أن النبي ﷺ بلغه أن جمعًا من غطفان من بني ثعلبة بن محارب، قد تجمعوا عند ماء يقال له: (ذي أمر) من أرض نجد، ليحاربوه ﷺ فسار إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً، وكان ذلك يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه وسار حتى بلغ ماء (ذي أمر) فعسكر حوله وقد هرب الأعراب الذين تجمعوا لحربه ﷺ والتحقوا برؤوس الجبال وكان قد نزل عليهم مطر غزير بلَّ الثياب حتى إن النبى ﷺ لما ابتلت ثيابه الطاهرة جلس تحت شجرة، ونشر ثيابه لتيبس من البلل، فرآه المشركون المعتصمون برؤس الجبال خاليًا وحده، فنزل رجل منهم يقال له: غورث، أو دعثور بن الحارث نزل بإيعاز من إخوانه المشركين، وكان أشجعهم وأقدرهم على القتال، ومشى حتى وقف على رسول الله ﷺ، وقد سل سيفه وقال: يا محمد، من يمنعك اليوم مني؟ وهم بضرب رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: «الله» فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: لدعثور «من يمنعك مني»؟ فقال لا أحد(١) وأنا أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعًا للأبد، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فرجع إلى قومه، فقالوا له: ويلك مالك؟ فقال لهم: نظرت إلى رجل طويل، فدفع في صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، ووالله لا أكثر عليه جمعًا وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزل في هذه الحادثة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وعاد ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا ـ والحمد لله ـ كيدًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلي:

---

(١) البخاري (٢٩٠) مسلم (٨٤٣).

١ ـ مشروعية محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم.

٢ ـ مشروعية الخروج إلى العدو وتتبعه ، إرهابا له.

٣ ـ ظهور آية من آيات النبوة المحمدية، وذلك بسقوط السيف من يد دعثور، وإعلان إسلامه، وتعهده بألا يكثر جمعًا ضد رسول الله ﷺ لما شاهد من آية نبوته ﷺ

٤ ـ تجلي الرحمة المحمدية في العفو عمن أراد قتله بعد التمكن منه.

٥ ـ بيان حسن عاقبة العفو بعد القدرة على المؤاخذة (١) .

---

(١) المرجع السابق ص٢٠١ ، ٢٠٢ .

غزوة الفرع من بحران

ببحران «معدن بالحجاز» ناحية الفرع تجمع بنو سليم لقتال النبي ﷺ. وعلم ﷺ بتجميعهم لحربه، فانتدب أصحابه، وخرج إليهم في ثلثمائة رجل بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وسار إليهم، فلما علموا بمسيره إليهم تفرقوا، وكان هذا مصداق لقوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (١) . فرجع ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا والحمد لله كيدًا، وكانت مدة الغياب عن المدينة عشرة أيام (٢).

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

١ ـ مظاهر العزم والحزم لدى الحبيب محمد ﷺ.

٢ ـ آية النبوة المحمدية في انهزام المشركين بمجرد تحركه ﷺ نحوهم.

٣ ـ فضيلة ابن أم مكتوم لاستخلاف رسول الله ﷺ له على غير مرة إمامًا وحاكمًا.

٤ ـ جواز تولية الأعمى ـ إذا كان ذا أهلية للولاية من الإيمان والعلم والتقوى.

---

(١) البخارى (٣٣٥) مسلم (٥٢١) .

(٢) انظر زاد المعاد (٣ / ١٩٠) والسيرة لابن هشام (٢/ ٤٥٥).

غزوة بني قينقاع

بنو قينقاع هم إحدى طوائف اليهود الثلاث الذي كانوا نزلوا المدينة النبوية قبل الإسلام بزمن طويل، فرارًا من اضطهادهم الروم، وانتظارًا للنبوة المحمدية المبشر بها في التوراة والإنجيل ولما حل النبي ﷺ المدينة مهاجرًا عاهدهم معاهدة سلم وحسن جوار، وقد تقدمت وثيقتها تحمل نصوص موادها.

وقد نافق كثيرًا من أحبارهم ووالوا المشركين في الخفاء، وكانوا يتربصون بالنبي ﷺ وأصحابه الدوائر. ولما خرج ﷺ إلى بدر فرحوا، ظنًا منهم أن المسلمين سيهزمون، وتخضد شوكتهم، ويأفل نجم قوتهم ولما كان النصر للمسلمين والهزيمة للمشركين شرقوا بريقهم، وكشروا عن أنيابهم، وقالوا قالة السوء.

فما كان من الحبيب محمد ﷺ إلا أن جمعهم في سوق بني قينقاع، وقال لهم في جملة ما قال: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل» فقالوا في وقاحة ـ: يا محمد! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا ـ والله ـ لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس، ونزل ردًا على مقالتهم وتهديدهم من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ـ١٣].

فأمر الله تعالى رسوله أن يخبرهم بهزيمتهم الآتية لا محالة ـ وقد كانت ـ وأن مردهم إلى جنهم، وذكرهم بهزيمة المشركين أوليائهم على كثرتهم وشدة قوتهم.

ومضت أيام قلائل، وجاءت امرأة مسلمة بجلب لها فباعته بالسوق، ومالت إلى صائغ يهودي لتشتري منه مصاغًا، فجلست ـ وحوله يهود فعابوا عليها ستر وجهها ـ وطالبوها بكشف وجهها، فأبت ذلك حفاظًا على عفتها، وصيانة لشرفها، من أن تبذل وجهها ينظر إليها غير محارمها، فما كان من أحد أولئك اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ إلا أن غافلها، وربط طرف درعها من أسفله بطرف خمارها، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت واكشفتاها فسمعها رجل مسلم، فهب إليها فرأى ما بها؛ فضرب اليهودي ضربة قتله بها.

وقام يهود فاشتدوا على المسلم فقتلوه فمات شهيدًا ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وهب رجال من المسلمين للحادث فاقتتلوا مع اليهود، وبهذا نقض يهود بني قينقاع عهدهم، وطرحوا معاهدتهم. فنزلوا حصونهم فتحصنوا بها فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصرها نصف شهر حتى نزلوا من حصونهم على حكمه ﷺ، فكتفوه ـ أي ربطوا بحبال في أيديهم وأرجلهم ـ لقتلهم بموجب بنود المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرسول ﷺ. وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط في خلاصهم والعفو عنهم حليفهم عبد الله بن أبي كبير المنافقين، فأتى الرسول ﷺ وكلمه فيهم، وقال: إنهم مواليَّ ، فغضب الرسول ﷺ وانتهر ابن أبي، وقال له ويحك أرسلني إذ قد أخذ المنافق بردائه ﷺ والرسول معرض عنه غضبان، فقال المنافق: لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليَّ ، وهم أربعمائة حاسر أي بدون دروع ـ وثلثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لا أخشى الدوائر فقال النبي ﷺ: «هم لك خلوهم» لعنهم الله ولعنه معهم. وأنزل الله تعالى فيه ـ لعنه الله ـ قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ـ٥٢].

وجاء عبادة بن الصامت ـ وكان مرتبطًا بحلف هؤلاء الكفار وولايتهم، فكان معنيًا بقوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]. وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

ولما أطلقهم رسول الله ﷺ بشفاعة ابن أبي، خرج بهم عبادة بن الصامت إلى أن وصل بهم ذِبَابًا [١] ، ثم ساروا وحدهم إلى أذرعات من الشام، ولم يلبثوا إلى قليلاً حتى هلكوا.

ولما خرج رسول الله ﷺ لغزوهم في حصونهم ولى على المدينة أبا لبابة الأنصاري وأعطى لواءه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ولما أجلى بنو قينقاع، قسم رسول الله أموالهم بين أصحابه، وأخذ خمس الغنيمة لينفقه فيما أمر الله تعالى أن ينفقه فيه حيث نزلت سورة الأنفال، وفيها قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

---

(١) اسم موضع غرب المدينة النبوية وبه جبل معروف يقال له ذباب .

وأخيرًا هل كانت هذه الغزوة في صفر أو في شوال؟(١) الراجح أنها في السنة الثالثة.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

١ ـ تسجيل خيانة اليهود وغدرهم وانعدام وفائهم بأي التزام يدعونه.

٢ ـ تقرير: أن الحجاب هو ستر وجه المرأة عن الرجال الأجانب.

٣ ـ بيان فضل المؤمن الذي غضب لله، فقتل اليهودي الساخر من المؤمنة فقتل شهيدًا رضي الله عنه.

٤ ـ تسجيل الكرم المحمدي في أعظم صورة وأعلى مثال، وذلك بين ظاهر في قبوله شفاعة ابن أبي وعفوه عن الخائنين الغدر ـ عليهم لعائن الله ـ.

٥ ـ فضيلة عبادة بن الصامت الذي تبرأ من اليهود وأعلن ولاءه لله ورسوله وللمؤمنين.

٦ ـ نزول آية آل عمران في الرد على تبجح اليهود وتهديدهم للرسول ﷺ والمؤمنين.

٧ ـ نزول آية المائدة في الرد والتنديد بابن أبي ـ عليه لعائن الله ـ لنفاقه وكفره.

(١) انظر ابن سعد الطبقات (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

في غزوة أحد

أحد جبل مشهور بالمدينة، على أقل من فرسخ من المدينة، وسمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن الجبال الأحد هناك، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»(١) وكانت عنده الواقعة المشهورة في شوال، بالإتفاق يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وقيل لسبع خلون من شوال، وقيل في نصفه وقيل غير ذلك والله أعلم.

وكان سببها أن قريشًا لما رجعوا من بدر، وقد قتل أشرافهم، وأصيبوا بتلك المصيبة التي لم يصابوا بمثلها، ورجع أبو سفيان بعيره، مستي عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فعلنا أن ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا، وفيهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ ونزلت الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]

وأخذت قريش تعد لذلك العدة، وترصد الأموال، وتعبيء القوى، وتجمع السلاح، وبعثت رسلها فيمن حولها من قبائل العرب تستنصرهم، وتستعين بهم على تمكين الضربة، وكان من هؤلاء الرسل أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، قد من عليه رسول الله ﷺ يوم بدر وكان فقيرًا، ذا عيال وحاجة، فأطلقه رسول الله ﷺ بلا فداء، وأخذ عليه العهد والميثاق أن لا يظاهر عليه أحدًا، ولا يكثر عليه جمعًا، فنقد العهد والميثاق، وذهب مع الذاهبين إلى كنانة وتهامة يحرض على القتال، قتال النبي ﷺ ويكثر عليه.

وهكذا ظلت قريش طوال عامها تبذل من أموالها، وتجمع من أنصارها، وتعد من قوتها، حتى بلغت من ذلك ما آرادت وغدت في أتم أهبة، وأكمل استعداد، فلم تلبث حتى حصلت على جيش لَجِب، من رجالها. وممن حالفها من الأحابيش من بني المصطلق، وبني الهون بني خزيمة، وتوجهت إلى المدينة في حماسة الموتور، وسورة المغيظ المحنق، لتضرب الضربة القاضية في زعمها، وأبت نساء قريش إلا أن يكن مع الجيش

(١) البخارى (٤٠٨٤) .

يحمسن الرجال، ويثرن الحمية، فخرج منهن من ربات الخدور نحو أربع عشرة امرأة، على رأسهن هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان بن حرب، وخرج مع الجيش أبو عامر الأوسي الفاسق، وكان مقاومًا للنبي ﷺ، ومباعدًا له ومنكرًا لنبوته، وكان قبل ذلك مترهبًا، يزعم أنه ينتظر النبي المبعوث، ويذكر للناسِ كثيرًا من صفاته،ويقول لهم: إنه قد قرب خروجه، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه حسده أبو عامر وأنكر نبوته، وكان رئيسًا في الأوس قبحه الله، كعبد الله بن أبي في الخزرج، فكل منهما حسد النبي ﷺ لكن عبد الله بن أبي دخل في الإسلام ظاهرًا وهو مع الكفار باطنًا وأبو عامر خرج من الإسلام كافرًا مباعدًا، وخرج معه خمسون من شيعته، من شباب الأوس وغلمانهم، فأقام في مكة مناصرًا لقريش محرضًا لها على قتال النبي ﷺ، فلما عزمت قريش على الخروج إلى أحد، مناها أبو عامر أن يخذل لها قومه الأوس، عن رسول الله ﷺ، وأن يخرج من صفوف المسلمين، إلى صفوف المشركين إذا التقى الجمعان، وكان في ذلك معتمدًا على ما كان له من سابق المكانة في قومه، معتقدًا بأنه بهذه المكانة يستطيع أن يحدث ما يشاء، من التفريق في صفوف المسلمين، وكان يظن أنه يكفي لذلك أن يظهر لهم عند اللقاء، وأن يسمعهم صوته، فيستجيبون له، حتى لقد كان يقول لقريش، في يقين الواثق المطمئن ـ لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم رجلاً، وهؤلاء معي نفر من قومي[١] ، وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا، فلما أصبح بوم الجمعة، واجتمع الناس، خطب على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا، رأيت كأني في درع حصينة ورأيت كأن سيفي ذو الفقار، انقصم من عند ظبته، ورأيت بقرًا تذبح، ورأيت كأني مردف كبشًا»، فقال الناس: فما أولتها؟ قال: «أما الدرع الحصية فهي المدينة، فامكثوا فيها، أما إنقصام سيفي من عند ظبته فمصيبتي في نفسي، وأما البقر فقتلى في أصحابي، وأما أني مردف كبشًا، فكبش الكتيبة، تقتله إن شاء الله».

وفي رواية: «أما إنقصام سيفي، فقتل رجل من بيتي»[٢] .

وفي أوائل شهر شوال، من السنة الثالثة من الهجرة وقيل في السنة الثالثة[٣]، خرج

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٣/ ٦٨).

(٢) الترمذي (١٥٦١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ١١) المغازي للواقدي (١/ ١٩٩).

الجيش الجرار من مكة، يقوده أبو سفيان بن حرب، ويحمل لواءه طلحة بن أبي طلحة، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وعلى رجاليته صفوان ابن أمية... وعددهم ثلاثة آلاف مقاتل في أكمل استعداد، وأحسن تعبئة، ومن بينهم مائتان من الفرسان، المدربين على ظهور الخيل وستمائة من الدارعين، المحصنين بالزرد والدروع الواقية، يحملهم عدد وافر من الركائب ويتبعهم حشد كبير من العبيد والغلمان، يقضون حوائجهم، ويحرسون متاعهم، وكان مع العبيد عبد حبشي اسمه وحشي، وكان يجيد الرماية بالحراب، على طريقة الحبشة، فأغراه سيده جبير بن مطعم بقتل حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وقال له إن قتلته، فأنت عتيق وكذلك أغرته به هند بنت عتبة ووعدته على قتله خيرًا كثيرًا، وكان حمزة رضي الله عنه قد قتل في وقعة بدر طعيمة بن عدي، عم جبير، وعتبة بن ربيعة أبا هند. وكانت قريش فيما يبدو خرجت على خطة موضوعة، هى أن تفاجيء المسلمين في عقر دارهم، قبل أن يستعدوا فإن أخفقوا في هذه الخطة، بأن لم يحصل لهم مفاجأة المسلمين، وعلم المسلمون بخروجهم، واستعدوا لهم، فالخطة الثانية هي التخذيل والإرجاف، والتفريق بين صفوف المسلمين عند اللقاء فإن أخفقت هذه الخطة، ولم ينجحوا فيها، فالخطة الثالثة هي الفتك برسول الله ﷺ، ثم برؤس أصحابه من المهاجرين، كما فتك المسلمون برؤسهم في وقعة بدر، من أجل ذلك كتمت قريش أمرها على المسلمين وخرجت تواصل السير في سر، حتى نزلت بوادي أحد، على أقل من فرسخ من المدينة، ولكن من لطف الله ورحمته برسوله وبالمؤمنين، أن العباس ابن عبد المطلب كتب لرسول الله ﷺ كتابًا، أخبره فيه بمخرج قريش هذا، وبما أعدت له من الرجال والعتاد، وبعث بكتابه هذا مع رجل من بني غفار، فواصل السير به، حتى بلغ المدينة في ثلاث ليال، فلما بلغها علم أن الرسول ﷺ في قباء فانطلق إليه، فسلمه الكتاب، فدفعه ﷺ إلى أبي بن كعب، فقرأه عليه، فاستكمله الخبر، ثم دخل على سعد بن الربيع، فأخبره خبر الكتاب، فقال سعد: والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خيرًا، وأرجف اليهود والمنافقون بأمر الكتاب، فشاع الخبر بين الناس، وهذا ما كانت تخشاه قريش.

روى الواقدي عن عبد الله بن عمرو بن أبي حكيمة الأسلمي قال: لما أصبح أبو سفيان قال: أحلف بالله أنهم جاؤا محمدًا فخبروه مسيرنا، وحذروه وأخبروه بعددنا، فهم الآن يلزمون صياصيهم، فما أن نصيب منهم شيئًا في وجهنا، فقال صفوان: إن لم

يصحروا لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم، فلا يجترونها أبدًا، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر عندهم، ولا وتر لهم عندنا(١) .

وبعث رسول الله ﷺ عيونه يستطلعون له خبر القوم، فجاؤا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبر القوم، من وادي أحد، وحذروا له عددهم، وعتادهم وكان المشركون قد أطلقوا خيولهم وإبلهم في مزارع المدينة، فجعلت تأكل الزرع، والشجر حتى أوشكت أن تدخل المدينة وبات الخطر جاثمًا على الأبواب، وغدا الأمر لا يقبل التسويف، وصار من الواجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم ويستعدوا، وحرست المدينة كلها طوال الليل، فبات وجوه المسلمين من أهلها في المسجد، وعليهم السلاح خوفًا على النبي ﷺ فلما أصبحوا جمع النبي ﷺ أهل الرأي من أصحابه، وجلعوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم اللدود.

روى الواقدي أن النبي ﷺ قال لأصحابه أشيروا على فقام عبد الله بن أبي رئيس المنافقين، فقال يا رسول الله كنا في جاهلية نقاتل فيها ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصى، ويجعل معهم الحجارة، ونشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمى المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك يا رسول الله إن مدينتنا عذراء، ما فضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً.

يا رسول الله أطعني في هذا الأمر، واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي، وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الرأي والتجربة.

وكان هذا الرأي هو رأي رسول الله ﷺ وهو أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت، وهو رأي الأكابر من الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فقال رسول الله ﷺ امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام فإن دخلوا

(٢) انظر السيرة لابن هشام (٣/ ٧٠) المغازي للواقدي (١/ ٢٠٤).

علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم ورموا النساء والصبيان من فوق الصياصي والآطام، فبادر جماعة من الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو، وأشاروا عليه بالخروج، وألحوا عليه في ذلك.

وقال رجال من أهل النية الحسنة، إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم، جبنًا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم خلق كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا،

وقال مالك بن سنان، يا سول الله نحن بين إحدى الحسنيين، إما يظفرنا الله بهم فهذا هو الذي نريد، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله بها الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان، إن كلاً لفيه خير.

وقال حمزة بن عبد المطلب، والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعامً حتى أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة.

وقال النعمان بن مالك يا رسول الله تحرمنا الجنة فو الذي لا إله إلا هو لأدخلنها فقال رسول الله ﷺ بم فقال إني امرؤ أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف.

وقال إياس بن أوس لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وإطامها فتكون هذه جرأة لقريش علينا وقد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن غرسنا لم يزرع.

ورأي رسول الله ﷺ أن الخروج هو الرغبة الغالبة وأن كثرة الناس تدعوا إليه فصلى بهم الجمعة، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد.

وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عددهم، ولكن كثيرًا كرهوا ذلك المخرج، لما رؤا في وجه رسول الله ﷺ من الكراهة له.

وأخذ الناس يتأهبون للقتال، فيلبسون دروعهم وسلاحهم ويتوافدون على مسجد رسول الله ﷺ، فلما كان العصر كان الناس قد تجمعوا واحتشدوا فصلى بهم صلاة العصر وأمر أن يرفع النساء والأولاد في الآطام والحصون ثم دخل بيته ليلبس لامته، والناس في خارج البيت، يتناقشون ويتجادلون في أمرهم، ولا يزال فريق منهم يرون أن البقاء هو

الأصوب، وأن الناس قد استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج فعزم عليه وهو كاره له.

وجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر ينزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه! وما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأيًا فاطيعوه.

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله، وقد لبس لامة الحرب، فقال الذين كانوا يلحون في الخروج، يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك فقال قد دعوتكم إلى هذا الحديث، فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه(١) .

انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، وامضوا على اسم الله، ولكم النصر ما صبرتم .

وعقد ﷺ ثلاثة ألوية، لواء بيد أسيد بن حضير، ولواء للمهاجرين، بيد مصعب بن عمير. وقيل بيد على بن أبي طالب، ودفع لواء الخزرج، بيد الحباب بن المنذر.

وقيل بيد سعد بن عبادة، ثم دعا بفرسه، فركبه وخرج في ألف من أصحابه، فيهم مائة دارع، والناس عن يمينه وشماله والسعدان يعدوان أمامه، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وكان ذلك يوم الجمعة، لست خلون من شوال، بعد أن أمر على المدينة ابن أم مكتوم، يصلي بالناس.

ومضى ﷺ حتى وصل إلى مكان يقال له الشيخين، فعسكر به، ثم استعرض الجيش، فرد من استصغره من جنوده.

وكان فيمن رد رسول الله ﷺ من هؤلاء الصغار رافع بن خديج، وسمرة بن جندب، فقيل لرسول الله ﷺ إن رافعًا يحسن الرماية فأجازه، فبكى سمرة بن جندب، وقال أجاز رافعًا وردني مع أني أصرعه، فسمع بذلك رسول الله ﷺ، فأمرهما أن يتصارعا فكان الغالب سمرة، فأجازه.

وبات رسول الله ﷺ ليلته تلك بالشيخين واستعمل على حرس الجيش محمد بن سلمة، وعلى حرسه، ذكوان بن قيس.

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٧١) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠) والمغازي للواقدي (١/ ٢١٧).

ونام ﷺ حتى إذا كان السحر، قال أين الأدلاء، من رجل يدلنا على الطريق، يخرجنا على القوم من كثب، فقام أبو خيثمة الحارثي، فقال أنا يا رسول الله(١) .

ولما بلغ ﷺ الشوط، وهو بستان بين المدينة وأحد، انشق الجيش على رسول الله ﷺ، فرجع عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه وهو يقول أطاع الغلمان وعصاني، فعلام نقتل أنفسنا ههنا، فجعل عبد الله بن عمرو بن حرام يحاول أن يثنيهم عن عزمهم هذا، ويناشدهم الله ألا يشقوا عصا الجماعة، وأن لا يخذلوا قومهم ونبيهم، في حضرة العدو، فيقولون له متهكمين به ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧](٢) .

وقد أحدثت هذه الفعلة الشنيعة، خلخلة عظيمة في بناء الجيش، في هذا الوقت الحرج، وأحدثت زلزلة شديدة في نفوس المسلمين، حتى لقد همت بنو حارثة من الخزرج، وبنو سلمة من الأوس، أن تفعلا كما فعل أصحاب ابن أبي، ولكن عصمهم الله، فعادوا إلى صفوف الجماعة، وسارو مع الجيش، كما يسيرون.

ومضى رسول الله ﷺ إلى أحد، وهو جبل كثير المسالك، والشعاب، تقطعه عدة وديان، ويدور دورة واسعة في مواجة السهل الضيق الذي وقفت عنده قريش، كما أن تعرجات الأرض جعلت فى انحداره فجوات تشبه الحفر تصلح للاختفاء في الحرب الدفاعية، لقذف النبال.

فنزل رسول الله ﷺ في شعب على عدوة الوادي، إلى جانب تل مشرف، يقال له جبل عينين، وهناك أخذ ﷺ يصف أصحابه، ويعبئهم للقتال، فجعل ظهورهم إلى الجبل بحيث يحتمون به من خلفهم، وجعل وجوههم إلى المدينة،، بحيث يستقبلون الوادي، ويشرفون عليه من أعلاه وجعل خمسين من الرماة على جبل عينين.

وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم أن يحموا ظهور المسلمين عند القتال، وأن لا يمكنوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وأن لا يبرحوا مكانهم هذا، سواء أكان النصر للمسلمين أم عليهم. ثم علمهم أن ينضحوا الخيل كلمَا أقبلت نحوهم بالنبل، وأكد الوصية عليهم أن لا يغادروا مواضعهم، وإن رأوا أصحابهم تتخطفهم الطير.

فلما انتهى ﷺ من تعديل الصفوف، وإعداد المواضع، خطب في الناس يحرضهم على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).

(٢) صحيح السيرة النبوية (ص٢٧٨).

القتال[١]، ويحثهم على الصبر، وأمرهم أن لا يبدؤا بقتل حتى يؤاذنهم، وبينما كان رسول الله ﷺ مشتغلاً بصف جنوده، ظهر القريشيون في السهل المنبسط، تحت التل، وصار الجيشان وجهًا لوجه.

وظهرت نساء قريش، يمشين بين الصفوف، ويضربن بالدفوف وينشدون الأناشيد، تحريضًا على القتال، وإثارة للحمية بين الرجال.

فلما إلتقى الجمعان، بدأ أبو سفيان خطة التخذيل، بين الأنصار والمهاجرين. فنادى يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين ابن عمنا، وننصرف عنكم، فذهب نداؤه صرخة في الفضاء.

فأعقبه أبو عامر الفاسق، فبرز بين الصفوف ينادي قومه الأوس، يا للأوس إلى إلى، فما كان جوابه منهم إلا اللعن والسب والشتم والرمي بالحجارة والطرد ولى مختزنًا خجلان، يقول لقريش لقد أصاب قومي بعدي شر.

وأخفقت خطة التخذيل، كما أخفقت خطة المفاجأة، فلم يبق من القتال مفر، وهنا حاولت قريش أن تطوق المسلمين وتضم عليهم جناحيها بحركة إلتفاف سريعة.

فتحرك لواد عكرمة من الميسرة، يريد أن يدور حول عسكرهم فلم يستطيع ذلك.

فحاول مثله خالد بن الوليد من الميمنة، فأمطره الرماة وابلاً من النبال، فارتدت الخيل على أعقابها مسرعة.

فعاد الكفار إلى أماكنهم كما كانوا أولاً وبدأ القتال بالمبارزة. فخرج من صفوف المشركين رجل يطلب المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام، فقتله، فسر بذلك رسول الله ﷺ، وكبر فكبر المسلمون.

وشدوا على المشركين، وهم يتصايحون صحية الحرب، «أمت أمت» فهجم على بن أبي طالب على حامل لوائهم طلحة بن أبي طلحة فقتله، فكبر المسلمون، وسر النبي ﷺ بقتله، فإنه هو كبش الكتيبة.

وكان قزمان يعرف بالشجاعة، وقد تأخر، فعيرته نســاء بني ظـفر، فأتـى رسـول الله

(١) المغازي للواقدي (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

ﷺ، وهو يرى الصفوف حتى انتهي إلى الصف الأول، فكان على ما قيل أول من رمي في صف المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح، ويكت كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة.

وأصابته جراح فوقع، فناداه قتادة بن النعمان: أبا الفيداق هنيئًا لك الشهادة، فقال إني والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ، أن تسير قريش إلينا حتى تطأ سعفنا، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فذكر ذلك النبي ﷺ،فقال من أهل النار، إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر(١).

ثم أخذ اللواء أخو طلحة عثمان، فحمل عليه حمزة فقتله، فأخذ اللواء أخوهما سعيد، فرماه سعد بن أبي وقاس بسهم فقتله فتناوب اللواء بعده بأربعة من أولاد طلحة، وكلهم يقتلون واحدًا بعد واحد،فحمل اللواء غلام لهم يقال له صوءاب، فقتل، وسقط اللواء على الأرض ، فأخذ المشركون بذلك أخذًا وبيلاً شديدًا وانكسرت شوكتهم، وانفجرت صفوفهم، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة،أمعنوا فيهم ضربًا، بالسيوف، وطعنًا بالرماح،ورميًا بالسهام، فانكشفوا وولوا الأدبار، وجعلت نساؤهم تصيح وتولول، وأخذت في الهرب والفرار ، من الأسر مشمرات عن أسياقهن ، وخلاخيلهن ، وتتبع المسلمون أعداءهم يضعون فيهم السلاح حيث شاؤا، حتى أبعدوا عن معسكرهم(٢).

ثم وقعوا على الغنائم والأسلاب يجمعونها وينتهبونها وهم مطمئنون إلى أن ظهورهم لا تزال محمية برماتهم، أما الرماة فقد خيل لهم أن المعركة انتهت، وأن الهزيمة قد تمت، وخشوا أن يسبقهم إخوانهم في جمع الغنائم، فقال بعضهم لبعض، ما بقاؤنا هنا، وقد هزم الله العدو، هؤلاء إخوانكم يغتنمون، فادخلوا فاغنموا مع إخوانكم (٣) فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ووصيته لهم، وحذرهم عاقبة الخلاف والعصيان، ولكن لم يسمعوا منه، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلو الثغر، وتركوا أميرهم في نفر من أصحابه لا يجاوزون العشرة، فانكشف بذلك الحصن الذي كان يحمي ظهور المسلمين، وكان خالد بن الوليد يتقهقر راجعًا في دورة ، واسعة متخذًا من

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (١٦٠٧) والطبرانى فى الكبير (٨٩٦٣ ، ٩٠٩٤) وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٤٩) .

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٧).

(٣) البخاري (٣٠٣٩).

الأرض المستورة دربًا وطريقًا له، وجاء في أعقابه عكرمة بلواءه، فتسللوا فوق الجبل وازاحوا الرماة الباقين من أماكنهم، واقتحموا خطوط المسلمين من الخلف، وجعلوا يتنادون بشعارهم، يا للعزى، يا لهبل، فأقبل المشركون بعد إدبارهم، وأخذت عمرة بنت علقمة الحارثية اللواء فرفعته، فجعلوا يلوذون به، وفوجيء المسلمون بأعدائهم قد حاصروهم وأوجعوا فيهم قتلاً ذريعًا، فاضطرب أمرهم وانتقضت صفوفهم، وجعلوا يقامون على غير نظام، ويقاتلون على غير شعار، وتركوا ما انتهبوا وخلوا من أسروا، وتفرقوا في كل وجه: وهذه عاقبة الحرص على الدنيا والعجلة المشمرة للندامة.

ومستعجل والمكث أدنى لرشده ولم يـدر ما يلقاه حين يبـادر

ونظر حذيفة إلى أبيه اليمان والمسلمون يريدون قتله وهم يظنونه من المشركين، فقال يغفر الله لكم، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه (١) ، فقال قد تصدقت بدينه على المسلمين فزاد ذلك حذيفة خيرًا عند النبي ﷺ.

وقال زيد بن ثابت بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي إن رأيته فأقرأه مني السلام وقل له يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك قال فجعلت أطوف بين القتلى وهوبآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم.

فقلت يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجدك فقال وعلى رسول الله ﷺ السلام قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف وفاضت نفسه من وقته.

وما المرء إلا حيث يقضى حياته لنصرة دين الله لا للتكاثر(٢)

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال يا فلان أشعرت أن محمدً قد قتل فقال الأنصاري إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم فنزل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١١٤].

---

(١) يدفع دينه .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).

وأكرم الله بالشهادة من أكرم وهم سبعون، وفي وسط هذه الدهشة البالغة صرخ إبليس بأعلى صوته إن « محمد قد قتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وفر أكثرهم، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا» ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، فقال ما تنتظرون، فقالوا قتل رسول الله ﷺ فقال فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا موتوا على ما مات عليه (١) .

وخلص المشركون إلى رسول ﷺ ، وثبت ﷺ في وجه العدو. وقاتلهم قتالاً شديدًا فظل يرمي بالنبل حتى فني نبله، وانكسرت سية قوسه، وانقطع وتره، ثم ظل يرميهم بالحجارة، حتى وقع لشقه .

وثبت معه نفر من أصحابه، قيل إنهم من دون العشرة، وقيل إنهم فوق العشرة، فبايعوه على الموت، وأحاطوا به، يصدون عنه هجمات العدو، الذين أحدقوا به من كل ناحية.

وشدوا عليه، يريدون أن يقتلوه، فما زال هؤلاء النفر يزودون عنه، ويقاتلون دونه، ويتلقون ضربات العدو، ولكن العدو جرح وجهه ﷺ ، وكسر رباعيته، وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة، حتى وقع وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، فأخذ عليٌ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله وكان بالذي تولى أذاه ﷺ عمرو بن قمئة وعتبة بن أبي وقاص، وقيل إن الذي شجه عبد الله بن شهاب الزهري عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى على بن أبي طالب، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شد غوصهما في وجهه ﷺ.

وقد أبلى النفر الذين مع رسول الله ﷺ في الدفاع عنه أحسن البلاء، وامتاز فريق منهم في دفاعه بالصدق والشجاعة.

فقد قاتل طلحة بن عبيد الله عنه قتالاً شديدًا،وصار يذود عنه بالسيف من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ويدور حوله يترس بنفسه دونه، والسيوف تغشاه، والنبل يأتيه من كل جهة.

كفاني فخرًا أن أموت مجاهدًا وحب إلهي قائدي منذ نشأتي

(١) البخارى (٢٨٠٥) مسلم (١٩٠٣) .

فلم يزل يقي رسول الله ﷺ بنفسه حتى أجهضهم عنه، فانكشفوا عنه، فكان أعظم الناس غناء عن رسول الله ﷺ، فجعل ﷺ يقول قد أوجب طلحة(١) .

وفي مغازي الأموي أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله ﷺ لسعد، أحنهم - يقول إرددهم - فقال كيف أردهم وحدي، قال ذلك ثلاثًا.

فأخذ سعد سهمًا من كنانته فرمى بها رجلاً فقتله، قال ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت هذا سهم مبارك فجعلته من كنانتي فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه.

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ ففي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد.

وقال نافع بن جبير سمعت رجلاً من المهاجرين يقول شهدت أحد فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه.

ورمي حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيل أم أيمن - وقد جاءت تسقي الجرحى - فانكشف عنها فإستغرق في الضحك.

فشق ذلك على رسول الله فرفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له فقال ارم فوقع السهم في نحر حبان فوقع مستلقيًا وبدت عورته.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه - ثم قال : استقاد لها سعد أجاب الله دعوتك وسدد رميتك.

وكان شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي لا يرمي رسول الله ﷺ يمينًا ولا شمالاً إلا رآه في ذلك الوجه بسيفه حتى غشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى قتل رحمه الله.

وكان أبو طلحة راميًا شديد الرمي فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يرمي عنه وجعل رسول الله ﷺ كلما مر به أحد من أصحابه معه كنانة يقول له أنثرها لأبي طلحة(٢) .

---

(١) صحيح السيرة النبوية ص٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق.

وكلما رمى أبو طلحة سهما رمي نظر رسول الله ﷺ من ورائه ليري موقع السهم فيقول أبو طلحة يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تنظر يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك ووجهي لوجهك فداء.

وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ فجعل النبل يقع في ظهره وهو منحن على رسول الله ﷺ حتى كثر فيه النبل ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يناوله النبل وهو يقول: «ارمي فداك أبي وأمي»(١) حتى إنه ليناوله السهم ما له نصل فيقول له إرم به، فيرمي به.

ودافعت عن رسول الله ﷺ أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب المازنية وكانت تسقي يوم أحد فلما رأت رسول الله ﷺ قد أحيط به وانهزم عنه الناس وضعت سقاءها وأخذت سيفًا فجعلت تقاتل أشد القتال وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا وظل على عاتقها من هذه الجراح جرح أجوف له غورًا أصابها به ابن قمئة.

وقد سمع رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا أنا أراها تدافع دوني».

وجاء في رواية خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وأبناها حبيب وعبد الله وقال لهم رسول الله ﷺ بارك الله عليكم أهل البيت فقالت له نسيبة رضي الله عنها أدع الله أن نرافقك في الجنة.

فقال اللهم إجعلهم رفقائي في الجنة.

وعند ذلك قالت رضي الله عنها ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا فهذه حقًا شجاعة مدهشة لامرأة وقد تحملت ما أصابها من الجراح في سبيل الله وهو ما يعجز عن تحمله الرجال فضلاً عن النساء: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤](٢) .

وكان الحباب بن المنذر يحوش المشركين كما تحاش الغنم واشتملوا عليه مرة حتى قيل قد قتل.

ثم برد والسيف في يده، وقد افترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون.

---

(١) صحيح السيرة النبوية ص٢٩٥ .
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥، ٣٦).

وقام زياد بن السكن في نفر من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً وهم يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد فقاتل حتى أثبتته الجراح فوسده رسول الله ﷺ حتى مات.

ومات مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ وهو يلتقي عنه ضربة قد سددت إليه قتله بن قئمة وهو يحسبه رسول الله ﷺ وذهب يدفع بين يدي الكفار.

وقد مات في ذلك اليوم دون رسول الله ﷺ خلق كثير كلهم يفديه بنفسه ويحول بينه وبين العدو حتى يصرع.

وروى الواقدي عن سفيان بن عيينة قال لقد أصيب مع رسول الله ﷺ يوم أحد نحو من ثلاثين كلهم يجيء حتى يتقدم بين يديه ثم يقول وجهي لوجهك الفداء ونفسي لنفسك الفداء وعليك سلام الله غير مودع.

ثم عرف المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يزال حيًا فأحاطوا به حتى كشفوا عنه العدو.

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك قال عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إلى رسول الله ﷺ أن أنصت.

وفاءت إلى رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين فنهضوا به إلى الشعب فاحتمى به مع من كان يحتمي هناك من أصحابه.

ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يقدر لكثرة النزيف الذي خرج من الجراح فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها.

وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا وصار رسول الله ﷺ ذلك اليوم تحت لواء الأنصار وشد حنظلة الغسيل ـ وهوحنظلة بن أبي عامر ـ على أبي سفيان فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود فقتله وكان جنبًا فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته فقام من فوره إلى الجهاد فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله فقال: **«سلوا أهله ما شأنه فسألوا ما شأنه فسألوا امرأته فأخبرتهم الخبر»** (١).

وعندما امتدوا صعدوا في الجبل أدرك رسول الله ﷺ أبي بن خلف على جواد له

(١) صحيح السيرة النبوية ص٢٨٩ .

اسمه العود كان يطعمه في مكة ويقول أقتل عليه محمدًا، فلماسمع بذلك رسول الله ﷺ، قال بل أنا أقتله إن شاء الله فلما أدركه تناول ﷺ، الحربة من الحارث وطعن بها عدو الله في ترقوته فكر عدو الله منهزمًا، فقال له المشركون والله ما بك من بأس، فقال والله لو كان ما بي بأهل الحجاز لماتوا أجمعين، ومات في طريقه بسرف مرجعه إلى مكة.

وقال ابن عمر إني لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل إذا نار تأجج لي فيممتها فإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح العطش العطش، وإذا رجل يقول لا تسقه هذا قتيل رسول الله ﷺ هذا أبي بن خلف.

وظن المشركون أنهم قد انتقموا ليوم بدر وشفوا نفوسهم وأخذت المعركة بعد ذلك تهدأ حدتها وتخمد حرارتها، فانحاز المشركون إلى معسكرهم، وشغلوا بدفن قتلاهم، وأخذت نساؤهم يمثلن بالقتلى من المسلمين، ومثلت هند بنت عتبة بحمزة رضي الله عنه أفظع تمثيل حتى بقرت بطنه وأخرجت كبده ولا كتها فلم تقدر على أن تسيغها ولفظتها.

ولما وقف عليه رسول الله ﷺ بعد المعركة تأثر تأثرًا شديدًا وقال رسول الله ﷺ لن أصاب بمثلك أبدًا وما وقفت قط موقفًا أغيظ من هذا.

ثم قال رسول الله ﷺ «أكلت شيئًا» قالوا: لا قال: «ما كان الله ليدخل شيئًا من حمزة في النار».

وقال ﷺ لوحشي الذي قتل حمزة هل تستطيع أن تغيب وجهك عني قال وحشي فخرج فلما قبض رسول الله ﷺ وخرج مسيلمة الكذاب قلت لأخرجن إليه لعلى أقتله فأكافيء به حمزة قال فخرجت مع الناس ثم رميته بحربتي فأضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه قال ووثب عليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته[1].

قال ابن هشام فبلغني أن وحشيًا لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان.

فكان عمر بن الخطاب يقول لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.

وروى الدارقطني بإسناد على شرط الشيخين عن سعيد بن المسيب قال كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو حتى إنه مات غريقًا في الخمر.

---

(١) البخاري (٤٠٧٢).

وقال عبد الله بن جحش بن خزيمة الأسدي يا رسول الله إن هؤلاء القوم قد نزلوا حيث ترى، وقد سألت الله. فقلت: اللهم إني أقسم عليك أن نلقى العدو غداً، فيقتلونني، ويبقرونني، ويمثلوا بي، فألقاك مقتولاً قد صنع هذا بي، فتقول فيما صنع هذا بك، فأقول فيك، وأنا أسألك أجري، أن تلي تركتي من بعدي، فقال نعم فأخرج حتى قتل، ومثل به ودفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قبر واحد.

وولي تركته رسول الله ﷺ فاشترى، لابنه مالاً بخيبر، فأقبلت أخته حمنة بنت جحش فقال لها رسول الله ﷺ يا حمنة احتسبي، قالت من يا رسول الله، قال خالك حمزة، قالت إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه هنيئًا له الشهادة.

ثم قال لها احتسبي قالت من يا رسول الله، قال مصعب بن عمير، قالت واحزناه، وفي رواية أنها قالت واعقراه، فقال ﷺ إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد.

ثم قال لها لم قلت هذا قالت يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يحسن عليهم الخلف، فتزوجت طلحة، فولدت له محمد بن طلحة، فكان أوصل الناس لولدها، وكانت حمنة خرجت يومئذ إلى أُحد مع النساء يسقين الماء رضي الله عنها وأرضاها (١) .

وبعد ذلك مشى أبو سفيان يتفقد القتلى من المسلمين، ويتعرف وجوههم، فلما وجد حمزة صريعًا بينهم، جعل يضرب في شدقه بكعب الرمح، ويقول ذق عقق، فرآه الحليس سيد الأحابيش، فأنكر عليه أن يفعل ذلك في ابن عمه، وهو ميت، فاستحيا أبو سفيان من هذه الزلة، وطلب إليه أن يكتمها عليه، ولا يَذيعها في الناس، لأنها سخافة وسجاجة، وقضا عاجز وكان هم أبو سفيان أن يجد رسول الله ﷺ في القتلى، فلما لم يجده بينهم، أخذ الشك يخامره أنهم قتلوه، فذهب إلى ناحية الشعب الذي اعتصم به رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل ينادي أفيكم محمد، أفيكم ابن أبي قحافة، أفيكم ابن الخطاب، فنهى رسول الله ﷺ أن يجيبوه، فلما لم يجبه أحد، أقبل على أصحابه من المشركين، فقال لهم أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال كذبت والله يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يسوئك. فقال أبو سفيان، كأنما أراد أن يعتذر مما فعلت نساء قريش بقتلى المسلمين: إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني (٢)، ثم جعل يرتجز قائلاً: فقال، إن الحرب سجال، أعل هبل.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٢) .

(٢) البخاري (٤٠٤٣) والسيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢) .

فقال رسول الله ﷺ: «قولوا له الله أعلى وأجل» قال أبو سفيان لنا العزي ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا له الله مولانا ولا مولى لكم» فقال أبو سفيان، يوم بيوم بدر، فقال رسول الله ﷺ قولوا له لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار (١) .

ثم أمر رسول الله ﷺ بعد ذلك أن يدفن القتلى حيث صرعوا، وقال لفوهم في ثيابهم، ودمائهم، وجراحتهم. . . وانظروا أيهما أكثر أخذًا للقرآن، فإذا اشارو إلى رجل قدمه في اللحد (٢) .

وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، لما كان عليه الصحابة يومئذ من الإعياء والضعف والجراح، فيعجزوا أن يحفروا لكل واحدٍ قبرًا، ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، لما كان بينهما من الصبحة فقال ادفنوا هذين المتاحبين في الدنيا في قبر واحد (٣) ، ثم حفر عنهما بعد زمن طويل ويد عبد الله بن حرام على جراحته كما وضعها حين جرح، فأميطت يده عن جراحته، فانبعث الدم فردت إلى مكانها، فسكن الدم، وما تغير من حاله لا القليل ولا كثير قيل له أفرأيت أكفانه قال إنما دفن في نمرة خمر بها وجهه وعلى رجليه الحرمل فوجدت النمرة كما هي وعلى رجليله الحرمل على هيأته وبين ذلك ستة وأربعون سنة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه ركب فرسه فتوجه نحو المدينة، والمسلمون، أكثرهم جرحى، يتحاملون على أنفسهم، مما بهم من شدة الجهد، ويتلامون على ما كان منهم من خلاف لأمر رسول الله ﷺ، ويرجون أن يغفر الله هذه الزلة ويتجاوز لهم عنها.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد النساء عند بابها يبكين قتلاهن! فلما رأينه مقبلاً نسين ما هن فيه من الحزن، وأسرعن إليه، ينظرون إلى سلامته، فلما رأينه في سلامة، هانت عليهن المصيبة.

وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحوه، وتتأمله حتى إذا إطمأنت على سلامته، قالت ما إذا رأيتك سالمًا فقد شوت المصيبة فعزاها رسول الله ﷺ بإبنها عمرو بن معاذ، ثم قال لها يا أم سعد، أبشري، وبشري أهليهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعًا، قالت رضينا برسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا.

ثم قالت ادع يا رسول الله لم خُلِّفوا، قال اللهم أذهب الحزن عن قلوبهم، واجبر

(١) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢) .

(٢) البخارى (٣٠٧٩) .

(٣) المسند (٥/ ٢٩٩) ، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠١) .

مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خَلفوا[(١)] ثم عزم رسول الله ﷺ على أصحابه، من الجرحى أن يركنوا إلى بيوتهم، وليداووا جراحهم، فتخلف عنهم كل مجروح، وباتوا يوقدون النار، ويكمدون بها الجراح.

ومضى رسول الله ﷺ حتى جاء بيته، فما نزل عن فرسه إلا حملاً، ثم مشى يتحامل على الساعدين، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، حتى دخل بيته، فلما أذن بلال لصلاة المغرب خرج على مثل تلك الحال، يتوكأ على السعدين، فصلى ثم عاد إلى بيته، وبات وجوه الأوس والخزرج على بابه في المسجد يحرسونه، مخافة أن تكر قريش، وهم غافلون.

ذكر بعض الحكم التي كانت في وقعة أحد:

قال ابن القيم رحمه الله وقد أشار الله سبحانه إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية: قال فمنها. تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حزرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها أن حكمة الله. وسنته في رسله، وأتباعهم: جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم، ويطيعهم، للحق وما جاؤوا به، فمن تبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان «هل قاتلتموه» قال نعم:

---

(١) مغازى الواقدى (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

كيف الحرب بينكم وبينه، قال سجال ندال عليه المرة، ويدال علينا الأخرى، قال كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة (١) .

ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده، محنة ميزت بين المؤمنين والمنافقين فاطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخآبتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، إنقسامًا ظاهرًا لا يفارقهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي ما كان الله ليذرهم على ما أقسم عليه من التباس المؤمنين بالمناقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي يميز بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميزون في علمه وغيبه.

وهو سبحانه يريد أن يميزهم تميزًا مشهورًا، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة، وقوله ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ استدراك لما نفاه من اضطلاع خلقه على الغيب.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن أمنتم به كان لكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وفي حال ظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد في السراء والنعمة والعاقبة.

ومنها أن سبحانه لونصرهم دائمًا، واظفرهم بعددهم، في كل موطن، وجعل لهم التمكن، والقهر لأعدائهم أبدًا لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر، والظفر لكان في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا في السراء

(١) البخارى (٧) مسلم (١٧٧٣) .

والضراء، والشدة والرخاء، والقبض ، والبسط ، فهو أمر مدبر الأمر عباده ، وكما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنهما أنهم إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة، والهزيمة وزلوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العزة والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ببدر وأنتم أذلة﴾ [آل عمران : ١٢٣] . ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥].

فهو سبحانه إذا أراد يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولاً ويكون جبره له ونصر على مقدار ذله وانكساره.

ومنها أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب، التي توصلهم إليها، من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولها.

ومنها أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة،والنصر والغنى طغيانًا، وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الإبتلاء والامتحان، ما يكون حدًا لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء السكرية ويقطع منه العروق المؤلمة، لإستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء، حتى يكون فها هلاكه.

ومنها أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه المقربون من عباده وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم، ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم، بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم، في أذى أوليائه، من ذنوبهم ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه، من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه، من أسباب محقهم وهلاكهم،

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١]

فجمع لهم في هذا الخطاب، بين تشجيعهم، وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم، وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة، التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فقد استويتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم فقد أصابوا ذلك في سبيل الشيطان وأنتم في سبيلي إبتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة بين الناس، وأنها عرض حاضر يقسمها دولاً بين أوليائه، وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل، وافضلها وقد اتخذهم لنفسه، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وفي قوله: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيه لطيف الموقع جدًا على كراهته وبغضه للمنافقين، الذين انخذلوا عنه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم، ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط، هؤلاء الظالمين، عن الأسباب التي وفق لها أولياؤه وحزبه.

ثم حكمة أخرى فيما أصابهم من الذنوب ذلك اليوم وهي تمحيص الذين آمنوا وهو تنقيتهم وتخليصيهم من الذنوب، ومن آفات النفوس.

ومنها أن وقعة أحد كانت مقدمة وارهاصًا بين يدي موت النبي ﷺ، فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ، أو قتل بل الواجب له عليهم: أن يثبتوا على دينه، وتوحيده، ويموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد ﷺ، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت.

وما بعث الله محمدًا إليهم ليخلد لاهو ولاهم، بل ليمتوتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمدًا قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العقاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم، وأظفرهم، بأعدائهم وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لابد أن تستوفيه تنوعت أسبابه، ويصدرون عن مورد القيامة، مصادر شتى، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا ، وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقي منهم، لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا وما وهنوا عن القتل، ولا ضعفوا ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكنين أذلة.

بل استشهدوا أعزة كرامًا مقبلين غير مدبرين والصحيح أن الآية تتناول الفريقين كليهما ثم أخبر سبحانه عما استنصر به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويسوفهم بها، وأنها نوعان تقصير في حق، أوتجاوز لحد، وأن النصر منوط بالطاعة ﴿قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده، دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يثبتوا، ولم ينتصروا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة، بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب، ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم،إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس. ، فوفوا المقامين حقهما، ومقام المقتضى، وهو التوحيد والإلتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف، وحذرهم من طاعة عدوهم ، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين فمن والاه فهو المنصور، ثم أخبر أنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، الذي يمنعهم من الهجوم عليهم، والإقدام على حربهم، فإنه يؤيد حزبه بجند من الرعب، ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله وعلى قدر الشرك يكون الرعب، والذين آمنوا، ولم يلبثوا إيمانهم بالشرك ، لهم الأمن والهدى والفلاح، ثم أخبر أنه صدق وعده في النصرة على عدوه، وهوالصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم مراكزهم إمتثالاً لأمر النبي ﷺ، لاستمرت نصرتهم ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مراكزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة. ففارقتهم النصرة، فصرفهم عن عددهم، فانخلوا من عصمة الطاعة عقوبة وابتلاء وتعريفًا لهم بسوء عاقبة المعصية، وحسن عاقبة الطاعة، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو الفضل على المؤمنين (١) ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١١ ـ ٢١٧) بتصرف يسير .

غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الكمال المحمدي في كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية على حد سواء خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء في الداخل والخارج؟ إنه بعد الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين يوم السبت ما راع الناس إلا ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان بن حرب وجيشه، وقال: لا يخرج معنا إلا من حضر معنا معركة أحد أمس، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان، فكان خفيف الجرح يحمل أخاه، فإذا تعب وضعه يمشي ساعة حتى وصلاً معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر ﷺ بحمراء الأسد. واستأذن جابر رسول الله ﷺ في الخروج فأذن له بعد أن عرف عذره، وهو أن والده الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام لم يأذن له في الخروج إلى أحد وأوصاه بأخواته السبع إذ لم تطب نفس عبد الله أن يترك سبع بنات ليس معهن رجل.

وما زال النبي ﷺ بحمراء الأسد حتى مر به معبد الخزاعي، وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ - أي موضع سره وثُقته لا تُخفى عليه شيئًا من الناس في تهامة، فقال معبد - وهو يومئذ مشرك -: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء، وأقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه؛ إذ قالوا: أصبنا منهم ما أصبنا فكيف نرجع قبل أن نستأصلهم؟

فلما رأى أبو سفيان معبدا قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أر مثله أبدًا، فقال أبو سفيان ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصي الخيل فقال أبو سفيان ويحك ما تقول؟ قال: والله والله ما أري أن ترحل حتى أرى نواصي الخيل.

فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال معبد: إني أنهاك عن ذلك والله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلت فيهم أبياتًا من الشعر. قال أبو سفيان: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهدّ من الأصوات راحلتي
إذ سألت الأرض بالجُرْد الأبابيل

تردي [١] بأُسدٍ كرام لا تنابلة [٢]
عند اللقاء ولا ميل معاذيل
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة
لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تغمططت [٣] البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البسل [٤] ضاحية
لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد ولا وخشٍ [٥] شابلة
وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فأوقع هذا الشعر في نفس أبي سفيان هزيمة، وذكر كذلك رأي صفوان بن أمية إذ سبق أن كفه عن الرجوع إلى المدينة عندما عزم على الرجوع ، وقال له: لا تفعل فإن القوم حَرِنوا - اشتد غضبهم -

وإني أخشى أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا فرجعوا ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة، وأثناء ذلك مر ركب من بني عبد القيس، فقال لهم: أين تريدون قالوا نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها، وأحمل لكم هذه غداً زبيبًا بعكاظ؟ إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وكان هذا مجرد مناورة من أبي سفيان يريد بها تغطية هزيمته لما سمع من معبد. ولما وصلت القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغوه رسالة أبي سفيان: قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار»[٦]

وأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام: الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم

---

(١) مشرع . (٢) غير خطاء .
(٣) اهتزت له . (٤) قريش .
(٥) أراذل الناس . (٦) البخاري (٤٥٦٣).

قفل راجعًا إلى المدينة، فظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وبأبي عزة الجمحي وقد تخلف عن المشركين نائمًا، وكان أبو عزة قد أسرى في بدر واسترحم الرسول ﷺ فرحمه فمنَّ عليه وعاهده ألا يقف موقفًا ضده، وخان وجاء مع المشركين إلى أحد، فلذا أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتل، وقال ﷺ: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»(١) .

وأما معاوية فهو الذي فتك بحمزة في أحد، فقطع أنفه، فقد ضل الطريق فأتى دار عثمان وقد استشفع بعثمان، فقبل النبي ﷺ شفاعته فيه على أنه لو وجده بعد ثلاثة أيام ليقتلنه، فجهزه عثمان لقرابته، وقال له: ارتحل، فارتحل فأخطأ الطريق وكان النبي ﷺ قد ارتحل من حمراء الأسد وقال: «**إن معاوية أصبح قريبًا ولم يبعد فاطلبوه**» فطلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فوجداه فقتلاه.

وعاد الرسول ﷺ ولم يلق كيدًا. وأرهب بذلك العدو المنافق في الداخل والمشركين في الخارج فصلى الله عليه وسلم ما أعظم حكمته وجل سياسته وأكمل صبره!!(٢) .

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

١ ـ بيان مظاهر الكمال المحمدي من شجاعة وصبر وتحمل وحسن سياسة، وكمال تدبير.

٢ ـ بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ، وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول.

٣ ـ تأثير الدعوة في نفوس غير الصابرين، ولذا كان خطر الدعاية عظيمًا ووجب اتقاؤه.

٤ ـ تقرير مبدأ: المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين.

٥ ـ مشروعية الشفاعة في غير الحدود الشرعية.

---

(١) البخاري (٦١٣٣) مسلم (٢٩٩٨) .

(٢) انظر السيرة لابن هشام (٣/ ٥٦، ٥٧).

غزوة بني النضير

بنو النضير إحدى ثلاث طوائف، كانت تسكن حول المدينة من اليهود، وقد وادعهم الرسول ﷺ يوم قدم المدينة مهاجراً، وكتب لهم كتابًا فنقضت بنو قينقاع عهدها أول ما نقض، بعد غزوة بدر مباشرة ـ كما تقدم ـ فأجلاهم الرسول ﷺ ولم يقتلهم ؟ إذ قبل فيهم شفاعة حليفهم عبد الله بن أبي، فخرجوا من المدينة ونزلوا أذرعات بالشام وهلكوا بها. وها هم أولاء بنو النضير ينقضون عهدهم اليوم بتآمرهم على قتل النبي ﷺ بصورة مكشوفة واضحة.

إنه بعد إنتهاء وقعة أحد المؤلمة، جاء أبو براء العامري زائرًا المدينة فلاقى رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ: لو تبعث إلى ديارنا بعثًا من صالحي رجالك يدعون إلى أمرك، فإني أرجو أن يجابوا لذلك، فأبدي النبي ﷺ تخوفًا على أصحابه ، فوعده أبو براء أنه سيكون جاراً حتى لا يمسوا بسوء، وبعث النبي ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب. وحدثت واقعة بئر معونة، واستشهد فيها كافة الأصحاب، وإن عمرو، بن أمية لما وقع في أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عمرو إلى المدينة، وفي طريقه لقي رجلين من بنى عامر بن الطفيل الذي اعتقه وعاد عمرو إلى المدينة وكان القتيلان معاهدين للنبي ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو، وأخبر النبي ﷺ بالحادث فقال النبي ﷺ: «لأدينهما» وفعلاً جاء ذووهما يطالبون بديتهما وكانت معاهدة اليهود تقضي بأن يدي كل من الطرفين ما لزمه من ديه شرعية، فخرج النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر وعلى إليهم ـ أي إلى بني نضير ـ يطالبهم بالإسهام في دية العامرين بموجب المعاهدة، فانتهى إلى ديارهم وذكر لهم ما جاءهم من أجله، فأبدوا ارتياحًا واستعدادًا وأنزلوه مع أصحابه منزلاً حسنًا في ظل جدار من بيت أحدهم، وأظهروا أنهم يسعون في تحقيق طلبه، وإذا بهم متآمرون على قتله؛ إذ قالوا: إنها فرصة قد لا تتاح لكم، فتخلصوا من الرجل بقتله، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش، فقال أنا بذلك، فقالوا: نطلع على السطح ، ونلقي عليه رحى من فوقه نقتله بها، وأنكر عليهم سلام من مشكم عملهم، وقال: لا تفعلوا، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم القذرة هذه، وقبل أن يفعلوا بدقائق أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما هموا به من قتله، فقام على الفور كأنه يقضي حاجته ودخل المدينة، ولما

أستبطأ أصحابه قام ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود، وأن خبرالسماء قد سبقهم وكأن آية المائدة نزلت في هذه الحادثة هي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] ولهذه الحادثة أشباه، وتتلى الآية عند كل واحدة منها تذكيراً بنعمة الله وفضله على المؤمنين ليشكروا بالصبر والطاعة.

وبعث إليهم ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده لنقضهم العهد الذي بينهم وبينه، فبعث إليهم المنافقون ـ وعلى رأسهم ابن أبي كبير المنافقين ـ يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء وفي ذلك يقول الله تعالى من الحشر: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٥] وهم بنو قينقاع أهلكهم الله.

ولما لم ينصاعوا لأمر الجلاء، لتشجيع المنافقين لهم ـ أعلن القائد الأعظم الحبيب ﷺ الحرب عليهم فولى على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج إليهم برجاله، فحاصرهم قرابة نصف شهر، وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلهم وقطعه وفعلاً أحرق بعض المؤمنين ظرفا وقطعوا بعضًا وتألم لذلك بعض المسلمين ولا سيما لما قال اليهود للرسول ﷺ عهدنا بك تنهى عن الفساد وتعيب صاحبه؟ فكيف تأذن بإحراق النخيل؟ ونزل ذلك قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] .

ونزل اليهود أخيرًا على حكم الرسول ﷺ منصاعين لأمره، وهو أن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم على إبلهم، ما عدا الحلقة «السلاح» حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى، فأخذ أموالهم الصامتة والناطقة حتى أن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه أو يهدّ نجف الباب ليأخذ الباب، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ② وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٢-٤] .

وأجلى بنو النضير عن المدينة، ولم يُسلم منهم إلا رجلان، هما يامين بن عمير، وأبوسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما . ولما مر اليهود بخيبر، نزل سلام بن أبي الحقيق، وكنانة ابن الربيع، وحيي بن أخطب، فأستقبلهم يهود خيبر بالطبول، والمزامير، والغناء بزهاء وفخر كأنهم أبطال فاتحون، وما هم إلا خونة ناكثون مهزمون.

وقسم الحبيب ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين لا غير؛ إذ هم أصحاب الحاجة حتى إنهم عالة على الأنصار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أموال بني النضير لم تكن غنائم أحرزت بالقتال، وإنما كانت فيئًا أفاءها الله على رسوله بدون سفر ولا قتال. وفي هذا يقول الله تعالى من سورة الحشر: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٦-٧].

إلا أنه ﷺ قد شكا إليه أبو دجانة، وسهل بن حنيف حاجة فأعطاهما خاصة دون بقية الأنصار - رضوان الله عليهم أجمعين(١).

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

١ - تقرير مبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

٢ - بيان الكمال المحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام التام بالعهد.

٣ - بيان سجية من سجايا اليهود، وهي نقض المعاهدات، وكذا الحال بالنسبة إلى الكفار إذ رأوا حاجتهم في النقض نقضوا، لكفرهم بالله ولقائه.

٤ - قد تقتض الضرورة هدم الجسور وبعض الدور وقطع الأشجار للضرورة.

٥ - بيان أن الفيء خلاف الغنيمة صورة وحكمًا.

٦ - ولوع اليهود بالمزامير والطبول والأغاني وحفلات الرقص والمجون في كل زمان.

٧ - بيان أن سورة الحشر جلُّها نزل في يهود بني النضير (٢).

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٢٤٨) جوامع السيرة ص١٤٤ .

(٢) هذا الحبيب ص٢٣٤ .

عبرة خاصة

عبرة لو كان هناك من يعتبر، إنه لما أخرج بنو النضير من ديارهم وتركوها خرابًا، مر بها عمرو بن سُعْدي اليهودي، وكان متألهًا في بني قريظة لا يفارق الكنيسة، فرأى خرابها، وفقدان أهلها، بعد ا كانوا يعمرونها ، ولهم فيها طيب عيش وهدوء نفس وراحة بال، فأتى بوق الكنيسة فنفخ فيه فاجتمع رجال بني قريظة، فذكرهم بحال بني النضير، وحال بني قينقاع من قبلهم وما حل بهم من ذل وهوان وخسران، وقررهم بما يعرفون من التوراة، وهو أن محمد هو النبي الخاتم، وأنه رسول الله ﷺ حقًا وصدقًا، وأن النجاة في اتباعه والخسران في حربه والكفر به ومعاداته، فأقروا مما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين، فقال له كعب بن أسد القرظي: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب، قال كعب: فلم - والتوراة - ما حُلْت بينك وبينه قط؟ قال الزبير بن باطا: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا. فأقبل عمرو بن باط على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال عمرو: ما عندي في أمره إلا ما قلت: ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا!!

وهكذا يحمل الكبرُ صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة وهو الخسران المبين (١) .

---

(١) هذا الحبيب يا محب ص٢٣٥ .

غزوة ذات الرقاع

ذُكر في سبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، قد جمعوا الجموع واجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ،فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم في أربعمائة مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، أو عثمان بن عفان رضي الله عنه وسار إليهم وهم بديار نجد فنزل ـ نخلاً ـ وهو موضع من نجد في أرض غطفان.

ولما علم بمسيره من أجمعوا أمرهم على قتاله: تفرقوا ولحقوا بروؤس الجبال فلم يكن قتال، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يعتقبون البعير كل ستة على بعير، وكان الفصل صيفًا ولم يطيقوا الحر، فكانوا يلُفُّون الخرق على أرجلهم فسميت ذات الرقاع.

وحدث في هذه الغزوة ما يلي:

١ ـ أن النبي ﷺ لما بات برجاله بات في مصيف «شِعب بين رجلين» وجعل على الحراسة مهاجرًا وهو عمار بن ياسر، وأنصاريًا وهو عباد بن بشر، فخير أحدهما الآخر في حراسة أول الليل، أو آخره، فاختار الأنصاري أول الليل، فحرس ثم قام يصلي ويقرأ في سورة الكهف فجاء أحد القناصة من العدو، فرماه بسهم فنزعه وواصل صلاته ثم رماه بآخر فنزعه ، وواصل صلاته ، ثم رماه بثالث فأيقظ صاحبه فرأى الدم يسيل منه فسأله فأخبره فقال: لم لا توقظني؟ فقال إنى كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها فلما تابع على الرمي ركعت فآذنتك، وايم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن اقطعها أو أنفذها. أي: أتمها قراءة.

٢ ـ أن غورث الغطفاني قال لرجاله: الا أقتل لكم محمدًا؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال أفتك به، وأخذ يتتبع جيش الإسلام، فلما نزلوا في واد كثير الأشجار، وتفرقوا فيه للإستراحة تحت ظلال أشجاره، وكان النبي ﷺ قد جلس تحت ظل شجرة وعلق سيفه بها، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء وختل حتى أخذ السيف وأصلته، وقال للرسول ﷺ: من يمنعك اليوم مني يا محمد؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «الله» فانهار الرجل وسقط السيف من يده، فأخذ رسول اله ﷺ،وقال له: «من يمنعك مني»؟ قال لا أحد[١]، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ، وعاهده على الا يحارب ضده، ورجع إلى قومه فأخبرهم فأسلم كثيرًا على خبر هذه الحادثة.

---

(٤) البخارى (٢٩١٠) مسلم (٨٤٣) .

٣ ـ أن جمل جابر بن عبد الله قد انقطع وأصبح لا يقدر على المشي إلا بصعوبة، فمر به الحبيب محمدﷺ وهو واقف، والجمل حاسر بارك فقال له: «ناولني سوطه» فناوله إياه، فضرب به الجمل، فقام وسار حتى كاد يسبق غيره. ومن باب المطايبة قالﷺ لجابر: «أتبعنيه يا جابر»؟ قال: بل أهبه لك يا رسول الله قال: «لا، بل بعينه» فساومه شيئًا حتى بلغ الثمن المطلوب فباعه إياه، واشترط جابر حملانه إلى المدينة، فقبل النبيﷺ الشرط. ولما وصلوا إلى المدينة جاء جابر بالجمل فأناخه على مقربة من بيوت النبىﷺ وقال لبعضهم أخبر النبىﷺ بأن جابرًا جاء بالجمل فأخبره، فقالﷺ لعمار: «أعط هذه الدراهم لجابر، وقل له يأخذ جمله، فإنه لا حاجة لي به» (١) فأخذ جابر الجمل وثمنه شاكرًا لله ولرسوله فضلهما.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ ـ بيان مصداق قولهﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (٢).

٢ ـ مشروعية اتخاذ الحرس عند الخوف.

٣ ـ بيان كمال عباد بن بشر الأنصاري في خشوعة في صلاته وتدبره كلام الله تعالى.

٤ ـ آية النبوة المحمدية تتجلى في انهيار غورث وسقوط السيف في يده.

٥ ـ بيان الكرم المحمدي المتجلي في إعطاء جابر الجمل والثمن معاً.

٦ ـ آية النبوة المحمدية في جمل جابر الذي أصابه الكسل والإعياء حتى انقطع، ثم عاد خيرًا مما كان ببركة ضربه له ورغبته في عودة صحته وسلامته(٣).

---

(١) البخارى (٥٠٧٩ ، ٥٠٨٠).

(٢) البخارى (٣٣٥) مسلم (٥٢١).

(١) هذا الحبيب يا محب ص٢٣٥ ـ ٢٣٧.

غزوة السويق أو بدر الأخرى

سبب هذه الغزوة: أن أبا سفيان بن حرب لما كان عائدًا من غزوة أحد قال للنبي ﷺ وأصحابه: موعدنا بدرًا عامًا قابلاً فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قولوا له: نعم» فقالوا: نعم إن موعدنا معك العام القابل، فلما آن أوان الموعد، استخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة، أو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وخرج في ألف وخمسمائة مقاتل، وسار حتى وصل بدرًا، وكان بهما سوق كبيرة تقام سنويًا ولذا واعد أبو سفيان فيها النبي ﷺ وأصحابه فباع النبي وأصحابه واشتروا فربحوا ضعف رأس المال إذ ربح الدرهم درهمين، وعادوا لم يمسهم سوء إذ أبو سفيان لما خرج برجاله ووصل إلى قريب من عسفان رأي أنه لا فائدة من الحرب ، وخاف الهزيمة فخطب فى رجاله فقال : إن هذا العام جدب ولا يصلح لكم إلا عام مخصب، فلذا أرى أن تعودوا، فأكلوا أزوادهم وكانت سويقًا ورجعوا، فقال أهل مكة يُنحون عليهم باللائمة: كأنكم ما خرجتم للقتال، وإنما خرجتم للأكل والسويق، فسميت هذه الغزوة أيضًا بغزوة السويق.

وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعرًا منه قوله:

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد
لميعاده صدقًا وما كان وافيًا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا
لأُبت ذميمًا وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وإبنه
وعمرًا أبا جهل تركناه ثاويًا
عصيتم رسول الله أف لدينكم
وأمركم السِّيِّءَ الذي كان غاويًا
فإنى إن عَنَّفتموني لقائل
فدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعنا فلم نَعْدله فينا بغيره
شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديًا

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي الآتية:

١ ـ بيان الوفاء المحمدي الدال على الشجاعة النادرة، إذ لم يرهب أبا سفيان كما رهب وولي من الطريق خائفًا.

٢ ـ مشروعية البيع والشراء في كل فرصة تسنح حتى في الجهاد والحج.

٣ ـ بيان مصداق حديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (١) ، لانهزام جيش أبي سفيان قبل الإلتقاء بأرض الموعد وهي بدر.

٤ ـ تفسير قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ـ١٧٤](٢) .

---

(١)البهارى (٣٣٥) مسلم (٥٢١) .

(٢) المرجع السابق ص٢٣٧، ٢٣٨ .

غزوة دومة الجندل

بلغ النبي ﷺ أن جمعًا من المشركين بدومة الجندل ـ وهي قرية تبعد عن المدينة بمسافة خمس عشرة ليلة، وعن دمشق بنحو من خمس ليال ـ فهي إلى الشام أقرب، وإن كانت من أعمال المدينة النبوية ـ يتلصصون ويؤذون المارة، فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم من جهة؛ تخليصًا للبلاد من ظلمهم ومن جهة أخرى ليرعب الروم وكل من في المنطقة حتى لا يفكروا في حربه ﷺ، ومن جهة ثالثة نشر دعوة الله تعالى وتبليغها إلى سكان تلك الديار. فاستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفري، وخرج في ألف مقاتل، وانتهى إلى تلك البلاد، ولم يجد بها أحدًا، إذ رعبوا وتفرقوا بمجرد أن علموا أن محمدًا قد خرج إليهم.

وأقام ﷺ بالمنطقة كذا يومًا، أرسل فيها السرايا هنا وهناك، ولم يعثروا إلا على المواشي من إبل وغنم، فساقوا منها ما شاء الله، وعاد الحبيب محمد ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيدًا والحمد لله أولاً وآخرًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:

١ ـ بيان ما كان من الفوضى في تلك الديار قبل الإسلام بدليل وجود عصابات تتلصص فتؤذي المارة وتسلب أموالهم.

٢ ـ بيان ما أوتي ﷺ من كمال السياسة وحسنها، إذ خروجه إلى دومة الجندل حقق عدة أهداف شريفة: منها إرهاب الروم، ورفع الظلم، والدعوة إلى الإسلام.

٣ ـ بيان مصداق قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (١) إذ بمجرد أن علم الظلمة بخروج النبي ﷺ إليهم حتى تفرقوا منهزمين والمسافة شهر.

٤ ـ مشروعية أخذ الغنائم في الإسلام وحليتها لهذه الأمة المجاهدة، المقيمة للعدل، الناشرة للهدى والخير بين من تظلهم تحت راية الإسلام (٢).

---

(١) البخاري (٣٣٥) مسلم (٥٢١).

(٢) المرجع السابق ص٢٣٧، ٢٣٨.

غزوة بني المصطلق من خزاعة أو المريسيع

سبب وقوع هذه الغزوة:

لهذه الغزوة سبب كغيرها من الغزوات وهو أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق من خزاعة قد تجمعوا بقيادة الحارث بن أبي ضرار والد جويرية زوج النبي ﷺ، وذلك بماء يقال له: المريسيع بناحية قدير، وكذا سميت الغزوة بغزوة بني المصطلق أو المريسيع، فاستعمل النبي ﷺ على المدينة أبا ذر الغفاري، وخرج إليهم رسول الله ﷺ في جمع من المهاجرين والأنصار، ونازلهم بالمريسيع فهزم الله المشركين، وقتل من قتل منهم، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها بين المسلمين، ومن بين السبايا جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو في سهم ابن عم له (١).

جويرية تكاتب مالكها:

ولما وقعت جويرية - وهي بنت سيد الحي حارث بن أبي ضرار - طلبت من مالكها ثابت بن قيس أن يكاتبها لتتحرر، وأتت النبي ﷺ تستعينه في كتابتها فقال لها: «هل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك» نعم يا رسول الله ففعل أي تزوجها بعد سداد كتابها، وسمع المسلمون بتزوج رسول الله ﷺ بها فقالوا: أصهار رسول الله!! أي فكيف نملكهم؟ فأعتقوا ما لديهم من سبايا بني المصطلق، فأعتق أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فكانت عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين تقول: ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها (٢)!!

فتنة أرادها ابن أبي، ولكن الله سلم:

وما زال المسلمون معسكرين على المريسيع وإذا بصارخين أحدهما يقول: يا للأنصار!! والآخر يقول: يا للمهاجرين!! ففزع الناس وإذا بجهجاه الغفاري - وهو أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - وسنان الجهني حليف الخزرج يقتتلان على الماء، فصرخ كل واحد

(١) ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٦٣) وابن كثير فى البداية والنهاية (٤/ ١٥٧) والصحيح فى تاريخ الغزوة أنها فى شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة وانظر المرجع السابق وانظر زاد المعاد (٣/ ٢٥٦) وفتح البارى (٨/ ١٩٦) .

(٢) البخارى (٢٥٤١) مسلم (١٧٣٠) .

بأحلافه، فغضب لذلك رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه من بينهم زيد بن أرقم ـ وهو غلام حدث السن ـ فقال ابن أبي: أوقد فعلوها!! قد كاثرونا في بلادنا. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على رهطه وقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ووالله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحركوا إلى غيركم. ولما سمع زيد مقالة ابن أبي هذه مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال ابن أبي وكان عنده عمر بن الخطاب ـ فقال: يا رسول الله مُر به عباد بن بشر فيقتله. فقال رسول الله ﷺ: «كيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! ولكن أذن بالرحيل» فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه ـ أي من التفكير في الفتنة ـ وهذا من الهدي النبوي الذي لا يجاري فيه، ولا يلحق به ﷺ.

وجاء أسيد بن حُضير فسلم على النبي ﷺ وقال يا نبي الله لقد رحلت في ساعة لم تكن تروح فيها!! فقال له ﷺ: «أما بلغك ما قال عبد الله بن أبي» قال: وماذا قال؟ قال: «زعم أن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» قال أسيد: فأنت والله تخرجه إن شئت، فإنك العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكًا.

وسمع ابن أبي بالخبر، فجاء يركض إلى رسول الله ﷺ ويحلف بالله ما قلت ما قال زيد، ولا تكلمت به، ولما كان ابن أبي شريفًا في قومه، قالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ، وأنزل الله سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١](١).

موقف متحفظ:

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ـ وهوشاب صالح أحد الذين كانوا يكتبون الوحي لرسول الله ـ بلغه ما كان من أمر أبيه فأتى النبي ﷺ، وقال يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، إني أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا ترعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار. فأجابه الرسول ﷺ قائلاً: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثًا عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه.

أي الأمرين خير؟

لما علم النبي ﷺ ما أصبح عليه قوم ابن أبي بعد الذي حدث، وهو أنهم أصبحوا إذا

(١) انظر السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).

أحدث حدثًا سيئًا عاتبوه وعنفوه وتوعدوه، وكفوا بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، قال عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب: «كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت * له آناف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر: أمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

لا عجب في عذر الكافر:

إنه لا ينبغي أن يتعجب من غدر الكافر، لأن ظلمة الكفر عندما تغطي القلب تحجب عنه كل معنى للخير والفضيلة والمعروف فيصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

وهذا مقيس بن صبابة الليثي كان قد قتل أخوه هشام بن صبابة في هذه الغزوة، ضربه رجل من الأنصار رهط عبادة بن الصامت بسهم في المعركة خطأ فمات، فجاء مقيس يدعى الإسلام ويطالب بدم أخيه هشام بن صبابة الليثي فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه، واقام قليلا عند رسول الله ﷺ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدًا وهو يقول:

حللت بها نذري وأدركت ثؤرتي **
وكنت إلى الأصنام أول راجع

في ثلاثة أبيات المذكورة ثالثها(١) .

حادث الإفك(٢) :

عند عودة النبي ﷺ وأصحابه من غزوة بني المصطلق وقريبًا من المدينة، نزل رسول الله ﷺ منزلاً ثم ارتحل، وحدث في ذلك ما حدث، ولنترك لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صاحبة القصة تحدثنا عنها بالتفصيل كما روى ذلك البخارى وأهل السنن وأهل التفسير قالت : كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فلـما كان غزوة المصطلق، أقرع بين نسائه، فخرج سهمي فخرج بي معه وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق لم يهجهن اللحم فيثقلن وكنت إذا وصل بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بعيري، فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر بعير، ثم يأخذون برأس البعير ويسيرون. قالت: فلما قفل رسول الله ﷺ من سفره ذلك ـ وكان قريبًا من المدينة ـ بات بمنزل بعض الليل، ثم ارتحل هو والناس، وكنت قد خـرجت

---

* أى أخذتها الحمية وغضبت لذلك . ** بمعنى الثأر .

(١) الواقدي في المغازي (١/ ٢٠٠) وابن سعد في الطبقات(٢/ ٦٣).

(٢) البخاري (٤٧٥٠).

لبعض حاجتي - وفي عنقي عقد لي من جذع ظفار، انسل من عنقي ولا أدري فلما رجعت التمست العقد فلم أجده، فرجعت إلى المكان الذي كنت فيه التمسه فوجدته، وجاء القوم الذين يرحلون بعيري فأخذوا الهودج - وهم يظنون أني فيه - فاحتملوه على عادتهم وانطلقوا، ورجعت إلى المعسكر، وما فيه من داع ولا مجيب - أي ما فيه أحد - فتلففت بجلبابي واضطجعت إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي - وكان تخلف عن المعسكر لحاجته، فلم يبت مع الناس فلما رأى سوادى أقبل حتى وقف عليّ فعرفنى - وكان رآنى قبل أن يُضرب الحجاب - فلما رآني استرجع، والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه فما كلمته ثم قرب البعير وقال اركبي، فركبت وأخذ برأس البعير مسرعًا فلما نزل الناس واطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك في ما قالوا، فارتج المعسكر ولم أعلم بشيء من ذلك، ثم قدمنا المدينة فاشتكيت شكوى شديدة، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي ولا يذكران لي منه شيئًا إلا إني أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه فكان إذا دخل على - وأمي تمرضني - قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك، فوجدت في نفسي مما رأيت من جفائه، فأستأذنته في الانتقال إلى أمي لتمرضني فاذن لي، وانتقلت ولا أعلم بشيء مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

قالت رضي الله عنها وكنا عربًا لا نتخذ في بيوتنا هذا الكنف * ، نعافها ونكرهها إنما كان النساء يخرجن كل ليلة، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم ابن المطلب، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق، فوالله إنها لتمشي، إذ عثرت في مرطها، فقالت تعس مسطح، فقلت لها: لعمر الله بئس ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا، قالت أو ما بلغك الخبر؟ قلت وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان، فو الله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، فرجعت، فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟! فقالت لي: يا بنية خففي عليك، فو الله قل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن وكثر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرًا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال

* أى أماكن خفاء البول والغائط .

من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناحيني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله فلم تقل إلا خيرًا، وأما حمنة فأشاعت تضارني لأختها. فشقيت بذلك.

وتكلم أناس في المسجد حتى كادت تكون فتنة، ونزل رسول الله ﷺ فدخل على فدعا علي بن طالب وأسامة بن زيد، فاستشارهما في الأمر، فقال علي رضي الله عنه: سل الجارية وهي بريرة، فسألها وضربها علي فحلفت وما زالت تحلف أنها ما تعلم عن عائشة إلا خيرًا، وما كانت تعيب عليها شيئًا إلا أنها كانت - أي بريرة - تعجن العجينة، وتأمر عائشة بحفظها فتنام عنها فتأتي الشاة فتأكلها.

ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي وامرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي، فجلس، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «يا عائشة» وذكرت كلامًا وكيف كانت حالها إذ ذاك حتى قالت فقلت كما قال أبو يوسف ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف : ١٨].

ثم قالت: فو الله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوب ووضعت وسادة من أدم * تحت رأسه.

فأما من حين رأيت، فو الله ما فزعت وما باليت قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فو الذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا ** من أن تأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «أبشري يا عائشة قد أنزل الله برائتك».

قالت: قلت: الحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم قائلا ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش - وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

وروي أنهما لما نزلت برءاتها قال لها أبواها: احمدي رسول الله ﷺ، قالت: لا أحمد إلا الله الذي برأني، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عرفت الحق لأهله».

---

* أى من جلد.

** خوفًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي:

١ ـ في تزويج رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق مبدأ: (أنزلوا القوم منازلهم). إذ تزوجه ﷺ بها كان إكرامًا لها ولأبيها لشرفهما عند قومهما.

٢ ـ بيان بركة جويرية، إذ بزواجها انعتق أكثر من مائة بيت من قومها.

٣ ـ بيان نفاق وخبث ومكر ابن أبي ـ عليه لعائن الله تعالى ـ وما أراده من الفتنة.

٤ ـ تجلي الحكمة المحمدية والسياسة الرشيدة في إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بالرحيل بالقوم وعدم الإذن في قتل ابن أبي بعد أن استوجب القتل بقوله: ما زال ابن أبي كبشة يعيث في البلاد فسادًا، وهي كلمة صاحبها مرتد قطعًا، إلا أن ابن سلول كافر ما آمن حتى يقال: ارتد.

٥ ـ مشروعية القرع، والأخذ بها بدل مجرد التخيير لما فيها من تطييب النفوس.

٦ ـ مشروعية أخذ المجاهد امرأته معه للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.

٧ ـ بيان أن الحبيب ﷺ ما كان يعلم الغيب حتى يعلمه الله تعالى، فكيف بغيره ممن يدعون علم الغيب والمكاشفة؛ تعزيرا بالمسلمين وتضليلاً لهم ولاستغلالهم؟!

٨ ـ بيان ما تعرضت له أم المؤمنين من البلاء، وصبرها عليه حتى كشف الله غمتها وفرج كربها، وهكذا يتحقق مصداق قول الرسول ﷺ: «**أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» (١).

٩ ـ بيان براءة أم المؤمنين، ولذا من شك براءتها بعد نزول القرآن بذلك فقد كفر، إما أن يراجع الإسلام وإلا فهو كافر من أهل النار.

١٠ ـ بيان إقامة حد القذف على من قذف مؤمنًا أو مؤمنة بفاحشة، إذ أقيم الحد على مسطح وحسان وحمنة وقهرهم الله تعالى بذلك، ولم يقم الحد على بن أبي؛ لأنه عرض في القول ولم يصرح (٢).

١١ ـ استجابة أبي بكر لربه في قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢] إذ كان قد منع ابن خالته مسطحًا ما كان يقدمه له من طعام وكساء لما تورط في قذف أم المؤمنين ثم

(١) رواه الترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٤٣).

(٢) انظر تفسير القرطبى (١٢/ ١٩٧) وزاد المعاد للأهمية (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

كفر أبو بكر عن يمينه ورد إلى مسـطح ما كان يجريه من النفقة بوصفه ابن خالته، وهو مهاجر فقير.

١٢ ـ حرمة قذف المحصنات المؤمنات وكذا المحصنين المؤمنين، وأنه من كبائر الذنوب وموجب للحد، وهو ثمانون جلدة.

١٣ ـ تجلي الكمال المحمدي، في مواقف من هذه الغزوة بما فيه حادث الإفك من ذلك: حلمه وأناته صبره وكرمه، حسن تدبير لأمره وأمر أصحابه، استشارته لأفراد آل بيته فيما يتعلق بهم دون غيرهم [١].

(١) هذا الحبيب ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

غزوة الأحزاب ٥ هـ

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السير والمغازي على أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة وقال الواقدي إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد (١) ؛ إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهير، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية.

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت في سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ المحرم سنة الهجرة وجزم ابن حزم، أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن الرسول ﷺ رده يوم أحد ـ وهي السنة الثالثة باتفاق وهو ابن أربع عشر سنة ولكن البيهقي (٢) ، وابن حجر (٣) وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة يوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور.

وإلى ما ذهب إليه الجمهور وهو الراجح لدى ذهب ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين إذ لا خلاف أن أحد كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه (٤) .

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٠٥) والطبقات (٢/ ٦٥ ـ٧٣).

(١) دلائل النبوة (٣/ ٣٩٦) .

(٣) الفتح (٣/ ٣٩٦) .

(٤) زاد المعاد (٢/ ٢٨٨) .

٢ ـ أسبابها:

أن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفد يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار(١) .

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكة أن دينكم خير من دين محمد وأولى بالحق منه وعن ذلك يقول: الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ [النساء: ٥١ـ٥٢].

ولا ريب فإن قريشًا قد سُرت بما سمعت من مدح لدينها، فإزدادت حماسًا وأصبحت أكثر تصميمًا على حرب المسلمين، ثم أعلنت موافقتها على هذه الدعوة والإشتراك في الحملة التي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعدًا.

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الإتحاد الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين،

وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أـ أن تكون قوة غطفان في جيش الإتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب ـ أن يدفع اليهود بقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر لسنة واحدة.

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعة عشرة آلاف مقاتل، أربعة

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٣٧) .

آلاف من قريش وأحلافهما، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانيًا: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدول الإسلامية على حذر تام من أعدائه لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولاً ثم غطفان ثانيًا، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة. فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصد عدوان الأحزاب، فأعجب النبي ﷺ بذلك قال الواقدي رحمه الله فقال سلمان: يا رسول الله: إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين)(١) .

وعندما استقر الرأي بعد ـ المشاورة ـ على حفر الخندق، ذهب النبي ﷺ وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش.

فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا، خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب إلى راتج وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقًا، لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، إذ كانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع وكانت حرة واقم من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كقبلة بتأمين ظهر المسلمين،

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤).

وكان بين الرسول وبني قريظة عهد ألا يمالوا عليه أحد، ولا يناصروا عدوًا ضده.

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند، لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها.

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة حيث شرع بالأخذ بـالأساليب الجديدة في القتال ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، ولهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من اتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

ثالثًا: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية:

١ ـ لما علم النبي ﷺ بقدوم الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصن بني حارثة. حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعال على معنويات المقاتلين لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادىء الأعصاب فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة يسخر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق مما يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع.

٢ ـ ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلده بطنه وكان كثير الشعر(١).

---

(١) البخاري (٤١٠٦).

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣ ـ وكان ﷺ يشارك الصحابة رضي الله عنهم في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشريف من شدة الجوع، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثًا، لم يستأثر بهذا دونهم وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن ولحية جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم: اقترن حفر الخندق بعصوبات جمة، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك أن في ـ هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدر كبير من الحزم والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينسى في هذه الظروف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي.

ولهذا نجد النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا الله مـــا اهتـــدينا ... ولا تصدقنا ولا تـصـــلينا

فأنـزلن السكينـــة علـــينا ... وثبت الأقدام إن لقينا

إن الأعادي قد بغوا علينا ... وإن أرادو فتنـــة أبـــينا

ثم يمد صوته بآخرها [١] .

وعن أنس رضي الله عنه أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الإسلام ما بقينا أبداً

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللهم إن الخير خير الآخر ... فاغفر للأنصار والمهاجرة[٢]

---

(١) البخارى (٢٨٣٧) مسلم (١٨٠٣).

(٢) البخارى (٣٧٩٧) (٦٤١٣) مسلم (١٨٠٤ ، ١٨٠٥).

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة، والنشاط بإنجاز العمل الذي كلفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم.

٥ ـ **تقدير ظروف الجند والإذن بالإنصراف عند الحاجة:** كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ فكانوا يستأذنونه في الإنصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من عمل، رغبة في الخير واحتساباً له فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذن منك في هذا الموطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم في الإنصراف عنك لقضاء بعض حوائجهم، واستغفر لهم (١)، فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ولم يرى فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال (٢).

٦ ـ **تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:** قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة من يريد أن يخترق الخندق وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى إنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى هوى من الليل في اليوم الثاني، يفوت المسلمون الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الإشتباك المباشر للقتال، واستطاع على بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل بل تصدى على لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر رضي الله عنه فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٥١).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤١٠).

أ ـ أمر بحفر الخندق، بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا في ذلك وهي السهولة الواقعة في شمال المدينة إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب ـ أنه قسم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

ج ـ إنه ﷺ سيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك العمل إلا بإذن منه ﷺ.

د ـ أنه قسم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهارًا. ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

هـ ـ أنه ﷺ استطاع لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها، فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

اشتداد المحنة بالمسلمين:

مع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف إلا أن سنة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقتراب النصر زاد البلاء والإمتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق لأمور:

أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بـ أعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات في المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه، لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة،

ولذلك انتدب النبي ﷺ الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزبير فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله: رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم(١) .

وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير - رضي الله عنهم - وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقًا فالحنو لي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد فرجعوا فسلموا على النبي ﷺ وقالوا: عضل والقارة، فعرف النبي ﷺ مرادهم(٢) .

واستقبل النبي ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم واستخدم كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا، وشعيرًا وتينًا لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين، الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي ﷺ (٣) .

ثانيًا: الحصار الشديد على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الإرجاف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها واشتد الكرب على المسلمين وتأزم الموقف، وقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من فزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٩٥).

(٣) السيرة الحلبية (٢/ ٢٢٣) .

وكان ظن المسلمين بالله قويًا وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ويطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإجحاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم تكفل بتصوير ذلك أدق التصوير(١) والآيات هي: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس والجبن في القلوب وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرآة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الإعتقاد بل يتبعه العمل المنخذل المرجف، فهم يستأذنون

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

الرسول ﷺ للإنصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام(١) .

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق، حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضعيفة منه ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مئتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم وقد حصلت مناوشات اشتشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي ـ قاتل حمزة يوم أحد ـ رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلاً، واستطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله، وقال خذها وأنا ابن العرقة وقال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذووا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة(٢) وقد تم استجاب الله دعوة هذا العبد الصالح وهو الذي سيحكم فيهم ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو مقر رسول الله ﷺ فقاتلهم المسلمون يومًا إلى الليل فلما حانت صلاة العصر دنت كتيبة، فلم يقدر النبي ﷺ، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي ﷺ فلم يصل العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»(٣)

ثالثًا: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان، وبث الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النبي ﷺ في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٢٥).
(٢) مسلم (١٧٦٩).
(٣) البخاري (٤١١١).

حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الإشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال وإنما كان هدفهم، هدفًا سياسيًا وعقائديًا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس، لذا فقد كان اتصال (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي ﷺ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم وكانت تدور حول عرض تقدم به النبي ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الإتفاقية المقترحة:

أ ـ عقد صلح منفرد بين هؤلاء المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

ب ـ توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل مريب ضده (وخاصة في هذه الفترة).

ج ـ تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بـ جيوشها عائدة إلى بلادها.

د ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها، من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة، فقد ذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان: «أرأيت أن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكما وتخذلان بين الأعراب؟»قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[١].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشغل نفوس هؤلاء

(١) انظر المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧).

ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبال في مواجهة خصمه وبذلك استطاع ﷺ أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب.

فقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانبًا من جوانب منهج النبوة في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًا من دروس التربية المنهجية عند اشتداء البلاء وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم في عدم إعطاء غطفان شيء من ثمار المدينة وقال السعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة: يا رسول الله أمرًا تحبه، فنصنعه، أم شيئًا أمر الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم، من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» فقتل له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قري أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك».

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا(١) وكان رد زعيم الأنصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضى.

والثاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله ﷺ، باعتبار رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك.

الثلث: أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

ولما تبين للسعدين من جواب النبي ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجابه سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيم غطفان حيث أن الأنصار لم يذلوا لأولئك المعتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزهم الله تعالى بالإسلام وقد أعجب النبي ﷺ بجواب سعد وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان.

وفي قوله ﷺ: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»(١) دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفًا واحدة وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

أن يكون الهدف الاستراتجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآتية والمستقبلية للإسلام (١) .

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصحابة يبين لنا أسلوبه في القيادة والحرص على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ طالما الأمر في دائرة الإجتهاد ولم ينزل به وحى . إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترمون رأيه ويحترم رأيهم، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة.

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاث معان:

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

ج ـ أنه يبين ما تمتليء به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على المواجهة

(١) الأساس فى السنة (٢/ ٦٨٧) .

للمواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية، وفى قهر العدو مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه.

٢ ـ اهتمام الرسول ﷺ ببث الإشاعات في صفوف الأعداد:

استخدم النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتفريق ما بين الأحزاب من ثقة والتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هنالك تصدعًا خفيفًا بين صفوف الأحزاب فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها والآن ساق الله عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه وقال: يا رسول الله: إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت: فقال له رسول الله ﷺ: **«إنما أنت رجل واحد فينا فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»** (١).

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسلمها للمسلمين ثمنا لعودتهم إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة(٢).

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب ـ أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف من الأطراف ما قال له وفى استمرار هذا الكتمان نجاح فى مهمته فلو انكشف أمره لدى أى طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١١٣) وانظر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٤٥).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب.

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب:

أولاً: شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاد والاستعانة بالله وخصوصًا في مغازيه وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلازلا شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا[١] وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وزلزلهم[٢] فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنودًا من عنده سبحانه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال القرطبي رحمه الله وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا فرق الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم لها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط ـ وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إلى، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب[٣].

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولم تهزم بعبقرية المواجهة، وإنما هزمت بالله وحده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

---

(١) أحمد في المسند (٤/ ١٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) البخاري (٤١١٤) ومسلم (١٧٤٢).

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٤ / ١٤٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»(١) .

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدًا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها.

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب وضرورة الإلتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والإستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها (٢) .

ثانيًا: تحري انصراف الأحزاب:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب وأحب أن يتحرى عن ما حدث عن قرب فقال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة(٣) ، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يجد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تزعرهم علي»(٤) .

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع ولاتلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ لا تذعرهم علي ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»(٥) .

---

(١) البخاري (٤١١٤) ومسلم (٢٧٢٤) .

(٢) فقه السيرة للبوطى ص٢٢٢ .

(٣) مسلم (١٧٨٨) كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب.

(٤) مسلم (١٧٨٨) كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب.

(٥) مسلم (١٧٨٨) كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب

ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعبر منها:

١ - معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

٢ - الإنضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة: لقد مرت فرصة سانحة يقتل فيهما قائد الأحزاب وهم بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه.

٣ - كرامات الأولياء: إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين: لا شك أن هذه كرامة يمن بها الله على عباده المؤمنين.

٤ - لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفق بأصـــحابه ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعـابة قائلاً: هيا يا نومان، دعابة تقطر حـلاوة وتفـيض بالحـنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة، اللتين تجلي بهما فؤاد الرسـول ﷺ وتطـبيق فريد رفيع لهـما في أصحابه الكرام وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥ - وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكَريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزرقاني وقال أبو سفيان، ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسة، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص...

وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته.

ثالثًا: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله سبحانه وتعالى وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لِلغزو في عقر دارهم وعواصم بلدانهم ومعرضون لأن يتكالب عليهم البلدان جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور (١) لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص.

والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور

من أهمها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٣ ـ التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

٤ ـ حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وجهاده وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) الأساس في السنة (٢/ ٦٦٢).

٦ - بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

٧ - امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر حيث ألقى - سبحانه - الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفريقهم ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

تغير الموقف لصالح المسلمين فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «الآن نغزوهم، ولا يغزونا نحن نسير إليهم»(١).

كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة فكان الإبتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين.

كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها.

---

(١) البخاري (٤١٠٩).

غزوة بني قريظة

بعد عودة النبي ﷺ من الخندق ووضعه السلاح أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجه إليهم وقد أعلمهم بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»(١) .

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمسًا وعشرين(٢) ليلة، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الإستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ونزلوا على حكمه ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق فقضى أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ وقال: **قضيت بحكم الله**»(٣)، ونفذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جدًا بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين وكان جزاءهم من جنس عملهم حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا(٤) .

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة ونترك السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا عنها: قالت السيدة عائشة: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي تضحك ظهرًا وبطنًا ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانه؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك ومالك؟ قالت: أقتل: قلت: ولم؟ قالت: حدثا أحدثته* قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل(٥) .

---

(١) البخاري (٤١١٩) مسلم (١٧٧٠). (٢) صحيح السيرة النبوية (ص ٣٧٣).

(٣) البخاري (٤١٢٢) مسلم (١٧٦٨).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٥، ٣١٧) .

* طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته فقتلها رسول الله به .

(٥) صحيح السيرة النبوية (ص٣٧٧).

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر؛ لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش لأنها كانت تعول، وتؤمل في يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يصد يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة إن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين منهج نبوي كريم رسمه الحبيب المصطفى للأمة الإسلامية.

فوائد ودروس وعبر:

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسية للنبي ﷺ منها تكثير الطعام الذي أعده جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم.

قال جابر: فقلت يا رسول الله، إئذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة * ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي**، قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: (كثير طيب) قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاغطوا» *** ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة[1] وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم

(١) البخاري (٤١٠١).

* القدر . ** الحجارة التى تنصب ويجعل القدر عليها .

*** أى لا تزاحموا .

قالت: أي بنية، إذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما، قالت فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي فقال: تعالى يا بنية ما هذا الذى معك؟ فقلت يا رسول الله، هذا الذى تمر بعثتني به أمي إلى بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيان، قال: هاتيه قالت فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عَليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغذاء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب(١) .

ففي هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة لرسول الله ﷺ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقل عنهم القوت وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام.

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق، إخباره ﷺ عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش على وعندما اعترضت صخرة الصحابة، وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة»، ثم ضرب الثانية: فقال: «والله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة: وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة» (٢) .

وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عنها في اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورون في المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارص.

ثانيًا بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١).

(٢) سبق تخريجه .

وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا فقال حذيفة يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق[١] ، ... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع رسول الله ﷺ، الأمور في نصابها بقوله، خير القرون قرني، فبين أن عملهم، لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والإبتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض.

ثالثًا: سلمان منا أهل البيت[٢] :

قال المهاجرون يوم الخندق سلمان منا، وقالت الأنصار سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ سلمان منا أهل البيت، وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين.

رابعًا: الصلاة الوسطى:

قال ﷺ : «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[٣] وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر كما هو منصوص عليه وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي[٤].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٥).
(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٤٧) وضعفه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٧٢) وقال ضعيف جدًا وصحح موقوفا عن على .
(٣) البخاري (٤١١١).
(٤) الأساس فى السنة (٢/ ٦٨٢) .

قال الدكتور البوطي: لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تبعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الإنشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نسخ حينا شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ ـ على فرض صحته ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الإنشغال. أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة (١) .

خامسًا: الحلال والحرام:

عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن ود. فقال ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفته؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئًا» حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟

سادسًا: شجاعة صفيةعمة الرسول ﷺ :

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم، لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله أرسلت يهوديًا ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ فأخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال[١] ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها

(١) فقه السيرة النبوية ص٢٢٣ .

(٢) الرحيق المختوم س ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

سابعًا: عدم صحة ما يروي عن جبن حسان رضي الله عنه:

ففي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف (١) أن صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابت إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فأنزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه، فقلت: يا حسان إنزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني إن استلبه إلا أنه رجل فقال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب(١) .

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها :

١ - من حيث الإسناد فالخبر ليس مسندًا وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

٢ - لو كان حسان بن ثابت رضي الله عنه معروفًا بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة لاسيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين.

ثامنًا: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر رسول الله ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام. . . . وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعه من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب...»(٢) .

---

(١) صحيح السيرة النبوية (ص٣٦٥).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين، إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي، وليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ، الإطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضعية وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلم ضربت الخمية في المسجد وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟ إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزمن.

تاسعًا: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع إلى التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر وكانوا حلفاؤه فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ ـ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطًا بالجذع في المسجد ست ليالي تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع، وقد قال لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت: قالت أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ، من السحر وهو يضحك فقلت: ممن تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه(١) ، وذلك في الإعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سرًا حربيًا خطيرًا فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ، والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يسرُ ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي إئتمنه على هذا السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا وأقر بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون إنتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٧].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضي لصاحبه أن يخالطه إثم ولا فسوق.

وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله توبته.

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

عاشرًا: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرة تدل على فضله ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ منها:

- استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ، وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك» (١) وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء حتى كانت غزوة بني قريظة وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

ومن إكرام رسول الله ﷺ، قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم».

وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته، حيث سماه سيدًا وأمر بالقيام له[١].

وعندما نفذ حكم الله فى يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو إلى الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا فافجرها واجعل موتي فيها)[٢] وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله.

ومن خلال دعاؤه الأول والثاني، نلحظ هذا الدعاء العجيب دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الإستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته.

ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض. فقد شاءت إرادة المولى تعالى أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بني قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

إنه لا يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وإنتهاء المسؤولية وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب ووضعت بين المسلمين وقريش وشفي غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة وبدأ قطف الثمار للإسلام، فلا ثمرة أشهى من الشهادة (فافجر جرحي واجعل موتتي فيه).

وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر.

وعندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم إليه أصحابه، فقال: إن أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة فانتهى إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدًا حزامة وجدًا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٦٣).

(٢) المرجع السابق(٣/ ٢٧٥).

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به وقال: يقوم له القوم: ما حملنا يا رسول الله، ميتًا أخف علينا منه قال: «وما يمنعه أن يخف؟! وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»(١)

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال ﷺ: «هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش وفتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُم ضمة ثم أفرج عنه»(٢) يعني سعداً .

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعدًا كما روي عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته ولينجزك الله ما وعدك»(٣) .

لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرًا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به فقد قال ﷺ : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(٤) وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونه ويعجبون من لينها فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنية خير منها وألين»(٥) .

ومع كل هذه المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد رضي الله عنه نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد ابن الحضير وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغير وجهه ﷺ ، وسبح ثلاثًا، فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع، ثم كبر ثلاثًا. وكبر المسلمون فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرج الله عنه»(٦) .

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) وإسناده حسن.
(٢) رواه النسائي (٤/ ١٠٠) وإسناده صحيح.
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) ورجاله ثقات.
(٤) مسلم (٢٤٦٦).
(٥) مسلم (٢٤٦٨).
(٦) أحمد (٦/ ١٤١).

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته المنية وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات والأرض بقدومه واهتز له عرش الرحمن فرحًا لوفاته من دون خلق الله أجمعين كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض طوالاً، وجميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية(١) رحمة الله عليه ورضي عنه وأعلى ذكره في المصلحين.

الحادي عشر: مقتل حيى بن أخطب، وكعب بن أسد:

مقتل حيي بن أخطب النضري:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة... إلى أن قال: فلما فض جموع الأحزاب، فانطلق - يعني - حيي - حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتى به مكتوفًا بعد فقال حيي للنبي ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه (٢).

ثم أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه (٣).

وفي مقتل حيي بن أخطب دروس وعبر منها:

أ- لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

فقد ألب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ وأقنع بني قريظة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٠).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧١) رقم ٩٧٣٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكبته، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يمهلهم ويستدرجهم، حتى إذا أخذهم أخذ عزيز مقتدر فكان أخذه أليم شديد قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ب ـ التجلد في مواطن الشدة:

لقد تجلد حيي وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت وهو يعرف أنه على باطل، ظالم نفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير لأنه يعبد هواه ولم يعبد ربه قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ج ـ من يخذل الله يخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحدًا ليس له من نصير يمنعه أو يدفع عنه قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد ولذلك عبر حيي صراحة أن الله لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدوًا لأولياء الرحمن يشاقق الله، فالله خاذله ومسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة، لأن إرادة الله هي النافذة وقدره هو الكائن لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

٣ ـ قتل كعب بن أسد القرظي:

وجيء برئيس بني قريظة، كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي:

---

(١) البخاري (٤٦٨٦) مسلم (٢٥٨٣).

قال رسول الله: «كعب بن أسد؟».

قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم.

قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟»(١).

قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود.

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضربت(٢).

ومما توريه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتضرب أعناقهم قد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصبًا ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا ﷺ ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفًا من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه، وتعييره وهذا دليل على السفة والحمق وخذلان الله لهذا اليهودي المخادع.

الثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا، وسلمي بنت قيس في رفاعة بن سمؤال القرظي:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هب لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبدالرحمن: هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه قال ثابت: أردت أن أجزيك

---

(١) عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٧).

(٢) اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٦٨).

اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه ووهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهب له، فرجع ثابت إلى الزبير، فقال: قد رد إليك رسول الله ﷺ مالك وأهلك، فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان؟ وذكر رجال قومه، قال ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدك التي عندك بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقتل(١) .

٣ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل القرظي:

كانت سلمي بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، وقد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بنت سموأل القرظي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله: بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته.

وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام لا يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير.

الثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «**ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»(٢) فبعضهم فهم منه الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصلي إلا في بني قريظة ولم يعنف النبي ﷺ أحدًا منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٧٢).

(٢) البخاري (٤١١٩) .

الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثابا، كما أن فيه تقرير لمبدأ الإجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم.

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عداَ أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنيًا محتملاً؟. . ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك (١) كما رأيت وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه. وفيه أيضًا أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطيء فقد قال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أجتهد فأخطأ فله أجر واحد»(٢) .

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت ـ وقت الصلاة ـ توجيهًا لهذا النهي الخاص عن النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها.

وقد علق الحافظ بن حجر على هذه القصة فقال: ثم الإستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني عن النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي عن غير حقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه ﷺ لم يعنف أحد من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم.

الرابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ ـ جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت كما يلي،

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص٢٢٦ .

(٢) أحمد (٢/ ١٨٧) وابو داود (٣٥٥٧).

(٣) فتح البارى (٧/٤٧٣) .

من السيوف ألفا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفا وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عدداً كبيراً من الشياة والإبل وأثاثًا كثيرًا وأبنية كثيرة، ووجد المسلمون دنانًا من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح، والأثاث وغيرها من المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهمًا واحدًا له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقررفي كتابه تعالى.

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئًا، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطي سهمه لورثته ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني قريظة، كما رضخ رسول الله ﷺ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

وأما عبارة وأرضا لم تطأوها فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وأن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبنى قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليها أصحابها وهذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحًا وخيلاً، ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعيد بن زيد، فباع سبيا واشترى سلاحًا .

٣ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السبى ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة

قد أراد الرسول ﷺ أن يتزوجها بعد أن تسلم، فترددت، وبقيت وقتًا على دينها، ثم شرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، فبعثها إلى بيت أم منذر بنت قيس حتى حاضت ثم طهرت، فجاءها وخيرها: أيعتقها ويتزوجها أوتكون في ملكه ﷺ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها.

الخامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادي، فقالوا قصائد أربعة وضحوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب نقطف منها أبياتًا منها كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن مالك: أخو بني سلمة:

وسائلة تسائل مالقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرين
صبرنا لا نرى لله عدلاً ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلوا البرية أجمعينا
نقاتل معشرًا ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا
نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينا
ترانا في فضافض سابغات ... كغدران الملا متسربلينا

إلي أن قال:

لننصر أحمدًا والله، حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا
فإما تقتلوا سعدًا سفاها ... فإن الله خير القادرينًا
سيدخلـــه جنانا طيبات ... تكون مقامة للصالحين
كما قد ردكم فلا شريدا ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرا ... وكدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم ... فكنتم تحتها متكمهينا *

* العمى الذين لا يبصرون.

وقال كعب بن مالك في قصيدة طويلة يرد فيها على عبد الله بن الزبعري:

ومواعظ من ربنا نهدي بها بلسان أزهر طيب الأثواب
عرضت علينا فاشتهينا ذكرها من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكمًا يراها المجرمون بزعمهم حرجًا ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

قال ابن هشام: حدثني من أثق به، قال حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، قال: لما قال كعب بن مالك:

جاءت سخية كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ: «**لقد شكرت الله يا كعب على قولك هذا**»(١) (٢).

---

(١) السير النبوية لابن هشام (١٨١).

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر ص٣٧٨ .

غزوة بني لحيان

في جماد الأولى من هذه السنة السادسة من هجرته (فداه أبي وأمي ونفسي) رأى ﷺ أن يطالب بدم أصحاب الرجيع الذين غدر بهم رجال لحيان وقتلوهم وهم: خبيب وأصحابه رضي الله عنهم فانتدب مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام ـ هي تورية فقط والحرب خدعة ـ فخرج برجاله عن الطريق المؤدي إلى ديار بني لحيان، فعمى على الأعداء، ثم عاد إلى الطريق القاصد، وذلك من أجل أن يصيب القوم غرة، وواصل سيره وأغده وبسرعة هائلة حتى نزل على غران وهي منازل بني لحيان، وغران هذا واد بين أمج وعسفان ممتد إلى بلد يقال له: ساية، فلما علموا بطلبه لهم حذروا فتمنعوا في رؤس الجبال، فلما نزل بديارهم ولم يلقهم ـ لتحصهنم برؤس الجبال ـ رأى أن يرهب قريشًا فيشعرهم بقدومه إلى قرب ديارهم طلبًا للغادرين من بني لحيان، ليكون ذلك ذا وقع في نفوسهم، وقد سبق له ﷺ أن صرح فقال: «اليوم نغزوهم ولا يغزوننا»(١) قالها بعد خيبة قريش في الخندق. فسار ﷺ برجاله وهم مائتا راكب كما تقدم حتى هبط عسفان، ثم بعث فوارس من رجاله على رأسهم أبي بكر الصديق حتى بلغوا كراع الغميم(٢). ثم كر وراح عليه الصلاة والسلام راجعًا وهو يقول: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدو. أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال»(٣)
وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعرًا هو:

لو أن بني لحيان كانوا تناظروا *
لقوا عصبًا ** في دارهم ذات مصدق
لقوا سرعانا يملأ السرب روعة
أمام طحون كالمجرة فيلق

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) موضع بالحجاز بين مكة والمدينة وهو إلى مكة أقرب .
(٣) مسلم (١٣٤٥) .
* انتظروا .
** جماعة .

ولكنهم كانوا وبارًا تتبعث
شعاب حجاز غير ذي متنفق (١)

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوردها كالتالي:

١ ـ مشروعية المعاقبة بالمثل بقتال وقتل من خان وغدر.

٢ ـ مشروعية التورية والتعمية على العدو ليصاب منه غرة.

٣ ـ مشروعية إرهاب العدو بالنزول بساحته وإظهار القوة له.

٤ ـ مشروعية قول: «أيبون تائبون لربنا حامدون». عند العودة من السفر الصالح.

٥ ـ مشروعية التعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.

---

(١) لا نفق يخرج منه .

غزوة الحديبية

كانت سنة ست في ذي القعدة (١) حيث خرج الرسول ﷺ إلى الحديبية حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيَ فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معه العوذ الطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوي يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة» (٢) .

ثم قال: من رجل يخرج بنا على غير طريقهم؟ فقال رجل من أسلم: أنا، فسلك بهم طريقا وعرًا أجرل (٣) ، بين الشعاب، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم وأفضوا إلى الأرض السهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا فقال رسول الله ﷺ والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها».

فأمر رسول الله ﷺ فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمص في طريق تخرج على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة» فسلك ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش قترة (٤) الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلات (٥) .

فقال: «ما خلآت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة للرحم إلا أعطيتهم إياه» ثم قال للناس: «انزلوا»، قيل يا رسول الله، ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج ﷺ سهمًا من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن(٦) .

---

(١) هذا هو الصحيح انظر زاد المعاد (٣/ ٢٨٦).

(٢) صفحة العتق وهى كناية عن الموت .

(٣) أى صلب غليظ .

(٤) الغبار .

(٥) حزنت وبركت من غير علة .

(٦) أى : أنا خوا حول الماء بعد السقى .

فلما اطمئن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء زائرًا للبيت، ومعظمًا لحرمته، ثم قال لهم نحو مما قال بشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال إنما جاء زائرًا لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم، وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالاً فو الله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا تحدث بذلك عنا العرب، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر» فلما انتهى إليه وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن ذبَّان ، أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه» فلما رأى الهدي يسيل عليه عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ اعظامًا لما رأى؛ فقال لهم ذلك فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك: فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر القوم والله ما على هذا حالفنكم وما على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظمًا له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفت أنكم والد وإنى ولد، وكان لسبيعة بنت عبد شمس، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم؟! إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل * قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، وآيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك، فرد عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال: أنحن ننكشف عنه ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذا فعل ذلك، ويقول: اكفف يدك عن

---

* العوذ المفاضيل : النون ذوات اللبن معها أولادها ، وهى كناية عن النساء معها الأطفال .

وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك. فتبسم رسول الله ﷺ، فقال من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر هل غسلت سؤتك إلا بالأمس؟! يريد أن المغيرة بن شعبة، كان قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من ثقيف فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاثة عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.

وكلم رسول الله ﷺ عروة بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا، فقام من عنده وقدر رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال يا معشر قريش؛ إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا فروا رأيكم.

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي فحمله على بعير له، وبعثه إلى قريش ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به الجمل وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

وبعثت قريش أربعين رجلاً، أو خمسين، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، فأخذوا أخذًا، فأتى بهم رسول الله ﷺ فخلى سبيلهم ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريش على نفسى ، وليس بمكة من بني عدي كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظم لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان ابن سعيد ابن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجازه.

وقال له فيما ذكره غير ابن إسحاق:

أقبل وأدبر ولا تخف أحدًا بنو سعيد أعزةَ الحرم

فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا له حين فرغ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال حين بلغه ذلك: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون: بايعهم على الموت وكان جابر يقول: بايعنا على ألا نفر.

فبلغ رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس لصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس.

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل، وقد كان رسول الله ﷺ بايع لعثمان ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه يد عثمان.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، وقالوا: أبت محمدًا فصالحه، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فو الله، لا يتحدث عنا العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

فأتى سيهل فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «قد أراد القوم الصلح حيث بعثوا إلينا هذا الرجل».

فلما انتهى إليه سهيل تكلم، فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهم الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتي أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال : أو لسنا بالمسلمين : قال بلى قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا! قال أبو بكر: يا عمر إلزم غرزه. فإني اشهد أنه رسول الله قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألستَ برسول الله؟ قال: «بلى» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى» وقال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره فيضيعني» فكان عمر يقول فما زلت أتصدق وأصوم وأصلي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أنه يكون خيرًا.

ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا: ولكن أكتب: باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ : «أكتب باسمك اللهم»، فكتبها ثم قال: أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ :

«أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة * .

وإنه لا إسلال ولا إغلال ** .

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده ودخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

وأنك ترجع عن عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثًا معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذا جاء أبو جندل بن عمرو يرسف في الحديد قد انقلب إلى رسول الله ﷺ .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا من الصلح، والرجوع، وما يحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه دخل الناس من ذلك أمرعظيم حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ثم قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أراد إلى المشركين

* العيبة : موضع السر . ومكفوفة : مطوية .

** الإسلال : السرقة الخفية . والإغلال : الخيانة .

يفتنوني في ديني؟! فزاد الناس ذلك إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل أصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدرهم. فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب!.

ويُدنى قائم السيف منه يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما فرغ من الكتاب أشهد رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعبد بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد ابن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص وهو مشرك، وعلى بن أبي طالب وهو كان كاتب الصحيفة.

وكان رسول الله ﷺ مضطربًا * في الحل وكان يصلي في الحرم ، فلما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه، وأهدى عامئذ في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برق من فضة ليغيظ بذلك المشركين، فلما رآه المسلمين قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون، وكان فيهم يومئذ من قصر فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فقالوا يا رسول الله؟ فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟

قال: «لم يشكوا».

ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١-٢] ثم ذكر القصة فيه وفي أصحابه، حتى إذا انتهى إلى ذكر البيعة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

---

* مضطربًا : أى أقام خيامه فى الحل .

ثم ذكر من تخلف عنهم من الأعراب فاستوفى قصتهم ثم قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ١٨-٢٤].

يعني الذين وجهت قريش بهم، ليصيبوا من أصحاب رسول الله ﷺ أحدًا، فلم ينالوا شيئًا، وأخذوا لرسول الله بجملتهم، وسيقوا إليه فحل سبيلهم ثم قال بعد: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] يعني سهيل بن عمرو حين خمس أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم وأن محمدًا رسول الله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] أي: التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ثم قال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ [الفتح: ٢٧]. أي: لرؤيا رسول الله ﷺ التي رأى أنه سيدخل مكة آمنًا لا يخاف وقد قال لرسول الله ﷺ لما قدم المدينة بعض من كان معه: ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمنًا؟ قال «بلى، فقلت من عامي هذا؟» فقالوا: لا، قال: «فهو كما قال لي جبريل» فحقق له سبحانه وتعالى ما وعده ما أنجزه له بعد وصدقه بقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] معه ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ صلح الحديبية.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن «كلهم» بعضهم بعضًا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

قال ابن هشام: والدليل على ما قال الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في

ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

وذكر ابن عقبة أنه لما كان صلح الحديبية قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت وصد هدينا: فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح * عند بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح ، أتنسون يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟!

أنسيتم يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] فقال المسلمون: صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا.

وفي الصحيح(١) من حديث سهل بن حنيف أنه قال يوم حنين: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، فلقد رأيتنى يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أراد أمر رسول الله ﷺ لرددته، والله ورسوله أعلم.

وخرج البخاري(٢) من حديث البراء بن عازب قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحدبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فوضأ ثم مضمض ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركائبنا.

وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه، فقالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا لنشرب إلا في ركوتك، قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل

---

(١) البخاري (٣١٨٢) مسلم (١٧٨٥).

(٢) البخاري (٤١٥٠).

* الأكف ، أى بدلاً من السلاح .

الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة(١) .

وذكر ابن عقبة عن ابن عباس قال: لما رسول الله ﷺ من الحديبية كلمه بعض أصحابه فقالوا: جهدنا وفي الناس ظهر فأبخره لنا فلنأكل من لحومه ولنذهب من شحومه ولنحتذ من جلوده، فقال عمر: لا تفعل يا رسول الله فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثل، فقال يا رسول الله ﷺ: «ابسطوا أنطاعكم وعبائكم». ففعلوا، ثم قال: «من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره» ودعا لهم، ثم قال لهم: «قربوا أو عيتكم» فأخذوا ما شاءوا.

قال ابن إسحاق: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة يعني من الحديبية، أتاه أبو بصير عتبة ابن أسيد بن جازية وكان ممن حبس بمكة، فكتب فيه أزهر بن عبد عوف، والأخنس بن شريق إلى رسول الله ﷺ، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لوئ، ومعه مولى لهم، فقدما على رسول الله ﷺ بالكتاب فقال ﷺ يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا.

فانطلق معهما حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخي بني عامر؟ فقال: نعم، قال: انظر إليه قال: إن شئت فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله.

وذكر ابن عقبة بأن الرجل هو الذي سل سيفه ثم هزه فقال: لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يومًا إلى الليل، فقال له أبو بصير: وصارم سيفك هذا؟ فقال: نعم، فقال ناولنيه أنظر إليه، فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به حتى برد، قال: ويقال بل تناول أبو بصير سيف الرجل بفية، وهو نائم فقطع إساره ثم ضربه به حتى برد، وطلب الآخر، فجمز*. مرعوبًا، مستخفيًا حتى دخل المسجد، ورسول الله ﷺ فيه يطن **الحصباء من شدة سعيه، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا».

قال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: «ويحك مالك»؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي.

---

(١) البخاري (٤١٥٢).

* أسرع . ** يطير .

فو الله مابرح حتى طلع أبو بصير متوحشًا السيف فقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: «ويله محش حرب لو كان مع رجال»(١) .

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون إلى الشام وبلغ المسلمين الذين كانوا احتسبوا بمكة قول رسول الله لأبي بصير: «ويله محش حرب لو كان معه رجال» فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم.

وذكر موسى بن عقبة أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو الذي رد على قريش مكرهًا يوم القضية هو الذي انفلت في سبعين راكبًا من الذين اسلموا وهاجروا فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا الثواء ! بين أظهر قومهم ، فنزلوا مع أبى بصير فى منزل كربه إلى قريش فقطعوا مادتهم من طريق الشام قال وكان أبو بصير زعموا وهو في مكانه ذلك يصلي لأصحابه فلما قدم عليهم أبو جندل كان هو يؤمهم.

واجتمع إلى أبي جندل وناس من غفار، وأسلم، وجهينة، وطوائف من العرب حتى يلقوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون، فأقاموا مع أبي جندل وأبي بصير، لا يمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها، وقال في ذلك أبو جندل فيما ذكره غير ابن عقبة:

أبلغ قريشًا عن أبي جندل … أنا بذي المروة بالساحل
في معشر تخفق أيمانهم … بالبيض فيها والقنا الذابل
يأبون أن يبقى لهم رفقة … من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجًا … والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه … أو يقتل المرء ولم يأتل

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وإلى أبي جندل بن سهيل ومن معهم فيقدموا عليه وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه فى غير حرج، فإن هؤلاء الركاب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراراه فلما كان ذلك من أمرهم علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه فى بعد القضية أن طاعة رسول الله ﷺ خير فيما أحبوه وفيما كرهوا، وأن رأيه أفضل من رأيهم ومن رأى من ظن أن له قوة ورأيًا، وعلم أن ما خص الله به نبيه من العون والكرامة

(١) البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

أفضل.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل، وأبي بصير يأمرهم أن يرجعوا إلى بلادهم، وأهليهم، ولا يعرضوا لمن مر بهم من قريش وعِيرها، فقدم كتاب رسول الله ﷺ، زعموا على أبي جندل، وأبي بصير، وأبو بصير يموت فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرأه فدفنه أبو جندل، مكانه وجعل عند قبره مسجداً.

وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ معه أناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات قريش.

فلم يزل أبو جندل مع رسول الله ﷺ وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذلك شهد الفتح، ورجع مع رسول الله ﷺ فلم ينزل معه بالمدينة حتى توفي صلوات الله عليه وسلامه وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فمكث بها أشهر ثم خرج مجاهداً إلى الشام وخرج معه ابنه أبو جندل فلم يزالا مجاهدين حتى ماتا هناك يرحمهما الله.

وهاجرت إلى رسول الله ﷺ في تلك المدة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها عمارة، والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل، أبى الله ذلك وأنزل فيه على رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠][١].

---

(١) الإكتفاء (٢/ ٢٣٣ ـ ٢٥٠).

بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية

١ ـ قال ابن القيم منها: اعتمار النبي ﷺ في أشهر الحج، فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل، كما أن الإحرام بالحج كذلك، فإنه أحرم بهما من ذي الحليفة، وبينها وبين المدينة ميل أو نحوه، أما حديث «من أحرم بعمرة من بيت المقدس، غفر ما تقدم له من ذنبه وما تأخر» وفي لفظ: «كانت كفارة لما قبلها من الذنوب» (١).

فحديث لايثبت، وقد إضطرب فيه إنسادًا ومتنا شديدًا.

ومنها: أن سوق الهدي مسنون في العمرة المفردة كما هو مسنون في القرآن.

ومنها: أن إشعار الهدي سنة لا مثله منهي عنها.

ومنها: إستحباب مغايظة أعداء الله، فإن النبي ﷺ أهدى في جملة هديه جملاً لأبي جهل في أنفه بره من فضة يغيظ به المشركين، وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو.

ومنها: أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عيينة الخزاعي كان كافرًا إذا ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو، وأخذه أخبارهم.

ومنها: إستحبابه مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأي، واستطابة لنفوسهم، وأمنًا لعتبهم، وتعرفًا لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض وامتثالاً لأمر الرب في قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد مدح سبحانه وتعالى

(١) ضعيف رواه أبو داود (١٧٤١) وابن ماجه(٣٠٠١ ، ٣٠٠٢) وضعفه الألبانى فى الضعيفة (٢١١).

عباده بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨].

ومنها: جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف، فإنهم لما قالوا: خلأت القصواء، يعني حرنت وألحت فلم تسر والخلاء في الإبل بكسر الخاء والمد، نظير الحران في الخيل، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس فيه خلقها وطبعها، رده عليهم وقال: «ما خلأت وما ذلك لها بخلق» ثم أخبره ﷺ عن سب بروكها وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسمية ما يلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سنه.

ومنها: جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الدينى الذي يريد تأكيده، وقد حفظ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبره به في ثلاثة مواضع: في «سورة يونس» «وسورة سبأ»، و«سورة التغابن».

ومنها: أن المشركين وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمر يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون علي ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له، أجيب إلى ذلك كائنا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النقوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق، وقال عمر ما قال، حتى عمل له أعمالاً بعده، والصديق تلقاه بالرضى والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ، وأجاب عمر كما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ وذلك يدل على أن الصديق رضي الله تعالى عنه أفضل الصحابة وأكملهم وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمهم بدينه، وأقومهم بمحابه، وأشدهم موافقة له، ولذلك لم يسأل عمر عما عرض له إلا رسول الله ﷺ وصديقه خاصة دون سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عدل ذات اليمين إلى الحديبية. قال الشافعي: بعضها من الحل، وبعضها من الحرم.

وروي الإمام أحمد في هذه القصة أن النبي ﷺ كان يصلي في الحرم، وهو مضطرب

في الحل[١]، وفي هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذي هو مكان الطواف، وأن قوله: «صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي»[٢] كقوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة:٢٨] وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] وكان الإسراء من بيت أم هانئ.

ومنها: أن من نزل قريبًا من مكة، فإنه ينبغي له أن ينزل في الحل، ويصلي في الحرم، وكذلك كان ابن عمر يصنع.

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه، وهو قاعد، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي ﷺ بقوله: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[٣].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، وفي بعث البدن في وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء» دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم، وأنه لا يملك، بل يرد عليه، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم، ولا ذب عنها، ولا ضمنها لهم، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة، وفي قول الصديق لعروة: أمصص بظر اللات، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها

---

(١) أحمد (٤/ ٣٢٦) ورجاله ثقات.
(٢) البخاري (١١٩٠) عن أبي هريرة.
(٣) رواه أبو داود (٥٢٢٩) أحمد (٤/٩١) والترمذي (٢٦٢٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٥٧).

تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يصرح لمن أدعى دعوى الجاهلية بهن أبيه، اعضض أيد أبيك، ولا يكني له، فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله وجفوته، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يقابل النبي ﷺ عروة على أخذه بلحيته وقت خطابه، وإن كانت تلك العادة لعرب، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك.

وكذلك لم يقابل رسول الله ﷺ مسيلمة حين قال: نشهد أنه رسول الله، وقال: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما»(١).

ومنها: طهارة النخامة، سواء كانت من رأس أو صدر.

ومنها: طهارة الماء المستعمل.

ومنها: استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطيرة المكروهة، لقوله لما جاء سهيل: «سهل أمركم».

ومنها: أن المشهود عليه إذا عرف باسمه واسم أبيه أغنى ذلك عن ذكر الجد، لأن النبي ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وقنع من سهيل اسمه واسم أبيه خاصة، واشترط ذكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العداء بن خالد منه ﷺ الغلام فكتب له: «هذا ما اشترى العداء ابن خالد بن هوذة»(٢) فذكر جده، فهو زيادة بيان تدل على أنه جائز لا بأس به، ولا تدل على اشتراطه، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكتفي باسمه، واسم أبيه ذكر جده، فيشترط ذكر الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدم الاشتراك، اكتفى بذكر الاسم واسم الأب، والله أعلم.

ومنها: أن من حلف على فعل شيء، أو نذره، أو وعد غيره به، ولم يُعين وقتًا، لا بلفظة ولا بنيته، لم يكن على الفور، بل على التراخي.

ومنها: أن الحلق نسك، وأنه أفضل من التقصير وأنه نسك في العمرة، كما هو نسك في الحج وأنه نسك في عمرة المحصور، كما هو نسك في عمرة غيره.

---

(١) أحمد (٤/ ٤٨٧، ٤٨٨) وأبو داود (٢٧٦١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٣٩، ٢٤٠٠).

(٢) رواه الترمذي (١٢١٦) وابن ماجه (٢٢٥١) وحسنه الألباني في المشكاة (٢٨٧٢).

ومنها: أن المحصور ينحر هديه حيث أحضر من الحل أو الحرم، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرم إذ لم يصل إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضع الذي نحر فيه الهدي، كان من الحل لا من الحرم، لأن الحرم كله محل الهدي.

ومنها: أن المحصر لا يجب عليه القضاء، لأنه ﷺ أمرهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحدًا فيهم بالقضاء، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة، ولا قضاء عن عمرة الإحصار فإنهم كانوا في عمرة الإحصار ألفا وأربعمائة، وكانوا في عمرة القضاء دون ذلك، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء، لأنها العمرة التي قاضاهم عليها، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلق على الفور والإلم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يرجون النسخ، فأخروا متأولين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يعتذره عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لوفهم منهم ذلك، لم يشتد غضبه لتأخيره أمره، ويقول: «ما لي لا أغضب وأن آمر بالأمر فلا أتبع» وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله تعالى عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة.

ومنها: أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام إلا ما خصه الدليل، ولذلك قالت أم سلمة: «اخرج ولا تكلم أحد حتى تحلق رأسك وتنحر هديك»، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداء بفعله، ولم يمتثلوه حيث أمرهم به، قيل: هذا هو السبب الذي لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعًا في النسخ، فلما فعل النبي ﷺ علموا حينئذ أنه حكم مستقر غير منسوخ وقد تقدم فساد هذا الظن. ولكن لما تغيظ عليهم وخرج ولم يكلمهم، وأراهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به، بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره.

ومنها: جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلمين، وألا يرد من ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النساء، وأما النساء ، فلا يجوز اشتراط ردهن إلى الكفار،

وهذا موضع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

ومنها: أن خروج البضع من ملك الزوج متقون ، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى رد المهر على من هاجرت امرأته، وحيل بينه وبينها، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم رد مهور من هاجر إليهم من أزواجهم، وأخبر أن ذلك حكمه الذي حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شيء، وفي إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على تقومه بالمسمى، لا بمهر المثل.

ومنها: أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلمًا إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام، لا يجب عليه رده بدون الطلب، فإن النبي ﷺ لم يرد أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاؤوا في طلبه، مكنهم من أخذه ولم يكرهه على الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحدًا منهم لم يضمنه بدية ولا قود، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه في حكم قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذي الحليفة، وهي من حكم المدينة، ولكن كان قد تسلموه، وفصل عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام فخرجت منهم طائفة. فحاربتهم. وغنمت أموالهم، ولم يتحيزوا إلى الإمام دفعهم عنهم، ومنعهم منهم، وسواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه، أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهدًا بين أبي بصير وأصحابه منهم، وعلى هذا فإن كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد، جاز لملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم، ويغنم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتى به شيخ الإسلام في نصارى ملطية وسبيهم، مستدلاً بقصة أبي بصير مع المشركين.

ومن الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة:

وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها ، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

فمنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذنًا بين يديه وهذه عادة الله سبحانه وتعالى في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا، أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تؤذن بها، وتدل عليها.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا، وإختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا اسماه الله فتحًا مبينًا. قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاء عظيمًا، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح ـ في اللغة ـ فتح المغلق، والصلح الذي وحصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ﷺ وأصّحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفي الباطن عزًا وفتحًا ونصرًا، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم، والعز، والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط، التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورؤسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب

فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون، ونصبوه لحربهم وهم لا يشعرون، فذلوا من حيث طَلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفضل والغلبة، وعز رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث إنكسروا لله، واحتلموا الضيم له وفيه فدار الدور، وانعكس الأمر، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق، وانقلبت الكسرة لله عزًا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإذعان والإدهان، والإنقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضى بقضاء الله، وتصديق موعوده، وانتظار ما وعدوا به، وشهود منه الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم، أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم، وقويت به نفوسهم، وازدادوا به إيمانًا.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لإتمام نعمته عليه، ولهدايته الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيه من الضيم، وإعطاءه ما سألوه كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية ، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند هكمه تعالى، وفتحه.

وتأمل كيف وصف سبحانه وتعالى النصر بأنه عزيز فى هذا الموطن، ثم ذكر إنزال السكينه في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب، وقلقت اشد القلق، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بها إيمانًا إلى إيمانهم، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسوله ونبيه فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعته بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده، ثم أخبر أن ناكث البيعة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للموفي بها أجرًا عظيمًا فكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسول الله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث وموف.

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظن بالله: أنه يخذل رسوله وأولياءه وجنده، ويظفر بهم عدوهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه ومولاه.

ثم أخبره سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينة والطمأنينة، والرضى في قلوبهم وأثابهم على الرضا بحكمه، والصبر لأمره فتحًا قريبًا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر، ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر.

ووعدهم سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها وأخبرهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان:

أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم.

والثاني: أنها فتح خيبر وغنائمها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠] فقيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدي اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم، وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها، وأسد وغطفان، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينهم كالشامة فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشدة عداوتهم وتولي حراستهم، وحفظهم في مشهدهم ومغيبهم وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين وعلامة على ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة، وفتوحًا عظيمة، فجعل لهم فتح خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاء لصبرهم، ورضاهم يوم الحديبية وشكرانًا، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية. ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠] فجمع لهم النصر والظفر والغنائم الهداية، فجعلهم مهديين منصورين غانمين، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحًا أخرى، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هي مكة وقيل: هي فارس والروم. وقيل: الفتوح التي بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لو قاتلوا أولياءه لولى الكفار الأدبار غير منصورين، وأن هذه سنته في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنته. فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد، وانتصروا عليهم، ولم يولوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافي للتقوى فصرفهم عن عدوهم ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ـ أنه هو الذي كف أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر

المؤمنين بهم، لما له من ذلك من الحكم البالغة التي منها: أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا وهم يكتمون إيمانهم، لم يعلم به المسلمون، فلو سلطكم عليهم، فأصبتم أولئك بمعرة الجيش وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم، لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم لعذب أعداءه عذابًا أليمًا في الدنيا، إما بالقتل والأسر، وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم كما كان يدفع عنهم عذاب الإستئصال، ورسوله بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عما جعله الكفار في قلوبهم من حمية الجاهلية التي مصدرها الجاهلية. والظلم، التي لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته ، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم ولم يُقروا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه، وتقينهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التي بقدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى، وهي جنس يعم كل كلمة يتقي الله بها، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص، وقد فسرت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أولياءه وحزبه، وإنما حرمها أعداءه صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها من هو أحق بها وأهلها، فوضعها في موضعها، ولم يضيعها بوضعها فى غير أهلها، وهو العليم بمجال تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه وتعالى، أنه صدق رسوله رؤياه في دخلوهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولابد، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه وتعالى عليم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحًا قريبًا وتمهيدًا.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض.

ففى هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لابد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية مفرة لعدوه ولا تخليا عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعده أن يُظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر حفاوتهم في التوراة والإنجيل، فكان فى هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن.

وأن هؤلاء هم المذكورن في الكتب المقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعدلهم وعلمهم، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة ففضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾(١) [الكهف:١٧]

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٠ ـ ٣١٥).

غزوة ذي قرد

سبب هذه الغزوة:

إن لهذه الغزوة ـ كما لغيرها ـ سببًا اقتضاها، وهو أن عيينة بن حصن الفزاري وهو ذاك الذي قاد قبائل غطفان لحرب رسول الله ﷺ بالمدينة مع الأحزاب، هذا الحسود الحاقد أغار في خيل له من رجاله على سرح المدينة وهي لقاح للنبي ﷺ تبلغ عشرين لقحة.

وهي الإبل ذوات الألبان، فاستاقوا الإبل وقتلوا الراعي وأخذوا امرأته.

أول من علم بالغارة:

وكان أول من علم بهذه الغارة سلمة بن الأكوع السلمي رضي الله عنه إذ خرج يريد الغابة فلما علا ثنية الوداع شاهد خيل عيينة من بعد فعلا على جبل سلع وصاح: واصبحاه! واصبحاه!! وهي صيحة الإنذار في ذلك الزمن ، ثم جرى وراء الخيل الغاربة يطاردهم ويرميهم بالنبل وهم يخلون عن اللقاح ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخففًا حتى افتل: منهم أكثر اللقاح وتركها وراءه وما زال يطاردهم حتى وصلت خيل النبي ﷺ ، إذ كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ بعد صحية سلمة من الفرسان المقداد بن عمرو الكندي، ثم تتابعوا وقال الرسول ﷺ لأول مرة: «يا خيل الله إركبي».

واستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وسار بالناس، وقدم الخيل وأمر عليهم سعد بن زيد، وقال له اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس، وسارت الخيل فكان أول فارس وصل إلى المغيرين هو محرز بن فضلة الملقب بالأخرم، فلما انتهي إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بني الكليعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه رجل من العدو فقتله، وجال الفرس في الميدان، ولم يقدر عليه، وعاد إلى المدينة حتى وقف على آربة، وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة رجلاً من المغيرين يقال له: حبيب بن عيينة وغطاه ببرده، وتقدم يطارد القوم. فلما وصل الناس إليه ظنوا أن القتيل أبو قتادة لوجود بردة على القتيل استرجعوا أن قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال لهم الرسول ﷺ : «ليس بأبي قتادة ، ولكنه قتيل أبي قتادة وضع عليه برده ليعرف أنه قتيله».

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارًا وإبنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فقتلهما معًا.

وسار رسول الله ﷺ والناس معه حى نزلوا بجبل بذي قردة، وتلاحق به الناس فأقام يومًا وليلة، وقال له سلمة بن الأكوع الذي كان يرمي القوم ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع

اليوم يوم الرضع

قال: رسول الله، لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرج، وأخذت بأعناق القوم، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم الآن ليغبقون * في غطفان».

بمعنى أنك لا تدركهم لأنهم وصلوا إلى ديارهم وهم يتناولون طعام العشاء. ونحر لهم رسول الله بعيرين طعموهما، ثم ارتحلوا إلى المدينة النبوية، وجاءت امرأة الغفاري الذي قتل يوم ساق رجال عيينة اللقاح، وقتلوا زوجها فأخبر النبي ﷺ إنها نذرت أن تنحر الناقة التي تركبها إن نجاها الله تعالى عليها، فقال رسول الله ﷺ - وقد تبسم -: «بئس ما جزيتها إن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها. إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فإرجعي إلى أهلك على بركة الله»(١) (٢)

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها مع الأرقام التالية الآتية:

١ ـ بيان تسمية هذه الغزوة بغزوة ذي قرد، وذلك لأن الماء الذي نزل به رسول الله ﷺ يقال له ماء ذي قردة.

٢ ـ بيان فضل سلمة بن الأكوع وأبي قتادة لقول رسول الله ﷺ «خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالنا سلمة بن الأكوع».

٣ ـ تأكد عداوة عيينة بن حصن وبيان خبثه.

٤ ـ تقرير بطولة سلمة بن الأكوع وشجاعته.

٥ ـ بطلان نذر المعصية، ونذر ما لا يملك.

٦ ـ حلم رسول الله ﷺ وكرمه وحسن سياسته، وكما ل أدبه ﷺ .

---

(١) مسلم (١٨٠٧). * أى يسقون اللبن بالعيش .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٨٣).

غزوة خيبر

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق[١] أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي[٢] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة من الهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد[٣] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في محرم من السنة السادسة، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الخلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك، وقد رجح ابن حجر قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

لم يظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافيًا لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئى مثله في حي من الناس في زمانهم.

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[٤] .

وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافيًا في جرها إلى الصراع والتصدي والإنتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم، وهكذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقًا .
(٢) المغازي (٢/ ٦٣٤).
(٣) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٠٦).
(٤) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).

أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.

تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح: ١٨ـ٢١].

ثانيًا: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «أيها الناس... إنكم تدعون سميعًا قريبا وهو معكم»[(١)]

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً[(٢)] وكان عامرز بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك[(٣)] ما اتقينا ... وثبت قدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله».

---

(١) البخاري (٦٣٨٤).
(٢) البخاري (٤١٩٦).
(٣) البخاري (٤١٩٦).

قال رجل ـ وهو عمر بن الخطاب ـ من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا متعتنا به[١] .

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء ـ وهي أدنى خيبر ـ صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ.

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر رضي الله عنه في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينا لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهودة ابن قيس ساروا في خلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأني يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه به ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود. . . وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، وأحرزهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوي به، ثم ألق إليهم كثيرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم[٢] .

وعندما سار جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قفوا. ثم قال: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا ونعوذ باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها[٣] .

ولما أدرك رسول الله ﷺ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا

---

(١) البخاري (٤١٩٦).

(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٦١٠ ـ ٦٤١).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٠٠) وقال حديث صحيح الإسناد وأخرجه الذهبي.

مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان.

ولما أصبح أخرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إذا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[١] .

ثالثًا: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحد تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن بن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم.

وقد الوجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منهم حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقي عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[٢] ، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندها جهد الناس، قال رسول الله ﷺ إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا على بن أبي طالب رضي الله عنه ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه[٣]، وكان على يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينه ودعا له، فبريء[٤] ولقد أوصى الرسول ﷺ عليًا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فو الله لأن يهدي بك رجلاً واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم»[٥]وعندما سأله على: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا

---

(١) البخاري (٣٧١) مسلم (١٣٦٥) .
(٢) الواقدي (٢/ ٦٥٧).
(٣) المستدرك (٣/ ٣٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٤) مسلم (٢٤٠٦).
(٥) مسلم (٢٤٠٤، ٢٤٠٥).

رسول الله،فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(١).

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطله مرحب، وكان سببًا في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله، مما أثر سلبيًا في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن علي رضي الله عنه تترس بباب عظيم كان عند حصن ناعم بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة(٢) ، وعدم الاعتقاد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير.

توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم والصعب وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشق وبدأوا بحصن أبي، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتله إلى حصن نزار وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا بقية الحصن وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القموص المنيع وحصن الوطيح وحصن السلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح(٣) .

وهكذا فتحت خيبر عنوة ، واستنادًا في النظر إلى مجريات الأحداث التي سقناها، وما روي البخاري ومسلم (٤) ، وأبو داود من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

وبذلك سقط سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح وأن يسيرهم ويحقن دماءهم وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم(٥) فكانت فدك

(١) مسلم (٢٤٠٥).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٤).

(٣) المغازي للواقدي (٢/ ٦٥٨ - ٦٧١).

(٤) البخارى (٣٧١) مسلم (١٣٦٥) .

(٥) المرجع السابق (٢/ ٦٩٩).

خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي ثم استسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى[١] وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت النساء والذراري، منهم صفية بنت حيي بن أخطب فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها[٢] واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[٣] ، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[٤] .

رابعًا: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار:

١ ـ الأعرابي الشهيد:

جاء رجل من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، فآمن به واتبعه. فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا وقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما على هذا أتبعك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك، ثم نهض إلى قتال العدو، فأتي به إلى النبي ﷺ، وهو مقتول، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.

قال: «صدق الله فصدقه»[٥] .

فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه فصلى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد».

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).
(٢) مسلم (٢/ ١٠٤٥).
(٣) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٧).
(٤) المغازي للواقدي (٢/ ٧٠٠).
(٥) النسائي (٤/ ٦٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١) والحاكم (٣/ ٥٩٥) وإسناده صحيح وانظر زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

٢ ـ الراعي الأسود:

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعوا إليه؟ قال: «أدعوا إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وألا تعبد إلا الله»،قال العبد: فمالي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله: إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل ـ فيمن قتل ـ العبد الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط»(١) .

٣ ـ بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار» فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبدًا، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك؟» فأخبره. فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة»(٢) .

خامسًا: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(٢) البخاري (٤٢٠٢، ٤٢٠٧).

فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفنتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد وافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنتين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعًا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر(١) .

لقد مكث جفعر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عامًا، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كله ـ أقل قدرًا من غيرهم.

فعن أبي موسى: . . . كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة ـ وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء: ابنة عميس: قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت: أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأساله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي ﷺ قالت: كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم ـ أهل السفينة ـ هجرتان»(٢) . فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا كما قالت: يأتوني أرسالاً يسالونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي ﷺ .

---

(١) البخاري (٤٢٣٠، ٤٢٣١).

(٢) البخاري (٤٢٣١) مسلم (٢٥٠٢ ، ٢٥٠٣) .

وقد أشركهم النبي ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رضي الله عنهم الذين شاركوا في فتحها.

سادسًا: تقسيم الغنائم:

١ - كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك: ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ الغنائم تتكون من:

أ - الطعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر ، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها.

ب - الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم، لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسها ووضعه في ما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج - السبى: لقد سبي رسول الله ﷺ كثير من نساء اليهود، ووزع السبى على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د - أما الأراضي والنخيل فقد قسمها النبي إلى ستة وثلاثين سهمًا، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين.

هـ - وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها، فأمر بتسليمها إليهم ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم ولاما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة.

وقد أبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن هم بإخراجهم منها(١) .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسة جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة وأنهم لن يأخذوا أجرًا، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قل أو كثر.

وقد ضمن الرسول بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون إخضاعهم وكسر شوكتهم، لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئًا يضر بالمسلمين يطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبدًا.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر فقدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهيل فقتلوه فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب وغيبوا مسكا لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة،وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله ﷺ سعية عم حيي بن أخطب أين مسك حيي بن أخطب؟

قال: أذهبته الحروب والنفقات (١) .

فقال رسول الله ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك. فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام، فمسه بعذاب، وكان قبل ذلك قد دخل حيي خربة، فقال عمه: قد رأيت حييا يطوف في خربة ها هنا: فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة، وبعد الإتفاق الذي تم بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصطلاح الأرض جعل رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى، ولأنتم أبغض الناس إلى من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذه قامت السموات والأرض (٢) .

لقد أصبحت خيبر ملكًا للمسلمين وصارت موردًا مهمًا لهم قال ابن عمر رضي الله

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٢٦).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى المغازى ص٤٢٤ .

عنه: ما شبعنا حتى فتحت خيبر[١] ، وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار من النخل.

سابعًا: زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص ـ حَصن بني أبي الحقيق ـ كانت صفية في السبي فأعطاها دحية الكلبي فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أعطيتَ دحية صفية بنت حيى سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية خذ جارية من السبى غيرها، ثم أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها ثم تزوجها بعد أن طُهرت من حيضتها وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك، فمشطتها أم سليم، وعطرتها ، وزفتها إلى النبي ﷺ وبني بها، فسألها: «ما حملك على الإمتناع من النزول أولاً» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها، ودعا المسلمون، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلم ارتحل وطأ له خلفه ومد عليها الحجاب، فأيقنوا إنها إحدى أمهات المؤمنين.

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي رحمه الله بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة فقال: «يا صفية ما هذه الخضرة؟» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، تمنين ملك يثرب[٢] .

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسوله ﷺ، واعتقها من النار، وجعلها أما للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم النبيين والمرسلين، وقد

---

(١) البخاري (٤٢٤٣).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩/ ١٣٨).

أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام وكان يجلس عند بعيرة فيضع ركبتيه لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب.

وهذه صفية رضى الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقا من رسول الله ﷺ لقد رأيته ركب بي في خيبر وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي موخرة الرحل، فيمسني بيده ويقول: «يا هذه مهلاً» وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله من صفية، ونحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونا خيرًا مني، وزوجي محمد، وأبي هارون وعمي موسى»(١) .

لقد تأثرت صفية بأخلاق الرسول ﷺ وأصبح أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافى، وقد أخرج ابن سعد رحمه الله بإسناد حسن عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: اجتمع نساؤه في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: «مضمضن» فقلن: من أي شيء، فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»(٢) .

ومما له صلة بزواج لرسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق... فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب وخالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ، ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: «مالك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلَت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك(٣) ، فسر رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبيء على غاية

---

(١) انظر شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣).
(٢) المرجع السابق.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).

الحب، والإيمان وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني»[(١)]

وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعًا للغريزة كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها فقد قتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام، والإنضواء تحت لوائه، والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروي أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإن لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية، ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: إذهبي فأنت حرة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها[(٢)] .

ثامنًا: محاولة أثيمة لليهود: الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما فتحت خيبر: أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «**اجمعوا لي ما كان ها هنا من اليهود**»، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟**».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أبوكم؟**».

قالوا: أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتم بل أبوكم فلان**».

---

(١) السيرة النبوية لابن شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٣٨٥).

فقالوا: صدقت وبررت.

فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء، إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

قال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًا».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك[١].

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضعة، ولم يسغها، وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها[٢].

وفي المغازي لعروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله ﷺ، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التى أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي.

---

(١) البخاري (٣١٦٩).

(٢) البخارى (٤٢٤٩) وأبو داود (٤٥٠٩).

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: أردنا قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك على»، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم(١).

وقد اختلف في قتل المرأة والصحيح أنه لما مات بشر، قتلها ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قويًا جدًا إذ مات بشر بن البراء فورًا، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري * من ذلك السم»(٢).

تاسعًا: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاًوإن لي بها أهلاً، وإن أريد أن أكاتبهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك؟ وقلت شيئًا؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون سرورًا وفرحًا، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله عنه فعقر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجرزي عن مقسم قال: فأخذ ابنًا له يشبه رسول الله ﷺ يقال له قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حبي قثم، حبي قثم ... شبيه ذي الأنف الأشم
نبي رب ذي النعم ... برغم أنف من رغم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).
* عرض متبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٢) البخاري (٤٤٢٨).

تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لأتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجائه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحًا، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قاله الحجاج. فأعتقه. قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته(١) ، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي ﷺ فأذن لي، فأخف على يا أبا الفضل ثلاثًا، ثم اذكر ما شئت. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث ليال أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل؛ لا يخزينى الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن كانت لكي حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإنى صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لا يصبني خير إلا بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء ها هنا، ثم يذهب، قال فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبًا حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر وسر المسلمون، ورد الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين(٢) . وفي هذا الخبر فقه غزيز منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين، من الأذى والحزن، بمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولا سيما تكميل الفرح

(١) صحيح السيرة النبوية ص٤٥٩ .

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٧١) صحيح السيرة النبوية ص ٤٦٠ .

والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سببًا في حصول هذه المصلحة الراجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام كثيرة شرعية منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية [١].

٢ ـ حرمة وطء السبايا الحوامل:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره»[٢].

٣ ـ حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقضي على امرأة من السبى حتى يستبرئها»[٣].

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًا. لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت.

٤ ـ حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاص على خيبر فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: «كل تمر خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا»[٤].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣) والبخاري (٤٢١٥).
(٢) حسن الترمذي (١١٣١) والطبراني (٥/ ١٤) وحسنه الألباني في الإرواء (٢١٣٧).
(٣) انظر تخريج الحديث السابق وانظر صحيح الجامع (٦٥٠٧).
(٤) البخاري (٤٢٤٤).

فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعا بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وهذا محرم كما رأيت، إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر، لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا.

٥ ـ حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روى عن عبادة بن الصامت، أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين».

والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل؛ والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص؛ وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترك المماثلة، كما هو معلوم، وثابت في الصحاح.

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها[١] .

وقد تساءل بعض الباحثين لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التناول المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيرًا في يثرب.

٧ ـ حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل[٢] .

عن علي رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية[٣] .

---

(١) البخاري (٤٢٤٨).
(٢) البخاري (٤٢١٩).
(٣) البخاري (٤٢١٥).

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو السير إلى خيبر ـ فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال: على بركة الله. قالت: فخرجنا معه، قالت: فو الله لنزل رسول الله إلى الصبح ونزلت على حقيبة رحله، وإذا بها دم مني ـ وكانت أول حيضة حضتها ـ قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت. فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «مالك؟ لعلك نفست؟» قال: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فو الله لا تفارقني أبدًا[٢] وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت.

وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين.

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليمًا وتربية للأمة في السلم والحرب على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتيلهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥).

غزوة وادي القرى

عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر، فلما نغنم ذهبًا ولا ورقًا، إلا الثياب والمتاع، فوجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وقد أهدى إلى رسول الله ﷺ عبد أسود يقال له مدغم. حتى إذا كانوا بوادي القرى، بينما مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ، إذا جاء سهم فقتله فقال الناس: هنيئًا له الجنة فقال رسول الله ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشغل عليه نارًا»، فلما سمعوا بذلك، جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «شراك من نار أو قال: شراكان من نار». متفق[١] عليه.

وقال الواقدي[٢] : حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، وكان رفاعة ابن زيد الجذافي قد وهب لرسول الله ﷺ عبدًا يقال له مدعم فلما نزلنا بوادي القرى، انتهينا إلى يهود وقد ثوي إليها ناس من العرب، فبينما مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ، وقد استقبلنا يهود بالرمي حيث نزلنا، ولم نكن على تعبئة، فأصاب مدعم فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة. فقال النبي ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشغل عليه نارًا»[٣]، فلما سمع بذلك الناس، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بشراك أو بشركين ، فقال «شراك أو شراكان من نار» فعبأ رسول الله أصحابه للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، ودفع راية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دمائهم، فبرز رجل، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز أخر، فبرز إليه على فقتله، ثم برز آخر، فبرز إليهِ أبو دجانة فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، ثم أعطوا من الغد بأيديهم، وفتحها الله عنوة.

---

(١) البخاري (٤٢٣٤) مسلم (١١٥) .

(٢) المغازي (٢/ ٧٠٩، ٧١٠).

(٣) البخاري (٤٢٣٤) ومسلم (١١٥).

وأقام رسول الله ﷺ إلى وادي القرى أربعة أيام، فلما بلغ ذلك أهل تيماء صالحوا على الجزية، فلما كان عمر، أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في الشام؛ ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وما وراء ذلك من الشام.

وقال ابن وهب: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، فسار ليلة حتى إذا أدركنا الكرى عرس رسول الله ﷺ، وقال لبلال: «اكلأ لنا الليل» فغلبت بلالاً عيناه فلم يستيقظ النبي ﷺ ولا بلال إلا بحر الشمس.. الحديث(١) أخرجه مسلم.

وروى عبد الرحمن أن ذلك كان في طريق الحديبية، رواه شعبة، عن جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، عن ابن مسعود، ويحتمل أن يكون نومهم مرتين.

وقد روى زافر بن سليمان، عن شعبة، فذكر أن ذلك كان في غزوة تبوك.

وقد رواه النوم عن الصلاة: كمران بن حصين، وأبو قتادة الأنصاري. والحديثان صحيحان رواهما مسلم(٢) وفيهما طول(٣).

وقال عمارة بن عكرمة، عن عائشة: لما افتتحنا خيبر، قلنا: الآن نشبع من التمر(٤).

وقال ابن وهب: أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: لما قدم المهاجرون المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل أرض، فقاسموا المهاجرين على أن يعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة. وكانت أم أنس، وهي أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقًا لها، فأعطاهن رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة ابن زيد فأخبرني أنس أن رسول الله لما فرغ من قتال أهل خيبر، وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار متاعهم، ورد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه.

---

(١) مسلم (٦٨٠ / ٣٠٩).
(٢) مسلم (٦٨١ / ٣١١، ٦٨٢ / ٣١٢).
(٣) انظر زاد المعاد (٣/ ٣٥٨).
(٤) البخاري (٤٢٤٢).

قال ابن شهاب: وكان من شأن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبدالمطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ كانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر. أخرجه مسلم(١).

وقال معتمر: حدثني أبي، عن أنس، أن الرجل كان يعطي من ماله النخالات أو ما شاء الله من ماله النبي ﷺ وحتى فتحت عليه قريظة والنضير، فجعل يرد بعد ذلك، فأمرني أهلي أن آتيه فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان النبي ﷺ أعطاه أم أيمن، أو كما شاء الله. قال: فسألته، فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فلوت الثوب في عنقه، وجعلت تقول: كلا والله الذي لا إله إلا هو، لا يعفيكهن وقد أعطانيهن، فقال نبي الله ﷺ: يا أم أيمن أتركي ولك كذا وكذا وهي تقول: كلا والله. حتى أعطاها عشرة أمثال ذلك، أو نحوه. وفي لفظ الصحيح وهي تقول: كلا والله حتى أعطى عشرة أمثاله. أخرجاه(٢).

وفي سنة سبع: قدم حاطب بن أبي بلتعة من الرسيلة إلى المقوقس ملك ديار مصر، ومعه منه هدية للنبي ﷺ، وهي مارية القبطية، أم إبراهيم ابن النبي ﷺ، وأختها سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت وبغلة النبي ﷺ دُلدُل، وحماره يعفور.

وفيها: توفيت ثوبية مرضعة النبي ﷺ ببيت ابنها مسروح، وكانت مولاة لأبي لهب أعتقها عام الهجرة، وكان النبي ﷺ يبعث إليها إلى مكة بصلة وكسوة. حتى جاءه موتها سنة سبع مرجعه من خيبر، فقال: «ما فعل ابنها مسروح»؟ قالوا: مات قبلها.

وكانت خديجة تكرمها، وطلبت شراءها من أبي لهب فامتنع. رواه الواقدي، عن غير واحد. أرضعت النبي ﷺ قبل حليمة أيامًا، وأرضعت أيضًا حمزة بن عبد المطلب، وأبا سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهما(٣).

---

(١) مسلم (١٧٧١).
(٢) البخاري(٥٣٦٢) مسلم (١٧٧١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٩٠ ـ ٩٣).

عمرة القضاء
وهي غزوة الأمن

قال ابن إسحاق: ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وما بعده إلى شوال، يبعث فيما بعد ذلك سراياه.

ثم رجع في ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها، وخرج معه المسلمون ممن كان صد معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه.

قال ابن عقبة: وتغيب رجال من أشرافهم خرجوا إلى بوادي مكة كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظا، وحنقًا، ونفاسة، وحسدًا.

وتحدثت قريش بينها فيما ذكر ابن إسحاق: أن محمدًا وأصحابه في عسرة وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

فلما دخل الرسول ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة» ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا وأراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى استلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاث أطواف ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش الذي بلغه عنهم حتى جمع حجة الوداع فلزمها فضمت السنة بها.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة في تلك العمرة، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يديه:

خلوا بنـي الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير في رسوله
يـا رب إني مـؤمن بقيله   أعرف حق الله في قبوله

وكان رسول الله ﷺ قد بعث بين يديه جعفر بن أبي طالب إلى ميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكانت أختها أم الفضل بنت الحارث، وقيل: جعلت إلى أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى

العباس، فزوجها العباس رسول الله ﷺ وأصدقها عنه أربعمائة درهم.

وقضى رسول الله ﷺ نسكه، وأقام بمكة ثلاث ليال، وكان ذلك أجل القضية يوم الحديبية. فلما أصبح رسول الله ﷺ، من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى. في نفر من قريش ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة فصاح حويطب نناشدك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد: كذبت لا أم لك إنها ليست بأرضك ولا أرض أبيك والله لا يخرج إلا راضيًا فقال رسول الله ﷺ وضحك: «يا سعد لا تؤذ قومًا في رحالنا».، ثم قال رسول الله ﷺ: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه؟» قالوا: لا حاجة بنا لطعامك فاخرج عنا.

فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع مولاه فأذن بالرحيل، وخلف أبا رافع على ميمونة حتى أتاه بها بسرف وقد لقيت ومن معها عناء وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم. فبنى بها بسرف ولقد لقيت رسول الله ﷺ بسرف ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة. ثم كان من قضاء الله سبحانه أن ماتت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين، فتوفيت حيث بني بها.

قال موسى بن عقبة: وذكر أن الله تعالى أنزل في تلك العمرة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وذكر ابن هشام أنه يقال لها: «عمرة القصاص» لأنهم صدوا رسول الله ﷺ عن العمرة في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقتص منهم رسول الله ﷺ ودخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع(١).

وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»(٢).

وفي هذه القصة من الفقه، أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين. وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها. نص أحمد رحمه الله تعالى في رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها في الجارية خاصة، واحتج بقصة

---

(١) الاكتفاء (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٢٢٧٨) صحيح أبي داود (١٩٩٣).

بنت حمزة هذه، ولما كان ابن العم ليس محرمًا لم يعرف بينه وبين الأجنبي في ذلك، وقال: تزوج الحاضنة لا يسقط حضانتها بحال ذكرًا كان الولد أو أنثى، وقد اختلف في سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال:

أحدها: تسقط به ذكرًا كان أو أنثى، وهو قول مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايات عنه.

والثاني: لا تسقط بحال، وهو قول الحسن، وابن حزم. والثالث كان الطفل بنتا، لم تسقط الحضانة وإن كان ذكرًا سقطت، وهذه الرواية عن أحمد رحمه الله تعالى، وقال في رواية منها: إذا تزوجت الأم وابنها صغير، أخذ منها، قيل له: والجارية مثل الصبي؟ قال: لا، الجارية تكون معها إلى سبع سنين، وحكى ابن أبي موسى رواية أخرى عنه: أنها أحق بالبنت وإن تزوجت إلى أن تبلغ.

والرابع: أنها إذا تزوجت بنسيب من الطفل، لم تسقط حضانتها، وإن تزوجت بأجنبي سقطت، ثم اختلف أصحاب هذا القول على ثلاث أقوال: :

أحدها: أنه يكفي كونه نسيبًا فقط، محرمًا كان أو غير محرم، وهذا ظاهر كلام أصحاب أحمد وإطلاقهم.

الثاني: أنه يشترط كونه مع ذلك ذا رحم محرم، وهو قول الحنفية.

أنه يشترط مع ذلك أن يكون بينه وبين الطفل ولادة، بأن يكون جدا للطفل، وهذا قول بعض أصحاب أحمد، ومالك، والشافعي.

وفي القصة حجة لمن قدم الخالة على العمة، وقرابة الأم على قرابة الأب فإنه قض بها لخالتها، وقد كانت صفية عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قول الشافعي، ومالك، وأبي جنيفة، وأحمد في أحدى الروايتين عنه، وعنه رواية ثانية: أن العمة مقدمة على الخالة، وهي اختيار شيخنا.

وكذلك نساء الأب يقدمن على نساء الأم، لأن الولاية على الطفل في الأصل للأب، وإنما قدمت عليه الأم لمصلحة الطفل وكمال تربيته، وشفقتها وحنوها والإناث أقوم بذلك من الرجال، فإذا صار الأمر إلى النساء فقط، أو الرجال فقط، كانت قرابة الأب أولى من قرابة الأم كما يكون الأب أولى أولى من كل ذكر سواه، وهذا قوي جدًا.

ويجاب عن تقديم خاله ابنة حمزة على عمتها بأن العمة لم تطلب الحضانة، والحضانة حق لها يقضي لها به بطلبه، بخلاف الخالة، فإن جعفراً كان نائبًا عنها في طلب الحضانة، ولهذا قضى بها النبي ﷺ لها في غيبتها.

وأيضًا فكما أن لقرابة الطفل أن يمنع الحاضنة من حضانة الطفل إذا تزوجت، فللزوج أن يمنعها من أخذه وتفرقها له، فإذا رضي الزوج بأخذه حيث لا تسقط حضانتها لقرابته، أو لكون الطفل أنثى على رواية، مكنت من أخذه وإن لم يرض، فألحق له ، والزوج ها هنا قد رضي وخاصم في القصة، وصفية لم يكن منها طلب.

وأيضًا فابن العم له حضانة الجارية التي لا تشتهى في أحد الوجهين بل وإن كانت تشتهى، فله حضانتها أيضًا، وتسلم إلى امرأة ثقة يختارها هو، أو إلى محرمه، وهذا هو المختار لأنه قريب من عصابتها وهو أولى من الأجانب والحاكم، وهذه إن كانت طفلة فلا إشكال، وإن كانت ممن يشتهى، فقد سلمت إلى خالتها فهي وزوجها من أهل الحضانة، والله أعلم وقول زيد: ابنة أخي، يريد الإخاء الذي عقده رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة لما وآخى بين المهاجرين، فإنه واخى بين أصحابه مرتين، فواخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة وآخر بين أبي بكر وعمر وبين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة وآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعد بن زيد وطلحة بن عبيد الله. والمرة الثانية: آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد مقدمه المدينة (١) .

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٨).

غزوة الفتح

أولا : سبب الغزوة :

عدت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خزاعة، ولم يزالوا قبل ذلك متعادين، وكان الذي هاج ما بينهم أن حليفًا للأسوَد بن رزن الدبلي خرج تاجرًا، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن سلمي وكلثوم وذؤيب وهم منخر بني كنانة وأشرافهم كانوا في الجاهلية يودون ديتين لفضلهم في قولهم، فقتلتهم خزاعة بعرفة عند أنصاب الحرم ثم حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به.

فلما كان صلح الحديبية دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش، فلما كانت الهدانة اغتنمها بنو الدبل فخرجوا حتى بيتوا خزاعة على الوتير، ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً، وتحاجزوا، واقتتلوا، ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معه من قريش من قاتل بالليل مستخفيًا.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا منهم وكانوا فى عقده وعهده ، أخرج عمرو بن سالم الخزامى الكعبى حتى قدِم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليها وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس فقال:

يارب إني ناشد محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدًا وكنا ولدًا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدًا
فانصر هداك الله نصر أعتدًا ... وادع عباد الله يأتوا مددًا
فيهم رسول الله قد تجردا ... «أبيض مثل البدر يسمو صعدًا
إن سيم خشفًا وجهة تربدا ... في فيلق كالبحر يجري مزبدًا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء [1] رصدًا ... وزعموا أن لست أدعوا أحدًا
وهم أذل وأقل عددًا ... هم بتوتنا بالوتير هجدًا
وقتلونا ركعًا وسجدًا

(١) موضع بأعلى مكة .

يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم» (١).

ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من للسماء فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» (٢) ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأخبروه بمن أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

وقد قال رسول الله ﷺ: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد وليزيد في المدة».

ومضى بديل بن ورقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد، ويزيد في المدة، وقد رهبوا للذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: «من أين أقبلت يا بديل؟» وظن أنه أتى رسول الله ﷺ قال: سيرت (٣).

في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أبو سفيان لئن كان بديل جاء المدينة لقد علف بها النوى. فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه قال: والله يا بنية لقد أصابكي بعدي شرا! (٤).

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا ثم ذهب إلى أبو بكر فكلمة أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر (٥) لجاهدتكم به.

ثم خرج حتى دخل على على بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها فقال: يا على إنك أمس القوم بي رحمًا وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت فأشفع لي، قال ويحك يا أبو سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة وقال: يا بنت محمد هل لكي أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).

(٣) تسيرت.

(٤) البداية والنهاية (٤ / ٤٧٩).

(٥) صغار النمل.

فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت: والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ قال: يا أبا حسن إن أرى الأمور قد اشتدت على فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك؟ فقام أبو سفيان فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته فو الله ما رد على شيئًا ثم جئت بن أبي قحافة فلم أجد فيه شيئًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ويقال: أعدى العدو، ثم أتيت على فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشيء صنعته، فو الله ما أدري هل يغني شيئًا أم لا؟ قالوا: وبما أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت. قال لا والله ما وجدت غير ذلك.

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال: أي بنية أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري، ثم أن رسول الله ﷺ أعلم بالناس أن سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها».

فتجهز الناس. وكتب حاطب بن أبي بلتعة عن ذلك كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشًا فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونًا ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبي طالب، والزبير بن العوام فقال: أدركا امرأة كتب معها حاطب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له فى أمرهم، فخرجا حتى أدركاها، فاستنزلاها والتمسا في رحلها فلم يجد شيئًا فقال لها على: أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ولنخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك.

فلما رأت الجد منه استخرجت الكتاب من قرون رأسها فدفعته إليه. فأتى به رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا».

قال يا رسول الله والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت إمرًا ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ولكني كنت بين أظهرهم ولي ولد وأهل فصانعتهم عليه فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضربن عنقه فإن الرجل نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أصحاب بدر، فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١)

فأنزل الله في حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١] الأيات كلها إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة :٣] إلى آخر القصة.

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره حتى نزل بمر الزهران في عشرة آلاف من المسلمين وقيل: في إثنى عشر ألفا، فتبعت سليم، وقيل ألفت وألفت مزينة وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد.

وقد كان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة لقياه بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه وكلمته أم سلمة فيهما وهي أخت عبد الله منهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال».

فلما خرج الخبر إليهما بذل قال أبو سفيان ـ ومعه بني له ـ والله ليأذنن لي أولآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما، وأنشدم أبو سفيان:

لعمرك إني يـــوم أحـمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمــدلج الحيران أظــلم لـيله ... فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
هداني هاد غير نفســي وقادني ... مــع الله من طردت كل مطرد

(١) البخاري (٣٩٨٣) مسلم (٢٩٩٤) أبو داود (٢٦٥٠) والترمذي (٣٣٠٢).

فزعموا أنه لما أنشده هذا البيت ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: «أنت طردتني كل مطرد!»(١) .

وعميت الأخبار عن رسول الله ﷺ على قريش، فلا يأتيهم خبر عنه، ولا يدرون ما هو فاعل.

وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وكان العباس بن عبد المطلب قد لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق مهاجرًا بعياله، وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض.

قال العباس: فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قلت: واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الآراك، فقلت لعلى: أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم مكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه.

فو الله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان، يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط، ولا عسكرًا، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمستها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة فعرف صوتي، وقال أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال مالك فداك أبي وأمي؟! قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة فداك أب وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة، حتى أتى بك رسول الله ﷺ فأستأمن لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه، فجئت به كلما مر بنا من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ، وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأى أبا سفيان على

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٤٣، ٤٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد الله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد.

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني فلأضربن عنقه.

قلت: يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني.، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر فوالله لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بن عبد مناف.

فقال: مهلاً يا عباس فو الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به قد فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصحبت غدوت إلى الرسول ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان،ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وما أكرمك وما أوصلك أما والله هذه فإن في نفسي منها شيء حتى الآن.

قال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق وأسلم.

قال العباس: قلت: يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. قال: «نعم، من دخل دار أبا سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فو آمن».

فلما ذهب لنيصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».

قال: فخرجت فحبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، فمرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم. فيقول: مالي ولسليم.

ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول: مالي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان. حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيمًا. قلت يا أبا سفيان إنها النبوة.

قال: نعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جائكم فيما لا قبل لكم به، فمن داخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلو الحميت (١) الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم قال: ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد(٢).

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوي وقف على راحلته معتجرا بشقه برد حبرة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله بن من الفتح حتى إن غثنونه ليكاد يمس وسط الرحل.

ولما وقف هناك قال أبو قحافة، وقد كف بصره قال لابنة له من أصغر ولده أي بنية اظهري بي على أبي قبيس. فأشرفت به عليه فقال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا قال: تلك الخيل.

قالت: وأرى رجلاً يسعى بين السواد مقبلاً ومدبرًا. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قدو الله إذن دفعت الخيل فأسرعي بي الى بيتي.

فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر يقوده. فلما رآه ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه!».

فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه. قال: «فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم» فأسلم.

---

(١) الكثير اللحم.

(٢) صحيح السيرة النبوية (١٥١٨، ٥٢٠) والسيرة لابن هشام (٤/٥٢).

ورآه رسول الله ﷺ وكأن رأسه ثغامة [1] فقال:

«غيروا هذا من شعره» ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي. فلم يجبه أحد فقال: أي أخية احتسبي طوقك فو الله إن الأمانة اليوم في الناس لقليل!.

وأمر رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذي طوي الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدي وكان على المجنبة اليسرى وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء. فذكروا أن سعدًا حين وجه داخلاً قال:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

فسمعها رجل من المهاجرين، قيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد، ما نأمن أن تكون له في قريش صولة.

فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها».

ويقال إنه أمر الزبير بذلك وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين. فسار الزبير حتى وقف بالحجون وغرز بها راية رسول الله ﷺ.

وذكر غير ابن إسحاق أن ضرار بن الخطاب قال يومئذ شعرًا استعطف فيه رسول الله ﷺ على قريش حين سمع قول سعد، وهو من أجود شعر قاله :

يا نبي الهدى إليك لجاحي قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء [2]
إن سعدًا يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيظ رمان بالنسر والعواء [3]
فانهينه فإن الأسـ ـود الليث والغ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش فقعه القاع في أكف الإماء

(١) كناية عن بياض شعره . (٢) الراهبة المشهورة .
(٣) العواء : الكلب .

فحينئذ انتزع رسول الله ﷺ الراية من سعد بن عبادة فيما ذكروا. والله أعلم.

وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وكان على المجنبة اليمنى فدخل من الليط أسفل مكة فلقيته بنو بكر فقاتلوه، فقتل مهم قريب من عشري رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة انهزموا وقتلوا بالحزورة حتى يلغ قتلهم باب المسجد، وهرب فضضهم[١] .

حتى دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال وأتبعهم المسلمون بالسيوف.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ . ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر في المهاجرين الأولين حتى نزل بأعلى مكة وضربت هناك قبته. ولما علا رسول الله ﷺ ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضفض المشركين فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتل؟» فقال: المهاجرون: نظن أن خالد قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن بد من أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك. فهبط رسول الله ﷺ من الثنية فأجاز على الحجون.

واندفع الزبير بن العوام بمن معه حتى وقف بباب الكعبة وصرع رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم؛ إلا أنه قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة[٢] .

منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم ففر يومئذ إلى عثمان بن عفان وكان أخوه من الرضاعة وغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس فاستأمن له. فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً ثم قال: «نعم».

فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه: «لقد صمت ليقوم إليه بعضهم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهل أومأت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن النبي لا يقتل بالإشارة» . وفي رواية: «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة أعين».

ومنهم: عبد الله بن خطل، رجل من بني تميم بن غالب كان مسلمًا فبعثه رسول الله ﷺ مصدقًا وكان معه رجل مسلم يخدمه فأمره أن يصنع له طعامًا ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا فعد عليه فقتله ثم ارتد مشركًا، كانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ

---

(١) الرجال الذين تفرقوا بعد الهزيمة .

(٢) فتح البارى (٧ / ٩) .

فأمر بقتلهما فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ فأمنها.

وقيل يومئذ لرسول الله ﷺ: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعب فقالك «اقتلوه» فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه.

ومنهم: الحويرث بن نُفيد بن وهب بن عبد بن قصي وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، ولما حمل العباس بن عبد المطلب فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة نخس بهما الحويرث هذا فرمى بهما إلى الأرض، فقتله يوم الفتح على بن أبي طالب.

ومنهم: مقيس بن صبابة الليثي، وكان أخوه هشام بن صبابة قد قتله رجل من الأنصار خطأ فقدم مقيس بعد ذلك على رسول الله ﷺ المدينة مظهرًا الإسلام حتى إذا وجد غرة من قاتل أخيه عدا عليه فقتله ثم لحق بقريش مشركًا.

وقد تقدم ذلك فلأجله أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه. فقالت أخت مقيس:

لعمري قد أخزى نميلة رهطه ... وفجع أضاف الشتاء بمقيس

فلله عينا من رأى مثل مقيس ... إذا النفساء أصبحت لم تخرس [(١)]

ومنهم: سارة مولاة لبنى عبد المطلب ولعكرمة بن أبي جهل، وكانت تؤذي رسول الله ﷺ فاستؤمن لها فأمنها وبقيت حتى أوطأهارجل من الناس رجل فرسا في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا أناسًا بالخندمة ليقاتلوا، فيهم: حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر، وكان قد أعد سلاحًا وأصلح منها فقالت له امرأته: لما تعد ما أرى؟ قال لمحمد وأصحابه.

قلت: والله ما أراه يقوم لمحمد شيء! قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم! ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي علة ... هذا سلام كامل وآله [(٢)]

وذو غرار بن سريع السلة [(٣)]

(١) لم يضع لها طعام عند ولادتها، وذلك من الشدة والجدب.

(٢) يعنى أداة الحرب. (٣) حد الرمح والسيف والسهم يريد: سيفا.

ثم شهد الخندمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئًا من قتال، فقتل كرز بن جابر وخُنيس بن خالد كانا في خيل خالد فشذا عنه وسلكًا طريقًا غير طريقه فقتلاً جمعيًا وأصيب سلمة بن الميلاء الجهني من خيل خالد، وأصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حماس منهزمًا حتى دخل بيته وقال لامرأته: أغلقي على بابي.

قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يـــوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتهم بالسيوف المسلمـة بقطعن كل ساعد وجمجه

ضربًا فلا تسمــع إلا غمغمـة لهم نهيت خلفنا وهمهمه

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: «لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟».

قال هم بدأونا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا النبل، وقد كففت يدي ما استطعت. فقال رسول الله ﷺ: قضاء الله خير.

وفر يومئذ صفوان بن أمية عامدًا للبحر وعكرمة بن أبي جهل عامدًا لليمن، فأقبل عمير بن وهب بن خلف إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه قد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر؛ فأمنه ﷺ، قد أمنت الأحمر والأسود.

فقال رسول الله ﷺ: «أدرك ابن عمك فهو آمن».

قال: يا رسول الله فأعطني أية يعرف بها أمانك. فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة فخرج بها عمير أدركه نجدة وهو يريد أن يركب البحر فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي! الله الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به قال: ويلك اغرب عني فلا تكلمني.

قال: أي صفوان فداك أبي وأمي! أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك.

قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني.

قال: صدق قال فاجعلنى فيه بالخيار أربعة أشهر قال: أنت بالخيار أربعة أشهر.

وأقبلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل وهي مسلمة يومئذ فقالت: يا رسول الله آمن زوجي وائذن له في طلبه، فأذن لها وآمنه فأدركته ببعض تهامة وقيل: باليمن فأقبل معها وأسلم، فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحا وما عليه رداء.

وكانت فاختة بنت الوليد تحت صفوان بن أمية، وكانت أسلمت أيضًا، فلما أسلم عكرمة وصفوان أقر رسول الله ﷺ كل واحدة منهما عند زوجها على النكاح الأول. وقالت أم هانئ بنت أبي طالب وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائي من بني مخزوم فدخل على أخي على بن أبي طالب فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إلى فقال: «مرحبًا أهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر على فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وأمنا من أمنت فلا يقتلهما»(١) .

قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

ولما نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته ليستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيه حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم وقف على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل وأربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، الناس لآدام وآدم من تراب».

ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

(١) مسلم (٦٣٣).

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم».

ثم قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء» (١) .

ثم جلس رسول الله ﷺ في السجد فقام إليه على بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك.

فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟».

فدعي له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمنان، اليوم يوم بر ووفاء» ثم قال لعلى فيما حكى ابن هشام: «إنما أعطيكم ما ترزأون لا ترزأون» (٢) .

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ لما قضى طوافه نزل فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: «ولولا أن يغلب بنو عبد المطلب على سقايتهم لنزعت منها بيدي».

ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريبًا من مقام إبراهيم وكان المقام لا صقًا بالكعبة فأخذه رسول الله ﷺ ودعا بسجل من ماء فشرب وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوء يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويعجبون ويقولون: ما رأينا ملكًا قط بلغ هذا ولا سمعنا به!.

وذكر ابن هشام أيضًا أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى صور الملائكة، فرأى إبراهيم مصورًا في يده الأزلام يستقم بها فقال: «قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ما شأن إبراهيم والأزلام» ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست(٣) وعن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة

(١) رواه أحمد (٦٢٣٣، ٦٥٥٢) وأبو داود (٤٥٤٧) وابن ماجه (٢٦٢٧) وصححه الألباني وصحيح أبي داود (٣٨٠٧).

(٢) انظر السيرة لابن هشام (٢/ ٤١٢) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١١، ٤١٢) ورواه البخاري (٤٢٨٨).

يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول بيت الأصنام مشدودة بالرصاص فجعل النبي يشير بقضيب في يده إلى الأصنام وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فما أشار إلى صنم منها فوجهه إلا وقع لقفاه ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي صنم إلا وقع. فقال تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصــنام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب أو العقابا (١)

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟».

قال: نعم فضالة يا رسول الله قال: «ماذا كنت تحدث نفسك؟» فقال: لا شيء، كنت أذكر الله.

فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث. فقلت لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا   يأبـــي عليك الله والإســــلام
لو ما رأيت محمـــدًا وقبيلـــه   بالفـــتح يوم تكســـر الأصنام
لرأيت ديـــن الله أضحـــى بيننا   والشرك يغشى وجهـــه ظـــلام

وأمر رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة عام الفتح بلالاً أن يؤذن، وكان دخل معه، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيد أن لا يكون سمع فسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. وقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا لو تكلمت به لأخبرته عني هذه الحصباء! فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلتم».

ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

---

(١) البخاري (٤٢٨٧) عن ابن مسعود .

وقام رسول الله ﷺ حين افتتح مكة على الصفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها.

فلما فرغ من دعاءه قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال: «معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم»(١) .

وعدت خزاعة الغد من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال له: ابن الأثوع فقتلوه وهو مشرك برجل من أسلم يقال: له أحمر بأسًا.

وكان رجلاً شجاعًا وكان إذا نام غط غطيطًا منكرًا لا يخفى مكانه فكان يبيت في حية معتنزًا (٢) .

فإذا بيت الحي صرخوا: يا أحمر. فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله سيء.

فأقبل عنزي من هذيل يريدون حاضره، حتى إذا دانوا من الحاضر قال ابن الأثوع الهذلي: لا تعجلوا حتى أنظر فإذا كان في الحاضر أحمر فلا سبيل إليهم فإن له لا غطيطًا لا يخفى فاستمع فلما سمع غطيطه مشى إليه حتى وضع السيف في صدره ثم تحامل عليه حتى قتله.

ثم أغاروا على الحاضر فصرخوا: يا أحمر ولا أحمر لهم! فلما كان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوع الهذلي حتى دخل مكة ينظرن ويسأل عن أمر الناس وهو على شركه فرأته خزاعة فعرفوه فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة يقولون: أنت قاتل أحمر؟ قال: نعم أنا قاتل أحمر فمه. إذا أقبل خراش بن أمية مشتملاً على السيف، فقال: هكذا عن الرجل، قال بعض من حضرهم: والله ما نظن إلا أنه يريد أن يفرج الناس عنه، فلما تفرجوا حمل عليه فطعنه بالسيف في بطنه، فوالله لكأني أنظر إلى وحشوته (٣) تسيل من بطنه وإن عينيه لترنقانى (٤) فى رأسه وهو يقول: أقد فعلتموها يا معشر خزاعة! حتى انجعف فوقع.

فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ما صنع خراش بن أمية: «إن خراش لقتَّال».

يعيبه بذلك وقام ﷺ في الناس خطيبًا فقال: «يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق

---

(١) مسلم (١٧٨٠) وأحمد (٢/ ٥٣٨).

(٢) تنحيا فى جانب . (٣) ما فى بطنه .

(٤) تتحركان . (٥) صرع .

السموات والأرض، فهي حرام من «الله» إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ولا يعضد فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي هذه الساعة غضبًا على أهلها؛ ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ليلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله قد قاتل، فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فهم بخير النظرين إن شاؤا فدم قاتله وإن شاؤا فدم قاتله وإن شاؤا فعقله »(١) .

ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة تقصر الصلاة. وكان فتحها لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان(٢) .

قال ابن القيم فيما في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم:

قوله: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس»(٣) .

فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه كما في «الصحيح» عنه، أنه ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم خليلك حرم مكة، وإني أحرم المدينة»(٤) .

فهذا إخبار عن ظهر التحريم السابق يوم خلق السماوات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعوا في تحريم المدينة، والصواب المقطوع به تحريمها، إذ قد صح فيه بضعة وعشرون حديثًا عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه(٥) .

ومنها: قوله: «فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا». هذا التحريم لسفك الدم المختص

---

(١) البخاري (٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٤) والترمذي (٨٠٩). وأحمد (٤ / ٣١ ، ٣٢) .

(٢) البخاري (٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مسلم (١٣٧٤).

(٥) مسلم (١٣٦٠، ١٣٦١ ، ١٣٧٢) وأبو داود (٢٠٣٤، ٢٠٣٩) والترمذي (٣٩١٧، ٣٩١٨) وابن ماجه (٣١١٣) وأحمد (١/ ١٩٩) وما بعدها.

بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرمًا.

كما أن تحريم عضد الشجر بها، واختلاء خلائها، والتقاط لقطتها، هو أمر مختص بها.

وهو مباح في غيرها، إذ الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا أنواع:

أحدها: وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله ـ أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل لاسيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابن الزبير، فلم يكن قتالهم، ونصب المنجنيق عليهم، وإحلال حرم الله جائز بالنص والإجماع، وإذا خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق(١) .

وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه، فقال: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، فيقال له: هو لا يعيذ عاصيًا من عذاب الله، ولو لم يعذه من سفك دمه، فلم يكن حرمًا بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرمًا بالنسبة إلى الطير والحيوان والبهيم، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك، وإنما لم يعذ مقيس بن صبابة، وابن خطل، ومن سُمي معهما، لأنه في تلك الساعة لم يكن حرمًا بل حلاً، فلما انقضت ساعة الحرب، عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السماوات والأرض،وكانت العرب في جاهليتها يرى الرجل قاتل أبيه، أو ابنه في الحرم، فلا يهيجه، وكان ذلك بينهم خاصية الحرم التي صار بها حرمًا، ثم جاء الإسلام، فأكد ذلك وقواه، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه: «فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا: «إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لك»(٢) .

وعلى هذا فمن أتى حدًا أو قصاصًا خارج الحرم يوجب القتل، ثم لجأ إليه، لم يجز إقامته عليه فيه. وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه، وذكر عبد الله بن عمر أنه قال: لو لقيت فيه قتل عمر ما ندهته(٣) ، وعن ابن عباس، أنه قال: لو لقيت قاتل أبي في الحرم، ما هجته

(١) انظر كلام الحافظ ابن حجر عليه في الفتح (١/ ١٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عبد الرزاق في المصنف (٩٢٢٨، ٩٢٢٩) ما ندهته: أي ما زجرته.

حتى يخرج منه، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافه، وإليه ذهب أبو حنيفة ومن وافقه من أهل العراق والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث.

وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم، كما يستوفى منه في الحل، وهو اختيار ابن المنذر، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان، وبأن النبي ﷺ قتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، وبما يروى عن النبي، أنه قال: «إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًا بدم ولا بخربة»(١) ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس، لم يعذه الحرم، ولم يمنعه من إقامته عليه، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب جدًا أو قصاصًا، لم يعذه الحرم، ولم يمنع من إقامته عليه، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حدًا أو قصاصًا، لم يعذه الحرم، ولم يمنع من إقامته عليه، فكذلك إذا أتاه خارجه، ثم لجأ إليه، إذ كونه حرمًا بالنسبة إلى عصمته، لا يختلف بين الأمرين، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئًا للحرم، وبين كون قد أوجب ما أبيح قتله فيه، كالحية، والحدأة، والكلب العقور، ولأن النبى ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم»(٢) .

فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة، وهي فسقهن، ولم يجعل التجائهن إلى الحرم مانعًا من قتلهن، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل.

قال الأولون: ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ولا سيما قوله تعالى: ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

(١) مسلم (١٣٥٤).
(٢) رواه البخاري (٣١١٤).

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة، فلا يلتفت إليه، كقول بعضهم: ومن دخله كان آمنًا من النار، وقول بعضهم: كان آمنًا من الموت على غير الإسلام، ونحو ذلك، فكم ممن دخله، وهو في قعر الجحيم.

وأما العمومات الدالة على استِيفاء الحدود والقصاص في كل زمان ومكان، فيقال أولاً لا تعرض في تلك العمومات لزمان الإستيفاء، ولا مكانه، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه، فإن اللفظ لا يدل عليها بوضعه، ولا يتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع، لم يقل: إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك للعام فلا يقول محصل: إن قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] مخصص بالمنكوحة في عدتها، أو بغير إذن وليها، أو بغير شهود، فهكذا النصوص العامة في استيفاء الحدود والقصاص لا تعرض فيها لزمنه، ولا مكانه، ولا شرطه، ولا مانعه، ولو قدر تناول اللفظ لذلك، لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع، لئلا يبطل موجبها، ووجه حمل اللفظ العام على ماعداها كثائر نظائره، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل، والمرضع، والمريض، الذي يرجى برؤه، والحال المحرمة للإستيفاء، كشدة المرض، أو البرد، أو الحر، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة؟ وإن قلتم: ليس ذلك تخصيصًا، بل تقيدًا لمطلقها، كلنا لكم بهذا الصاع سواء بسواء.

وأما قتل ابن خطل، فقد تقدم أنه في وقت الحل، والنبي ﷺ قطع الإلحاق، ونص على أن ذلك من خصائصه، وقوله ﷺ: «وإنما أحلت لي ساعة من نهار».

صريح في أنه إنما أحل له سفك دم حلال في غير الحرم فى تلك الساعة الخاصة، وهذا صريح في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها، فيما عدا تلك الساعة، وأما قوله: «الحرم لا يعيذ عاصيًا».

فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق، يريد به حديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الكعبي هذا الحديث، كما جاء مبينًا في «الصحيح» فكيف يقدم على قول رسول الله ﷺ.

وأما قولكم: لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس، لم يعذه الحرم منه، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء، وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونها، ومن فرق، قال: سفك الدم

إنما ينصرف إلى القتل، ولا يلزم من تحريمه في الحرم تحريم ما دونه، لأن حرمة النفس أعظم، والإنتهاك بالقتل أشد، قالوا: ولأن الحد بالجلد أو القطع يجري مجرى التأديب، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده، وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها في ذلك، قال أبو بكر: هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه، أن الحدود كلها تقام في الحرم إلا القتل، قال: والعمل على أن كل جان دخل الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه، قالوا: وحينئذ فنجبكم بالجواب المركب، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر، بطل الإلزام، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر، سوينا بينهما في الحكم، وبطل الاعتراض، فتحقق بطلانه على التقديرين.

قالوا: وأما قولكم: إن الحرم لا يعيذ من انتهك فيه الحرمة إذا أتى فيه بما يوجب الحد، فكذلك اللاجيء إليه، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما، فروى الإمام أحمد، حدثنا عبد الرازق، حدثنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: من سرق أو قتل في الحل ثم دخل الحرم، فإنه لا يجالس ولا يكلم، ولا يؤوى، ولكنه يناشد حتى يخرج، فيؤخذ، فيقام عليه الحد، وإن سرق أو قتل في الحرم، أقيم عليه في الحرم(١).

وذكر الأثرم، عن ابن عباس أيضًا: من أحدث حدثًا في الحرم، أقيم عليه ما أحدث فيه من شيء. وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل في الحرم، فقال: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] والفرق بين اللاجيء والمنتهك فيه من وجوه:

أحدها: أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجناية فيه، بخلاف من جني خارجه ثم لجأ إليه، فإنه معظم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه، فقياس أحدهما على الآخر باطل.

الثاني: أن الجاني فيه بمنزلة المفسد الجاني على بساط الملك في داره وحرمه، ومن جنى خارجه، ثم لجأ إليه، فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط السلطان وحرمه، ثم دخل إلى حرمه مستجيرًا.

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (٩٢٢٦) وإسناده صحيح .

الثالث: أن الجاني في الحرم قد انتهك حرمة الله سبحانه، وحرمة بيته وحرمه، فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره.

الرابع: أنه لو لم يقم الحد على الجناة في الحرم، لعم الفساد ـ وعظم الشر في حرم الله، فإن أهل الحرم كغيرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولو لم يشرع الحد في حق من ارتكب الجرائم في الحرم، لتعطلت حدود الله، وعم الضرر للحرم وأهله.

والخامس: أن اللاجيء إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل، اللاجيء إلى بيت الرب تعالى، المتعلق بأستاره، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج، بخلاف المقدم على انتهاك حرمته، فظهر سر الفرق، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه.

وأما قولكم: إنه حيوان مفسد، فأبيح قتله في الحل والحرم كالكلب العقور، فلا يصح القياس، فإن الكلب العقور طبعه الأذى فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله، وأما الأدمي فالأصل فيه الحرمة، وحرمته عظيمة. وإنما أبيح لعارض، فأشبه الصائل من الحيوانات المباحة من المأكولات، فإن الحرم يعصمها.

وأيضًا فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور، والحية، والحدأة، كحاجة أهل الحل سواء، فلو أعاذها الحرم لعظم عليهم الضرر بها.

ومنها : قوله ﷺ: «ولا يعضد بها شجر»(١) ، وفي اللفظ الآخر: «ولا يعضد شوكها»(٢) .

وفي لفظ في «صحيح مسلم»: «ولا يخبط شوكها».

لا خلاف بينهم أن الشجر البري الذي لم ينبته الأدمي على اختلاف أنواعه مراد من هذا اللفظ، واختلفوا فيما أنبته الآدمي من الشجر في الحرم على ثلاثة أقوال، وهي في مذهب أحمد:

أحدها: أن له قلعه، ولا ضمان عليه، وهذا اختيار ابن عقيل، وأبي الخطاب، وغيرهما.

---

(١) البخاري (١٨٣٢، ١٥٨٧) مسلم (١٣٠٤).
(٢) مسلم (١٣٥٥).

الثاني: أنه ليس له قلعه ، وإن فعل، ففيه الجزاء بكل حال، وهذا قول الشافعي، وهو الذي ذكره ابن البناء في خصاله.

الثالث: الفرق بين ما أنبته في الحل، ثم غرسه في الحرم، وبين ما أنبته في الحرم أولاً: فالأول: لا جزاء فيه، والثاني: لا يقلع وفيه الجزاء بكل حال، وهذا قول القاضي، وفيه قول رابع: وهو الفرق بين ما ينبت الآدمي جنسه كاللوز والجوز، والنحل، ونحوه، وما لا ينبت الآدمي جنسه، كالدوح والسلم، ونحوه، فالأول يجوز قلعه ولا جزاء فيه، والثاني: لا يجوز، وفيه الجزاء.

قال صاحب «المغني»: والأولى الأخذ بعموم الحديث في تحريم الشجر كله، إلا ما أنبت الآدمي من جنس شجرهم بالقياس على ما أنبتوه من الزرع، والأهلي من الحيوان، فإننا إنما أخرجنا من الصيد ما كان أصله إنسيًا دون ما تأنس من الوحشي، كذا ها هنا، وهذا تصريح منه باختيار هذا القول الرابع، فصار في مذهب أحمد أربعة أقوال.

والحديث ظاهر جدًا في تحريم قطع الشوك والعوسج، وقال الشافعي: لا يحرم قطعه، لأنه يؤذي الناس بطبعه، فأشبه السباع، وهذا اختيار أبي الخطاب، وابن عقيل، وهو مروي عن عطاء ومجاهد وغيرهما.

وقوله ﷺ: «لا يعضد شوكها»، وفي اللفظ الآخر: «لا يختلى شوكها» صريح في المنع، ولا يصح قياسه على السباع العادية، فإن تلك تقصد بطبعها الأذى، وهذا لا يؤذي من لم يدن منه.

والحديث لم يفرق بين الأخضر واليابس، ولكن قد جوزوا قطع اليابس، قالوا: لأنه بمنزلة الميت، ولا يعرف فيه خلاف، وعلى هذا فسياق الحديث يدل على أنه إنما أراد الأخضر، فإن جعله بمنزلة تنفير الصد، وليس في أخذ اليابس انتهاك حرمة الشجرة الخضراء التي تسبح بحمد ربها، ولذها غرس النبي ﷺ القبرَين غصنين أخضرين، وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا[1] .

وفي الحديث دليل على أنه إذا انقلعت الشجرة بنفسها، أو انكسر الغصن، جاز الانتفاع به، لأنه لم يعضده هو، وهذا لا نزاع فيه.

---

(١) البخاري (٢١٨) مسلم (٢٩٢) .

فإن قيل: فما تقولون فيما إذا قلعها قالع، ثم تركها، فهل يجوز له أو لغيره أن ينتفع بها؟ قيل: قد سئل الإمام أحمد عن هذه المسألة، فقال: من شبهه بالصيد، لم ينتفع بحطبها، وقال: لم أسمع إذا قطعه ينتفع به. وفيه وجه آخر، أنه يجوز لغير القاطع الانتفاع به، لأنه قطع بغير فعله، فأبيح له الانتفاع به كما لو قلعته الريح، وهذا بخلاف الصيد إذا قتله محرم حيث يحرم على غيره، فإن قتل المحرم له جعل ميتة.

وقوله في اللفظ الآخر: «ولا يخبط شوكها».

صريح، أو كالصريح في تحريم قطع الورق. وهذا مذهب أحمد رحمه الله وقال الشافعي: له أخذه، ويروي عن عطاء والأول أصح لظاهر النص والقياس، فإن منزلته من الشجرة منزلة ريش الطائر منه، وأيضًا فإن أخذ الورق ذريعة إلى يبس الأغصان، فإنه لباسها ووقايتها. وقوله ﷺ: «ولا يختلى خلاها» لا خلاف أن المراد من ذلك ما ينبت بنفسه دون ما أنبه الآدميون، ولا يدخل اليابس في الحديث، بل هو للرطب خاصة، فإن الخلا بالقصر: الحشيش الرطب ما دام رطبًا، فإذا يبس، فهو حشيش، أو خلت الأرض، كثر خلاها، واختلاء الخلى: قطعه، ومنه الحديث: كان ابن عمر يتخلى لفرسه، أي: يقطع لها الخلي، ومنه سميت المخلاة: وهي وعاء الخلي، والإذخر مستثنى بالنص، وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة العموم فيما سواه.

فإن قيل: فهل يتناول الحديث الرعي أم لا؟ قيل: هذا فيه قولان:

أحدهما: لا يتناوله فيجوز الرعي، وهذا قول الشافعي.

والثاني: يتناوله بمعناه، وإن لم يتناوله بلفظه، فلا يجوز الرعي، وهو مذهب أبي حنيفة، والقولان لأصحاب أحمد.

قال المحرمون: وأي فرق بين اختلائه وتقديمه للدابة، وبين إرسال الدابة عليه ترعاه؟

قال المبيحون: لما كانت عادة الهدايا أن تدخل الحرم، وتكثر فيه، ولم ينقل قط أنها كانت تسد أفواهها، دل على جواز الرعي.

قال المحرمون: الفرق بين أن يرسلها ترعى، ويسلطها على ذلك، وبين أن ترعى بطبعها من غير أن يسلطها صاحبها، وهو لا يجب عليه أن يسد أفواهها، كما لا يجب عليه أن يسد أنفه في الإحرام عن الشم الطيب، وإن لم يجز له أن يتعمد شمه، وكذلك لا

يجب عليه أن يمتنع عن السير خشية أن يوطئ صيداً في طريقه، وإن لم يجز له أن يقصد ذلك، وكذلك نظائره، فإن قيل: فهل يدخل في الحديث أخذ الكمأة والفقع، وما كان مغيبا في الأرض.

قيل: لا يدخل فيه لأنه بمنزلة الثمرة، وقد قال أحمد: يؤكد من شجر الحرم الضغابيش والعشرق (١) .

وقوله ﷺ: «ولا ينفر صيدها» صريح في تحريم السبب إلى قتل الصيد واصطياده بكل سبب، حتى إنه لا ينفره عن مكانه، لأنه حيوان محترم في هذا المكان، قد سبق إلى مكان، فهو أحق به، ففي هذا أن الحيوان المحترم إذا سبق إلى مكان، لم يزعج عنه.

وقوله ﷺ: «ولا يلتقط ساقطتها إلا من عرفها».

وفي لفظ: «ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد»، فيه دليل على أن لقطة احرم لا تملك بحال، وأنها لا تلتقط إلا للتعريف لا للتمليك، وإلا لم يكن لتخصيص مكة بذلك فائدة أصلاً، وقد اختلف في ذلك، فقال مالك وأبو حنيفة: لقطة الحل والحرم سواء، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وأحد قولي الشافعي، ويروى عن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة رضي الله عنهم، وقال أحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر: ولا يجوز التقاطها للتمليك، وإنما يجوز لحفظها لصاحبها، فإن التقطها، عرفها أبداً حتى يأتي صاحبها، وهذا قول عبد الرحمن بن مهدي، وأبي عبيد، وهذا هو الصحيح، والحديث صريح فيه، والمنشد: المعرف.

والناشد: الطالب، ومنه قوله:

إصاخة الناشد للمنشد

وقد روى أبو داود في «سننه»: أن النبي ﷺ : «نهى عن لقطة الحاج»، وقال ابن وهب: يعني يتركها حتى يجدها صاحبها (٢) .

قال شيخنا: وهذا من خصائص مكة والفرق بيّنها وبين سائر الآفاق في ذلك، أن الناس يتفرقون عنها إلى الأقطار المختلفة، فلا يتمكن صاحب الضالة من طلبها والسؤال عنها، بخلاف غيرها من البلاد.

(١) شجر عريض الورق وليس له شوك يفرش على الأرض .
(٢) صحيح أبو داود (١٧١٩) وعند مسلم نحوه (١٧٢٤).

وقوله ﷺ: في الخطبة: «ومن قتل له قتيل، فهو بخير النظرين، إما أن يقتل وإما أن يأخذ الدية».

فيه دليل على أن الواجب بقتل العمد لا يتعين في القصاص، بل هو أحد شيئين: إما القصاص، وإما الدية. وفى ذلك ثلاثة أقوال وهى روايات عن الإمام أحمد :

أحدها: أن الواجب أحد شيئين، إما القصاص، وإما الدية والخيرة في ذلك إلى الولي بين أربعة أشياء: العفو مجانًا، والعفو إلى الدية، والقصاص، ولا خلاف في تخيره بين هذه الثلاثة.

والرابع: المصالحة على أكثر من الدية، فيه وجهان ـ أشهرهما مذهبًا: جوازه ـ والثاني: ليس له العفو على مال إلا الدية أو دونها، وهذا أرجح دليلاً، فإن اختار الدية، سقط القود، ولم يملك طلبه بعد، وهذا مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن مالك.

والثاني: أن موجبه القود عينًا، وأنه ليس له أن يعفو إلى الدية إلا برضى الجاني، فإن عدل إلى الدية ولم يرضى الجاني، فقوده بحاله ، وهذا مذهب مالك في الرواية الأخرى وأبي حنيفة.

والثالث: أن موجبه القود عينًا مع التخيير بينه وبين الدية وإن لم يرضى الجاني، فإذا عفا عن القصاص إلى الدية، فرضى الجاني، فلا إشكال، وإن لم يرض، فله القود إلى القصاص عينًا، فإن عفا عن القود مطلقًا، فإن قلنا: الواجب أحد الشيئين، فله، الدية، وإن قلنا: الواجب القصاص عينًا، سقط حقه منها.

فإن قيل: فما تقولون فيما لو مات القاتل؟

قلنا في ذلك قولان: أحدهما: تسقط الدية، وهو مذهب أبي حنيفة، لأن الواجب عندهم القصاص عينًا، وقد زال محل استيفائه بفعل الله تعالى، فأشبه ما لو مات العبد الجاني، فإن أرش الجناية لا ينتقل إلى ذمة السيد، وهذا بخلاف تلف الرهون وموت الضامن، حيث لا يسقط الحق لثبوته في ذمة الراهن والمضمون عنه، فلم يسقط بتلف الوثيقية.

وقال الشافعي وأحمد: تتعين الدية في تركته، لأنه تعذر استيفاء القصاص من غير إسقاط، فوجب الدية لئلا يذهب الوارثة من الدم والدية مجانًا.

فإن قيل: فما تقولون لو اختار القصاص، ثم اختار بعده العفو إلى الدية، هل له ذلك؟ قلنا: هذا فيه وجهان:

أحدهما: أن له ذلك، لأن القصاص أعلى، فكان له الإنتقال إلى الأدنى.

والثاني: ليس له ذلك، لأنه لما اختار القصاص، فقد أسقط الدية باختياره له، فليس له أن يعود إليها بعد إسقاطها.

فإن قيل: فكيف تجمعون بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: «من قتل عمداً، فهو قود»[١].

قيل: لا تعارض، بينهما بوجه، فإن هذا يدل على وجوب القود بقتل العمد، وقوله: «فهو بخير النظرين».

يدل على تخييره بين استيفاء هذا الواجب له وبين أخذ بدله، وهو الدية، فأي تعارض؟! وهذا الحديث نظير قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾.

وهذا لا ينفي تخيير المستحق له وبين ما كتب له، وبين بدله. والله أعلم.

وقوله ﷺ في الخطبة: «إلا الإذخر»، بعد قول العباس له: «إلا الإذخر»، يدل على مسألتين:

إحداهما: إباحة قطع الإذخر.

والثانية: أنه لا يشترط في الاستثناء ينويه من أول الكلام، ولا قبل فراغه، لأن النبي ﷺ لو كان ناويًا لاستثناء الإذخر من أول كلامه، أو قبل تمامه، لم يتوقف استثناؤه له على سؤال العباس له ذلك، وإعلامه أنهم لابد لهم من لقينهم وبيوتهم، ونظير هذا استثناؤه ﷺ لسهيل بن بيضاء من أسارى بدر بعد أن ذكره ابن مسعود، فقال: «لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربه عنقه».

فقال ابن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء، فإن سَمعته يذكر الإسلام، فقال: «إلا سهيل[٢] ومن المعلوم أنه لم يكن قد نوى الاستثناء في الصورتين من أول كلامه».

---

(١) أبو داود (٤٥٣٩) والنسائي في المجتبى (٨/ ٣٩) وابن ماجه (٢٦٣٥) وصححه الألباني في المشكاة (٣٤٧٨).

(٢) أحمد (١/ ٣٨٣) وضعفه الشيخ أحمد شاكر (٣٦٣٢).

ونظيره أيضًا قول الملك لسليمان لما قال: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلامًا يقاتل في سبيل الله».

فقال له الملك: قل: إن شاء الله تعالى، فلم يقل، فقال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله تعالى، لقاتلوا في سبيل الله أجمعون»

وفي لفظ: «لكان دركًا لحاجته»(١).

فأخبر أن هذا الاستثناء لو وقع منه في هذه الحالة لنفعه، ومن يشترط النية يقول: لا ينفعه.

ونظير قوله ﷺ: «والله لأغزون قريشًا، والله لأغزون قريشًا» ثلاثًا، ثم سكت، ثم قال: «إن شاء الله»(٢).

فهذا استثناء بعد سكوت، وهو يتضمن إنشاء الإستثناء بعد الفراغ من الكلام والسكوت عليه، وقد نص أحمد على جوازه، وهو الصواب بلا ريب، والمصير إلى موجب هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة أولى. وبالله التوفيق.

وفي القصة: أن رجلاً من الصحابة يقال له: أبو شاه، قام، فقال: أكتبوا لي، فقال النبي ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»(٣).

يريد خطبته، ففيه دليل على كتابة العلم، ونسخ النهي عن كتابة الحديث، فإن النبي ﷺ قال: «من كتب عني شيئًا غير القرآن فليَمحُهُ»(٤).

وهذا كان في أول الإسلام خشية أن يختلط الوحي الذي يتلى بالوحي الذي لا يتلى، ثم أذن في الكتابة لحديثه.

وصح عن عبد الله بن عمر أنه كان يكتب حديثه(٥). وكان مما كتبه صحيفة تسمى

(١) البخاري (٥٢٤٢) مسلم (١٦٥٤).
(٢) أبو داود (٣٢٨٦) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧١٧).
(٣) البخاري (٢٤٣٤).
(٤) مسلم (٣٠٠٤).
(٥) البخاري (١١٣).

الصادقة، وهي التي رواه حفيده عمرو بن شعيب، عن أبيه عنه، وهي من أصح الأحاديث، وكان بعض أئمة أهل الحديث يجعلها في درجة أيوب عن نافع عن ابن عمر، والأئمة الأربعة وغيرهم احتجوا بها.

وفي القصة: أن النبي ﷺ دخل البيت، وصلى فيه، ولم يدخله حتى محيت الصور منه. ففيه دليل على كراهة الصلاة في المكان المصور، وهذا أحق بالكراهة من الصلاة في الحمام، لأن كراهة الصلاة في الحمام، إما لكونه مظنة النجاسة، وإما لكونه بيت الشيطان، وهو الصحيح، وأما محل الصور، فمظنة الشرك،وغالب شرك الامم كان جهة الصور والقبور.

وفي القصة: أنه دخل مكة وعليه عمامة سوداء، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانًا، ومن ثم جعل خلفاء بني العباس لبس السواد شعارًا لهم، ولولاتهم، وقضاتهم، وخطباتهم، والنبي ﷺ لم يلبسه لباسًا راتبًا، ولا كان شعاره في الأعياد، والجمع والمجامع العظام ألبته، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد، بل كان لواؤه أبيض.

ومما وقع في هذه الغزوة، إباحة متعة النساء، ثم حرمها قبل خروجه من مكة، واختلف في الوقت الذي حرمت فيه المتعة على أربعة أقوال:

أحدها: أنه يوم خيبر، وهذا قول طائفة من العلماء. ومنهم: الشافعي وغيره.

والثاني: أنه عام فتح مكة، وهذا قول ابن عيينة، وطائفة.

والثالث: أنه عام حنين بالفتح.

والرابع: أنه عام حجة الوداع، وهو وهم من بعض الرواة، سافر فيه وهمه من فتح مكة إلى حجة الوداع، كما سافر وهو معاوية من عمرة الجعرانة إلى حجة الوداع حيث قال: قصرت عن رسول الله ﷺ بمشقص على المروة في حجته، وقد تقدم في الحج، وسفر الوهم من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان، ومن واقعة إلى واقعة، كثيرًا ما يعرض للحفاظ فمن دونهم.

والصحيح: أن المتعة إنما حرمت عام الفتح، لأنه قد ثبت في «صحيح مسلم» أنهم استمتعوا عام الفتح مع النبي ﷺ بإذنه»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

ولو كان التحريم زمن خيبر، لزم النسخ مرتين، وهذا لا عهد بمثله في الشريعة ألبته، ولا يقع مثله فيها، وأيضًا: فإن خيبر لم يكن فيها مسلمات، وإنما كن يهوديات، وإباحة نساء أهل الكتاب لم تكن تثبت بعد إنما أبحن بعد ذلك في سورة المائدة بقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وهذا متصل بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا كان في آخر الأمر بعد حجة الوادع، أو فيها، فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة زمن خيبر، ولا كان للمسلمين رغبة في الاستمتاع بنساء عدوهم قبل الفتح، وبعد الفتح استرق من استرق منهم، وصرن إماء للمسلمين.

فإن قيل: فما تصنعون بما ثبت في «الصحيحين» من حديث على بن أب طالب: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية(١).

وهذا صحريح صحيح؟

قيل: هذا الحديث قد صحته روايته بلفظين: هذا أحدهما. والثاني الاقتصار على نهي النبي ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، هذه رواية ابن عيينة: يعني عن الزهري، قال قاسم بن أصبع: قال سفيان بن عيينة: يعني أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، لا عن نكاح المتعة، ذكره أبو عمر وفي «التمهيد»: ثم قال: على هذا أكثر الناس انتهى، فتوهم بعض الرواة أن يوم خيبر ظرف لتحريمهن، فرواه: حرم رسول الله ﷺ المتعة زمن خيبر، والحمر الأهلية، واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث، فقال: حرم رسول الله ﷺ المتعة زمن خيبر، فجاء بالغلط البين.

فإن قيل: فأي فائدة في الجمع بين التحريمين، إذا لم يكونا قد وقعا في وقت واحد، وأين المتعة من تحريم الحمر؟

قيل: هذا الحديث رواه على بن أبي طالب رضي الله عنه ـ محتجًا به ـ على ابن عمه عبد الله بن عباس في المسألتين، فإن كان يبيح المتعة ولحوم الحمر، فناظره على بن أبي

---

(١) سبق تخريجه.

طالب في المسألتين، وروى له التحريمين، وقيد تحريم الحمر بزمن خيبر، وأطلق تحريم المتعة وقال: إنك امرؤ تائه، إن رسول الله ﷺ حرم المتعة، وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر كما قال سفيان بن عيينة، وعليه أكثر الناس، فروى الأمرين محتجًا عليه بهما، لا مقيداً لهما بيوم خيبر والله الموفق.

ولكن ها هنا نظر آخر، وهو أنه: هل حرمها تحريم الفواحش التي لا تباح بحال، أو حرمها عند الاستغناء عنها، وأباحها للمضطر؟

هذا هو الذي نظر فيه ابن عباس وقال: أنا أبحتها للمضطر كالميتة والدم، فلما توسع فيها من توسع، ولم يقف عند الضرورة، أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلها، ورجع عنه، وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

ففي «الصحيحين» عنه قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا نساء، فقلنا: ألا نختصى؟ فنهانا، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(١)﴾ [المائدة: ٨٧].

وقرأ عبد الله هذه الآية عقيب هذا الحديث يحتمل أمرين:

أحدهما: الرد على من يحرمه، وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله ﷺ.

والثاني: أن يكون أراد آخر هذه الآية، وهو الرد على من أباحها مطلقًا، وأنه معتد، فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة، وعند الحاجة في الغزو، وعند عدم النساء، وشدة الحاجة إلى المرأة.

فمن رخص فيها في الحضر مع كثرة النساء، وإمكان النكاح المعتاد، فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين.

فإن قيل: فيكف تصنعون بما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر، وسلمة بن

---

(١) مسلم (١٤٠٤).

الأكوع، قالا: خرج علينا منادي رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا، يعني: متعة النساء(١) .

قيل: هذا كان زمن الفتح قبل التحريم، ثم حرمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثًا، ثم نهى عنها(٢) .

وعام أوطاس: هو عام الفتح، لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه مسلم في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله، قال:

كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى نهى عنها عمر في شأن عمرو بن حريث(٣)

وفيما ثبت عن عمر أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهي عنهما: متعة النساء ومتعة الحج(٤) .

قيل: الناس في هذا طائفتان: طائفة تقول: إن عمر هو الذي حرمها ونهى عنها، وقد أمر رسول الله ﷺ باتباع ما سنه الخلفاء الراشدون، ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سرة بن معبد في تحريم المتعة عام الفتح، فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه، عن جده، وقد تكلم فيه ابن معين، ولم ير البخاري إخراج حديثه في صحيحه، مع شدة الحاجة إليه، وكونه أصلاً من أصول الإسلام، ولو صح عنده لم يصبر عنه إخراجه والاحتجاج به، قالوا: ولو صح حديث سبرة، لم يخف على ابن مسعود حتى يروي إنهم فعلوها، ويحتج بالآية، وأيضًا لو صح، لم يقل عمر: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنها، وأعاقب عليها، بل كان يقول: إنه ﷺ حرمها ونهى عنها قالوا: ولو صح لم تفعل على عهد الصديق وهو عهد خلافة النبوة حقًا.

والطائفة الثانية: رأت صحة سبرة، ولو لم يصح، فقد صح حديث على رضي الله

---

(١) مسلم (١٤٠٥).
(٢) مسلم (١٤٠٥).
(٣) مسلم (١٤٠٥).
(٤) أحمد (٣/ ٣٢٥).وأخرج مسلم فى صحيحه (١٢١٧) نحوه .

عنه أن رسول الله ﷺ حرم متعة النساء، فوجب حمل حديث جابر على أن الذي أخبر عنها بفعلها لم يبلغه التحريم، ولم يكن قد اشتهرحتى كان زمن عمر رضي الله عنه، فلما وقع فيها النزاع، ظهر تحريمها واشتهر، وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها، وبالله التوفيق.

وفي قصة الفتح من الفقه: جواز إجازة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانيء لحمويها.

وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجرو كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد، ولحق بمكة فلما كان يوم الفتح، أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه. فأمسك عنه طويلاً، ثم بايعه، وقال: إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضهم، فيضرب عنقه فقال: له رجل: هل أومأت إلي يا رسول الله؟

فقال: «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»(١) .

فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه، وهجرته، وكتابة الوحي، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه، وكان رسول الله ﷺ يريد قتله فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخوه في الرضاعة، لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياء من عثمان، ولم يبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله، فهابوا رسول الله ﷺ أن يقدموا على قتله بغير إذنه، واستحى رسول الله ﷺ عثمان، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبايعه، وكان ممن استثنى الله بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩]

وقوله ﷺ : «ما ينبغي لنبى يأن تكون له خائنة الأعين » .

أي: أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه، ولاسره علانيته، وإذا نفذ حكم الله وأمره

---

(١) أبو داود (٢٦٨٣) (٤٣٥٩) والنسائي (٧/ ١٠٥، ١٠٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٣٤).

لم يوم به، بل صرح به وأعلنه وأظهره(١) وكان مما قيل من الشعر في فتح مكة قول حسان بن ثبات، وذكر هشام أنه قالها قبل الفتح:

عفت ذات الأصابع فالجواءُ ... إلى عذراء منزلها خلاء
دياراً من بني الحجاسِ قفز ... تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنين ... خلال مروجها نعم وشاءُ
فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشساء اتي قد تميته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرنا يومًا ... فهذا لطيب الراح الفسداء
تواليها الملامة إن المنى ... إذا ما كان مغش أو كساء
ونشر بها فتتركنا ملوكًا ... وأسدًا ما ينهينها اللقاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع (٢) موعدها كداءُ
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد اليوم ... يعز الله فيها من يشاء
وجبيرل رسول اله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق أن نصنع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندًا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤٢ ـ ٤٦٥).
(٢) موضع قرب مكة .

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
آلا بلغ أبا سفيان عني ... مغلغةً (١) فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبدُ الدار سادتها الاماء
هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذلك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخير كما الفداء
هجوت مباركًا برًا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويحمده وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاءُ
لسان صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء (٢)

وقول ابن هشام: إن حسان قال هذا الشعر قبل الفتح ظاهر في غير، شيء من مقتضياته، ومن ذلك: مقاولته لأبي سفيان وهو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ. وقد أسلم قبل الفتح في طريق رسول الله ﷺ إلى مكة كما تقدم. وكذلك ذكر ابن عقبة أن حسان قاله في مخرج رسول الله ﷺ إلى مكة. وأن رسول الله ﷺ لما دخل مكة نظر إلى النساء يلطمن الخيل بالخمر، فالتفت إلى أبي بكر، فتبسم لقول حسان في ذلك: يلطمهن بالخمر النساء (٣) .

(١) رسالة محمولة من بلد إلى بلد . (٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩). (٣) انظر مغارى الواقدى (٢/ ٨٣١).

غزوة حنين

أسبابها وأحداث المعركة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين ، وخضعت له قريش خافت هوازن وثقيف وقالوا : قد فرغ محمد لقتالنا ، فلنفره قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على هذا ، وولوا عليهم مالك بن عوف النضرى ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف ، وبنى هلال ، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب وكان معهم دريد بن الصمة ، وكان معروفا بشدة البأس فى الحرب وأصالة الرأى ، إلا أنه كان كبيرًا فلم يكن له إلا الرأى والمشورة .

وكان رأى مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذرارى والأموال حتى لا يفروا ، فلما علم بذلك دريد فسأله : لم ذلك ؟ فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال دريد : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك؟ ولكنه لم يستمع لمشورته (١) .

* أولاً : أهم أحداث غزوة حنين :

تحرك المسلمون باتجاه حنين فى اليوم الخامس من شوال ووصلوا حنين فى مساء العاشر من شوال (٢) ، وقد استخلفت الرسول ﷺ عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه ، وكان عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألفًا من المسلمين ، أما عدد هوازن وثقيف ، فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر ، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ودخل الإعجاب فى النفوس . السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧)

أ ـ التعبئة التى اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف :

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة عالية مرت بمراحل :

١ ـ رفع الروح المعنوية لدى جنوده :

وقف مالك خطيبًا فى جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال ، ومما قال فى هذا الجمع الحاشد : إن محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا ، لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم . مغازى الواقدى (٣/ ٨٩٣)

---

(١) السيرة لابن هشام (٤/ ٨٨) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠) .

٢ ـ حشر ذرارى المقاتلين وأموالهم خلف الجيش :

أمر قائد هوازن بحشد النساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم ، وقد قصد من وراء هذا التصرف ، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم ، لأن المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا أشعر أن أعز ما يملك وراءه فى ميدان المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفًا وراءه فى ميدان المعركة ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : افتتحنا مكة ، ثم غزونا حنينا فجاء المشركون حنين صفوف رأيت ، قال : فصفت الخيل ثم صفت المقاتلة ، ثم صفت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم . رواه مسلم (١٣٦)

٣ ـ تجريد السيوف وكسر أجفانها :

جرت عادة العرب فى حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال ، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت ، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقًا لهذا ، بدليل قولهم ، إذ أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا رجل واحد عليهم . الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٨ ـ ٤٩)

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم :

كانت عند مالك بن عوف النصرى معلومات وافية عن الأرض التى ستدور عليها المعركة ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه ، فعمل بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة فى نصب الكمائن لجيوش المسلمين ، وقد كادت هذه الخطة أن تقضى على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وغايته .

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة فى الهجوم على المسلمين :

كان ضمن الخطة التى رسمها القائد الهوزانى الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين ، لأن النصر فى الغالب يكون للمهاجم ، أما المدافع غالبًا ما يكون فى مركز الضعف ، ولهذا أتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت ، ثم انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثم بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم .

٦ ـ شن الحرب النفسية ضد المسلمين :

كان من ضمن بنود الخطة الحربية التى رسمها القائد مالك بن عوف الهوزانى ، استعمال سلاح معنوى ، له تأثير كبير فى النفوس ، فقد شن الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف فى نفوسهم ، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التى صحبها معه فى الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء ، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل ، وهو ليس كذلك .

ب ـ خطوات الرسول ﷺ لصد هذه الحشود :

لما بلغ النبى ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة ـ شرفها الله ـ قام بالآتى :

١ ـ أرسل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى حتى يوافيه بخبر هوازن :

فذهب ﷺ ومكث بينهم يومًا أو يومين ثم عاد وأخبر النبى ﷺ بما رأى .

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء ، إلا أنه قصر رضي الله عنه فى أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك ، وكان من أهم ما يجب أن يعنى به معرفة مواقع المشركين التى احتلوها وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التى نصبها الأعداء فى منحنيات الوادى حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا فى الجولة الأولى ، فكان بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين فى أول المعركة وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح فى العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ ، لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى وإنما هو من باب الاجتهاد فى الأمور العسكرية وقد بذل النبى ﷺ جهده فى سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكى يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمحاربة العدو .

٢ ـ عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح :

أعد رسول الله ﷺ جيشًا قوامه عشرة آلاف وهم من خرجوا معه من المدينة وألفان من مسلمة الفتح فكان عدد من خرج فى تلك الغزوة أثنى عشر ألفًا ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بزراريهم ونعمهم ومع النبى ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء وهم ألفان (١) ، وسعى ﷺ لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة ، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا وتكفل ﷺ بالضمان وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم ، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبى ﷺ ، قال : إذا أتتك رسلى فأعطهم ـ أو قال فادفع إليهم ـ ثلاثين درعًا ، وثلاثين بعيرًا ، أو أقل من ذلك فقال له : العارية مؤداة يا رسول الله ، قال : فقال النبى ﷺ : « نعم » (٢) ، وفى رواية أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين درعًا فقال : أغصبًا يا محمد ؟ قال : « لا » ، بل عارية مضمونة ، قال : فضاع بعضها ففرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له ، فقال : أنا اليوم يا رسول الله فى

---

(١) مسلم (١٣٥) .

(٢) أبو داود (٣٥٦٦) .

الإسلام أرغب . قال أبو داود : وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم . رواه أبو داود (٣٥٦٢)

٣ ـ ثباته ﷺ وأثره فى كسب المعركة :

سبقت هوازن المسلمين إلى وادى حنين ، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم فى شعابه، ومنعطفاتها ، وأشجارها ، وكانت خطتهم تتمثل فى مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم فى وادى حنين المنحدر .

لقد باغت المشركون المسلمين وأمرطهم الأعداء من جميع الجهات ، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم فى بعض ، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفراز ، كل يطلب النجاة لنفسه ، وبقى الرسول ﷺ ونفر قليل فى الميدان يتصدون لهجمات المشركين ، ونترك العباس عم الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول : شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه ، ورسول الله ﷺ على بغلة له ، بيضاء ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار ، قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع فقال رسول الله ﷺ: « **أبى عباس ؟ ناد أصحاب السمرة** » [١] ، فقال العباس ، ـ وكان رجلاً صيًا ـ فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السمرة ؟ قال فوالله ؟ لكن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك ؟ قال فاقتلوا الكفار ، والدعوة فى الأنصار، يقولون : يا معشر الأنصار ؟ يا معشر الأنصار ، قال : ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث من الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: « **هذا حين حمى الوطيس** » مسلم (١٧٧٢)

لقد أيد الله نبيه ﷺ يوم حنين بأمور منها :

* **نزول الملائكة من السماء .**

* **سلاح الرعب** . انظر صيح السيرة النبوية ص٥٥٩

تأثير قبضتى الحصى والتراب فى أعين الأعداء :

من الأسلحة المادية التى أيد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتى الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين ، حيث دخل فى أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب ، فصار كل واحد يجد لها فى عينيه أثرًا ، فكان من أسباب هزيمتهم قال

---

(١) مسلم (١٧٧٥) .

العباس رضي الله عنه : ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار . ثم قال : «انهزموا ورب محمد» ، قال : فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئة فيما أرى قال : فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبرًا . رواه مسلم(١٧٧٥)

*** ثانيًا : مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف :**

أ ـ قال أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه :

لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقى دريد بن الصمة ، فقتل دريد ، وهزم الله أصحابه . قال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر ، فرمى أبو عامر فى ركبته ، رماه جشمى بهم فأثبته بركبته . فانتهيت إليه فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار إلى أبى موسى فقال : ذاك قاتلى الذى رمانى ، فقصدت له ، فلحقته فلما رآنى ولى ، فأتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحى ، ألا تثبت فكف .

فاختلفا ضربتين بالسيف فقلته ، ثم قلت لأبى عامر : قتل الله صاحبك . قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء . قال : يا ابن أخى ، أقرئ النبى ﷺ السلام وقل له : استغفر لى . واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا ثم مات . فرجعت فدخلت على النبى ﷺ فى بيته على سرير مرمل ، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر وقال : قل له استغفر لى ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لعبيد أبى عامر » ، ورأيت بياض إبطيه .

ثم قال : « **اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس** » ، فقلت : ولى فاستغفر ، فقال : « **اللهم اغفـــر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا** » .

قال أبو بردة : إحداهما لأبى عامر ، والأخرى لأبى موسى . البخارى (٤٣٢٣)

ب ـ محاصرة الفارين إلى الطائف :

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف واستخدم أساليب متنوعة فى القتال والحصار ومارس الشورى ، واختار المكان المناسب عند الحصار ، واستخدم الحرب النفسية والدعاية فى صفوف الأعداء ومن هذه الأساليب :

١ - استخدمه ﷺ أسلوبًا جديدًا فى القتال :

استعمل النبى ﷺ فى حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق أن استعملها من قبل وهذه الأسلحة هى :

* المنجنيق :

فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف . فعن مكحول رضي الله عنه : أن النبى ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه ، فبحجارته تهدم الحصون والأبراج وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات ، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود فى إدارته واستخدامه عند القتال .

* الدبابة :

ومن أسلحة الحصار الثقيلة التى استعملها الرسول ﷺ لأول مرة فى حصار الطائف: الدبابة والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد ينقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمى .

* الحسك الشائك :

من الأسلحة الجديدة التى استعملها الرسول ﷺ فى حصاره لأهل الطائف الحسك الشائك وهو من وسائل الدفاع الثابتة ، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب ، حتى تتألف منها أربعة شعب مدببة ، وإذا رمى فى الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة ، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة فى ميدان القتال .

وقد ذكر أصحاب المغازى والسير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح فى حصاره لأهل الطائف ، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف (١) وفى هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا ، والمسلمين عمومًا أن لا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الإستفادة من النافع والجديد الذى يحقق للأمة المصلحة الدارين ، ويدفع عنها شرور أعدائها .

* اخـتيار رسول الله ﷺ مكان مناسب عند القتال :

نزل الجيش فى مكان مكشوف قريب من الحصن وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون وحينئذ عرض لحباب ابن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف ، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلف الحباب لكونه من ذوى الخبرات الحربية الواسعة

---

(١) الطبقات (٢/ ٢١٤) .

فى هذا المجال بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند ، فذهب ﷺ ثم حدد المكان المناسب وعاد فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فأمر النبى ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد وهذا شاهد عيان يحدثنا عن ما رأى قال عمرو بن أمية الضمرى ﷺ : لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شىء الله به عليهم كأن رجل جراد وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين الجراحة ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال : « **انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم** » ، فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية ، فجاء إلى النبى ﷺ فأخبره ، فأمر النبى ﷺ أن يتحولوا . مغازى الواقدى (١/ ٤١٦)

٣ ـ استخدام الحرب النفسية والدعاية :

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبى ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل فى ضواحى الطائف للضغط على ثقيف ثم أوقف هذا العمل بعد أثره فى معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة ، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرحم أن يترك هذا العمل ووجه النبى ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفى فأسلموا ، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامها . السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٠)

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار :

كانت حكمة رسول الله ﷺ فى رفع الحصار واضحة فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها ، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية ، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها ، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك ، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله فى عملية الحصار فقال نوفل بن معاوية الديلى ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ، ولم يفتح علينا ، الطائف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فاعذوا على القتال » فعذوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا قافلون غدًا إن شاء الله » ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك [١] ، فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : « قولوا : آيبون ، تائبون، عابدون لربنا حامدون [٢] » ، وقيل يا رسول الله : ادع الله على ثقيف فقال : « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » [٣] .

---

(١) مسلم (١٧٧٨) (٢) زاد المعاد (٣/ ٤٩٧) .

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٩٧) صحيح السيرة النبوية ص٥٦٦ .

ذكر الغزوة في القرآن

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده.

وقوله: ﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع موطن والموطن هو ما استوطنت فيه. وكل الناس مستوطنون في الأرض، وكل جماعة منا تحيز مكانًا في الأرض ليكون وطنًا لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذي هو الأرض، التي هي موطن البشرية كلها، والناس موزعون عليها.

والمعنى: أن الله سبحانه قد نصركم في مواطن الحرب: أي مواقعها مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بني النضير، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه في هذه الآية يخص يومًا واحدًا بالذكر بعد الكلام عن الأيام الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين في يوم حنين كان ظرفًا خاصًا أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا بكثرتهم، ولم يختالوا بذلك.

إذن: ففي يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب. وهذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، وليس معطوفًا على ﴿مَوَاطِنَ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها، لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن في بقية المواطن.

وكلمة ﴿مَوَاطِنَ﴾ ظرف مكان، و﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥] ظرف زمان، فكيف أجاز أن يعطف طرف الزمان على ظرف المكان؟ هذا هو ما يسميه العرب (إحتباك) لأن كل حدث مثل أكل، وشرب، وضرب، وذاكر، لابد له من زمان

ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ في الصباح، أو في الظهر أو في العشاء؟ وأين؟ في البيت، أو في الفندق، أو عند أحد الأصدقاء.

إذن... فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة، ظرفية مكان حدوثِ الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل.

فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت في البيت ولم أسألك عن موعد الأكل صباحًا، أو ظهرًا أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية.

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان في الظرفية، ولكنهما يختلفان فالمكان ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء. والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان في الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت في الآية هنا بالإثنين، ظرف المكان في قوله تعالى ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وظرف الزمان في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان في كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان من ناحية وظرف الزمان من ناحية ثانية، وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثاني، وحذف من الثاني ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين» أي: جاء بالإثنين هنا. وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣].

فما دامت الأخرى ﴿كَافِرَةٌ﴾ تكون الأولى مؤمنة ولكن حذفت «مؤمنة» لأن «كافرة» تدل عليها وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله، فالفئة الأخرى الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان. وحذفت في سبيل الشيطان، لأن ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلت عليها، ولذا على المؤمن الذي يستمع إلى كلام الله تعالى أو يقرأه لابد له أن يكون له أذان صاغية وعقل واع حتى يعرف وينتبه إلى أن ما حذف من الأولى تدل عليه الثانية.

إذن: فيكون ظرف الزمان موجودًا في واحدة، وظرف المكان موجودًا في واحدة، وكلاهما يدل على الآخر.

والمثال على ذلك أن بعد أن انتهت غزوة الأحزاب، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر رلا في بني قريظة»(١) .

فانطلق المسلمون دون أن يستريحوا إلى بني قريظة، وهم اليهود الذين خانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة: إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلي العصر، فصلوا.

وقال الآخرون منهم: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلي العصر إلا في بني قريظة ولم يصلوا حتى وصلوا إلى هناك.

إن كلا الفريقين استخدم المنطق، لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذي نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذي حدده رسول الله ﷺ؛ لم يصل. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين على اجتهادهما في: ظرفية الزمان، وظرفية المكان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ .

حنين هو موضع في واد بين مكة والطائف، تجمع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيبع قيمة هذا النصر.

الغنائم وسيلة لتأليف القلوب

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك، العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء.

---

(١) الاكتفاء (٢/ ٢٨٧ ـ ٣١٦).

قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي.

قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجل من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا آتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار قال:

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد فأثنى عليه بالذي هو له أهل. ثم قال: «يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم».

قالوا: بل الله ورسوله آمن وأفضل.

قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ، ولله ولرسوله المن والفضل؟

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم»، أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فأويناك، وعائلاً فأغنيناك(١) .

أي: أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهي:

أنه نقلهم من الضلالة إلى الهدى.

ومن الفقر إلى الغنى.

ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع فضائل، وهي:

أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة.

وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئًا، فأعطاهم الأنصار من أموالهم.

وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمنه الأنصار.

وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

---

(١) سبق تخريجه.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ في ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أي: إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذي قلته أبدًا، لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا، بل الإيمان هو الذي أعطاهم.

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ: بل المنة لله ولرسوله، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء [(١)] والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ في رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فلما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكوا حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا بالله وبرسوله قسمًا وحقًا [(٢)] . وانتهت المسألة.

وهكذا نرى أنه حين يأتي مقارنة بين شيئين، لابد أن نتفاخر بالشيء الدائم الباقي الذي حصلنا عليه، أما الشيء الذي مآله إلى فناء فإن من ليس معه، يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيشن بدونه، ولكن لا أحد يستغني عن الإيمان، نستغني عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا، وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاءته وفود هوزان وهو بالجعرانة.

فقالوا: يا محمد، إنا أهل وعشيرة، فمن علينا، يمن الله عليك، فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك.

فقال: «اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم».

قالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، نختار أبناءنا.

فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذ صليت الظهر فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ على المؤمنين، وبالمؤمنين على رسول الله ﷺ في نسائنا وأبنائنا».

قال: فعلوا.

---

(١) أي الشياه وهي الأغنام .

(٢) رواه مسلم (١٠٦١) أحمد (٣ / ٧٦) وانظر السيرة لابن هشام (٤ / ١٤٦) .

فقال: رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم».

وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار مثل ذلك، وقال عيينة بن بدر: أما ما كان لي ولبني فزارة فلا، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقال الحيان: كذبت! بل هو لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ردوا عليهم نسائهم وأبناءهم، فمن تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه الله علينا».

ثم ركب راحلته، وتعلق به الناس، يقولون: اقسم علينا فيئنا بيننا، حتى ألجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه، فقال: «يا أيها الناس ردوا على ردائي، فو الله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم، ثم لا تلقوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا».

ثم دنا من بعيره، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى، ثم رفعها، فقال: «يا أيها الناس، ليس لي من هذا الفيء ولا هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فردوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارًا أو نارًا وشنارًا».

فقام رجل معه كبة من شعر، فقال: إني أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لي دبر، قال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك».

فقال الرجل: يا رسول الله أما إذا بلغت ما أرى فلا أرب لي بها، ونبذها(١).

وقد وردت روايات من أن الملائكة نزلت وثبتت المؤمنين، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم شاهدوا كائنات جياد بلق (٢) ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم.

فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق في القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك كيفية وجوده.

---

(١) أحمد (٢/ ١٨٤) وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٢٩) وإسناده صحيح.

(٢) بلق: هى السوداء التى ارتفع البياض إلى أفخاذها.

وهناك أشياء كثيرة في الكون، وموجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود.

وليس معني عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الإكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة. لكننا لم ندرك وجودها ولا كيفية عملها.

فالكهرباء مثلاً كانت موجودة في الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها.

والميكروبات أيضًا كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة في كون الله منذ خلقه الله تعالى.

ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الجود شيئا؛ ولذلك إذا حدثت بشيء لا يستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئًا، ثم إذن. . . فوجود الشيء يختلف تمامًا عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٢٦] كلمة: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ تعطي العذر لكل من لم ير، ويكفي أن الله تعالى قال هذا ليكون حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وحين كان يقال لنا: إن لله خلقًا هم الجن، كما أن له خلقًا آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم. كان البعض يقف موقف الاستنكار. كذلك قال لنا رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»(١).

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجري منها مجرى الدم؟! وعندما تقدمنا في العلم التجريبي واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم في العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله الجسم؟

---

(١) البخاري (٢٠٣٥) مسلم (٢١٧٥).

بالطبع لا، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغًا لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لا ندري عنه شيئًا، ويدخل إلى الدم ويجري في العروق ونحن لا نَحس بشيء من ذلك.

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿وأَنزلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

فإن قال واحد: إنه رآها، وقال آخر: لم أر شيئًا، نقول: إن قول الحق: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: لم تروها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يراها.

وقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل أو بالأسر أو سلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أن مالحق بهم من هزيمة كان جزاء لهم على كفرهم ـ ولكن البعض يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة في القتال؟

نقول: إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة في أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذابًا، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتي الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة، والشاعر يقول:

كما أدركت قومًا عطاشًا غمامة فلما رأوها أقشعت [1] وتجـلت

فحين تمر سبحانه على قوم يعانون من شدة العطش، هم يأملون أن تمطر عليهم، لكن الأمل يتبدد تمامًا كالمسجون الذي يعاني من عطش شديد، فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك.

وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب

---

(١) انقشعت وذهبت عن وجه السماء.

بيده ونفسه تمتليء فرحًا.

وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة.

وهذا أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلامًا للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذابًا.

وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً، جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء وبذلك تجتمع لهم فجيعتان: فجيعة الإيجاب، وفجيعة السلب.

ثم تأتي لمحة الرحمة التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، فيفتح سبحانه الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧].

وهذه هي عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائمًا لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية؛ لأن الذي يكفر والذي يعص لا يضر الله شيئًا، ولكنه يضر نفسه.

دروس وعبر

قال ابن القيم (كان الله عز وجل قد وعد رسوله وهو صادق الوعد أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجًا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوزان ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكن غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله سبحانه ورسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين.

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة

عددهم، وعددهم، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسًا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعًا رأسه منحنيًا على فرسه، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته، واستكانة لعزته، أن أحل له حرمه وبلده، ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: «لن نغلب اليوم عن قلة».

أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره، فلا غالب له، ومن يخذله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئًا، فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم، أرسلت إليها خلع الجبر مع بريد النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم تروها وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الإنكسار: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص٥ـ٦].

ومنها: أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهبًا، ولا فضة، ولا متاعًا، ولا سبيًا، ولا أرضًا كما روى أبو داود، عن وهب بن منبه، قال: سألت جابرًا: هل غنموا يوم الفتح شيئًا؟ قال: لا(١) .

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب، وهم عشرة آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم، ونعمهم. وشائهم، وسبيهم معهم نزلاً، وضـيافة، وكرامة، لحزبه وجنده، وتمم تقديره سبحانه بأن أطعمهم في الظفر، وألاح لهم مبادىء النصر، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائم لأهلها، وجدت فيها سهام الله ورسوله ، قيل لا حاجة لنا فى دمائكم ولا نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبـحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاؤا مسلمين.

فقيل: إن من شكر إسلامكم وإتيانكم، أن ترد عليكم نساؤكم وأبناءكم وسبيكم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ

---

(١) أبو داود (٣٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦١٢).

ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر، فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسهما مع المسلمين في هاتين الغزوتين. والنبي ﷺ رمى وجوه المشركين بالحصباء فيهما.

وبهاتين الغزوتين طفئت حمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين.

الأولى: خوفتهم وكسرت من حدهم.

والثانية: استفرغت قواهم، واستنقدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم، وعزفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم به طاقة، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم، لأكلهم عدوهم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى.

وفيها: من الفقه أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم بحنين.

ومنها: أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشرك.

ومنها: أن من تمام التوكل إستعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلاً، وإنما كانوا يلقون عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] وكثيرًا ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ في العلم يستكشل هذا، ويتكايس في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليمًا للأمة، وتارة بأن هذا كان قبل نزول الآية.

ووقعت في مصر مسالة سأل عنها بعض الأمراء وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه الكبير» أن رسول الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة

المسمومة لا يأكل طعامًا قدم له حتى يأكل منه من قدمه.

قالوا: وفي هذا أسوة للملوك في ذلك. فقال قائل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه قد ضمنَ له العصمة، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه.

وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث. وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها، ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العطمة، لا ينافي تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلف، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس، ولا ينافيه كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله، ويعليه، لا يناقض أمره بالقتال، وإعداد العدة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد، والحذر، والإحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحروب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة، وري بغيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مفضية إلى ذلك، مقتضية له، وهو ﷺ أعلم بربه، وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته، ويظهر دينه، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المآكل والمشرب، والملبس والمسكن، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء، وزعم أنه لا فائدة فيه، لأن المسؤول إن كان قد قدر ناله ولابد، وإن لم يقدر، لم ينله، فأي فائدة في الاشتغال بالدعاء؟.

ثم تكايس في الجواب، بأن قال: الدعاء عبادة فيقال لهذا الغالط: بقي عليك قسم آخر ـ وهو الحق ـ أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه، حصل له المطلوب، وإن عطل السبب، فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول: إن كان الله قد قدر لي الشبع، فأنا أشبع، أكلت أو لم آكل، وإن لم يقدر لي الشبع، لم أشبع أكلت أو لم آكل، فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه، وبالله التوفيق.

وفيها: أن النبي ﷺ شرط لصفوان في العارية الضمان، فقال: «بل عارية مضمونة»

فهل هذا إخبار من شرعه فى العارية ، ووصف لها بوصف شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمان كما يضمن المغصوب، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه: أني ضامن لك تأديتها عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه : أنى ضامن لك تأويتها ، وأنها لا تذهب بك أردها إليك بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

فقال الشافعي وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف. وقال أبو حنيفة ومالك بالثاني، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل في مذهب مالك، وهو أن العين إن كانت مما لا يغاب عليه، كالحيوان والعقار، لم تضمن بالتلف إلا أن يظهر كذبه، وإن كانت مما يغاب عليه كالحلي ونحوه، ضمن بالتلف إلا أن يأتي ببينة تشهد على التلف، وسر مذهبه أن العارية أمانة غير مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه لا يقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرق بين ما يغاب عليه، وما لا يغاب عليه.

ومأخذ المسألة أن قوله ﷺ لصفوان: «بل عارية مضمونة».

هل أراد به أنها مضمونة بالرد أو بالتلف؟ أي: أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردها، وهو يحتمل الأمرين، وهو في ضمان الرد أظهر لثلاثة أوجه:

أحدها: أن في اللفظ الآخر: «بل عارية مؤداة». فهذا يبين أن قوله: «مضمونة» ، المراد به: المضمونة بالأداء.

الثاني: أنه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله هل تأخذها مني أخذ غصب تحول بيني وبينها؟

فقال: «لا بل أخذ عارية أؤديها إليك».

ولو كان سأله تلفها وقال: أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول: أنا ضامن لها إن تلفت.

الثالث: أنه جعل الضمان صفة لها نفسها، ولو كان ضمان تلف، لكان الضمان لبدلها، فلما وقع الضمان على ذاتها، دل على أنه ضمان أداء.

فإن قيل: ففي القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبي ﷺ أن يضمنها، فقال: أنا اليوم في الإسلام أرغب، قيل: هل عرض عليه أمرًا واجبًا أو أمرًا جائزًا مستحبًا الأولى فعله، وهو من مكارم الأخلاق والشيم، ومن محاسن الشريعة؟

وقد يترجح الثاني بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجبًا، لم يعرض عليه، بل كان يفي له به، ويقول: هذا حقك، كما لو كان الذاهب بعينه موجودًا، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده فتأمله.

وفيها: جواز عقر فرس العدود ومركوبه إذا كان ذلك عونًا على قتله، كما عقر على رضي الله عنه جمل حامل راية الكفار، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه.

وفيها: عفو رسول الله ﷺ عمن هم بقتله، ولم يعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد كأنه ولي حميم.

ومنها: ما ظهر في هذه الغزوة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشيبة بما أضمر في نفسه، ومن ثباته، وقد تولى عنه الناس، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب [١]

وقد استقبلته كتائب المشركين.

ومنها: إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته في لك القبضة، حتى ملأت أعين القوم [٢]، إلى غير ذلك من معجزاته فها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدو، جهرة ورآهم بعض المسلمين.

ومنها: جواز إنتظار الإمام بقسم الغنائم الإسلام الكفار ودخولهم في الطاعة، فيرد علهيم غنائهم وسبيهم، وفي هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تملك بالقسمة لا بمجرد الإستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء، لم يستأذن بهم النبي ﷺ ليردها عليهم، وعلى هذا فلو مات أحد من الغانمين قبل القسمة، أو إحرازها بدار الإسلام، رد نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته، وهذا مذهب أبي حنيفة، لو مات قبل الإستيلاء لم يكن لورثته شيء، ولو مات بعد القسمة، فسهمه لورثته.

وهذا العطاء الذي أعطاه النبي ﷺ لقريش، والمؤلفة قلوبهم، هل هو من أصل الغنيمة أو من الخمس ـ أو من خمس الخمس؟

فقال الشافعي ومالك: هو من خمس الخمس، وهو سهمه ﷺ الذي جعله الله له من الخمس، وهو غير الصفي وغير ما يصبه من المغنم، لأن النبي ﷺ لم يستأذن الغانمين في تلك العطية.

---

(١) مسلم (١٧٧٥) وانظر صحيح السيرة النبوية ص ٥٥٩ .

(٢) مسلم (١٧٧٥) .

ولو كان العطاء من أصل الغنيمة، لاستأذنهم لأنهم ملكوها بحوزها والاستيلاء عليها، وليس من أصل الخمس، لأنه مقوم على خمسة، فهو إذا من خمس الخمس.

وقد نص الإمام أحمد على أن النفل يكون من أربعة أخماس الغنيمة، وهذا العطاء هو من النفل، نفل النبي ﷺ، رؤوس القبائل والعشائر ليتألفهم به وقومهم على الإسلام، فهو أولى بالجواز من تنفيل الثلث بعد الخمس، والربع بعده، لما فيه من تقوية الإسلام وشوكته وأهله، واستجلاب عدوه إليه هكذا وقع سواء كما قال بعض هؤلاء الذين نفلهم: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الخلق إلى، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلى فما ظنك بعطاء قوي الإسلام وأهله، وأذل الكفر وحزبه، واستجلب به رؤوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا، غضب لغضبهم أتباعهم، وإذا رضوا رضوا لرضاهم.

فإذا أسلم هؤلاء، لم يتخلف عنهم أحد من قومهم، فالله ما أعظم موقع هذا العطاء، وما أجداه وأنفعه للإسلام وأهله.

ومعلوم: أن الأنفال لله ولرسوله يقسمها رسوله حيث أمره لا يتعدى الأمر، فلو وضع الغنائم بأسرها في هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة، لما خرج عن الحكمة والمصلحة والعدل، ولما عميت أبصار ذي الخويصرة التميمي وأضرابه عن هذه المصلحة والحكمة.

قال له قائلهم: إعدل فإنك لم تعدل.

وقال مشبهه: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، ولعمر الله إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله، ومعرفته بربه، وطاعته له، وتمام عدله، وإعطائه لله، ومنعه لله، ولله سبحانه أن قسم الغنائم كما يحب، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة، وقد أوجفوا عليه بخيلهم وركابهم، وله أن يسلط عليها نار من السماء تأكلها وهو في ذلك كله أعد العادلين، وأحكم الحاكمين، وما فعل ما فعله من ذلك عتبًا ولا قدره سدى، بل هو عين المصلحة والحكمة والعدل والرحمة، مصدره كمال علمه، وعزته وحكمته، ورحمته، ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله ﷺ يقودونه إلى ديارهم، وأرضى من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير كما يعطي الصغير ما يناسب عقله ومعرفته، ويعطي العاقل اللبيب ما يناسبه، وهذا فضله، وليس هو سبحانه تحت حجر أحد من خلقه، فيوجبون عليه بعقولهم، ويحرمون، وسوله منفذ لأمره.

فإن قيل: فلو دعت حاجة الإمام في وقت من الأوقات إلى مثل هذا مع عدوه، هل يسوغ له ذلك؟

قيل: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم، وقيام الدين.

فإن تعين ذلك للدفع عن الإسلام، والذب عن حوزته، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساغ له ذلك، بل تعين عليه، وهل تجوز الشريعة غير هذا، وإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين، بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين. وبالله التوفيق.

وفيها: أن النبي ﷺ قال: «من لم يطيب نفسه، فله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا».

ففي هذا دليل على جواز بيع الرقيق، بل الحيوان بعضه ببعض نسيئة ومتفاضلاً.

وفي «السنن» من حديث عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ أمره أن يجهز جيشًا، فنفدت الإبل، فأمره أن يأخذ على قلائص الصدقة، وكان يأخذ البعير بالبعيرين إلى إبل الصدقة (١).

وفي «السنن» عن ابن عمر، عنه ﷺ أنه نهى عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، ورواه الترمذي من حديث الحسن عن سمرة وصححه (٢).

وفي الترمذي من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «الحيوان إثنان بواحد لا يصلح نسيئًا، ولا بأس به يدًا بيد».

قال الترمذي: حدث حسن (٣).

فاختلف الناس في هذه الأحاديث، على أربعة أقوال، وهي روايات عن أحمد:

---

(١) أحمد (٧٠٢٥) وأبو داود (٣٣٥٧) وضعفه الألبانى وافى المشكاة (٢٨٣٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٣٥٦) والترمذي وابن ماجه (٢٢٧٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٤١).

(٣) الترمذي (١٢٣٨) وابن ماجه (٢٢٧١) وصححه الألباني صحيح ابن ماجه (١٨٤٢).

أحدها: جواز ذلك متفاضلا، ومتساويًا، نسيئة، ويدًا بيد، وهو مذهب أبي حنيفة، والشافعي.

والثاني: لا يجوز ذلك نسيئة، ولا متفاضلاً.

والثالث: يحرم الجمع بين النساء والتفاضل، ويجوز البيع مع أحدهما، وهو قول مالك رحمه الله.

والرابع: إن اتحد الجنس جاز التفاضل، وحرم النساء، وإن اختلف الجنس، جاز التفاضل والنساء.

وللناس في هذه الأحاديث والتأليف بينها ثلاثة مسالك:

أحدها: تضعيف حديث الحسن عن سمرة، لأنه لم يسمع منه سوى حديثين ليس هذا منهما وتضعيف حديث الحجاج بن أرطاة.

والمسلك الثاني: دعوي النسخ، وإن لم يتبين المتأخر منهما من المتقدم، ولذلك وقع الاختلاف.

والمسلك الثالث: حملها على أحوال مختلفة، وهو أن النهي عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، إنما كان لأنه ذريعة إلى النسيئة في الربويات، فإن البائع إذا رأى ما في هذا البيع من الربح لم تقتصر نفسه عليه، بل تجره إلى البيع الربوي كذلك، فسد عليهم الذريعة، وأباحه يدًا بيد، ومنع من النساء فيه وما حرم للذريعة يباح للمصلحة الراجحة، كما أباح من المزانـة العرايا للمصلحة الراجحة، وأبى ما تدعو إليه الحاجة منها، وكذلك بيع الحيوان باليحوان نسيئة متفاضلاً في هذه القصة.

وفي حديث ابن عمر إنما وقع في الجهاد، وحاجة المسلمين إلى تجهيز الجيش، ومعلوم أن مصلحة تجهيزه أرجح من المفسدة في بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، والشريعة لا تعطل المصلحة الراجحة لأجل المرجوحة، ونظير هذا جواز لبسَ الحرير في الحرب، وجواز الخيلاء فيها، إذ مصلحة ذلك أرجح من مفسدة لبسه، ونظير ذلك لبسه القباء الحرير الذي أهداه له ملك أيلة ساعة، ثم نزعه للمصلحة الراجحة في تأليفه وجبره، وكان هذا بعد النهي عن لباس الحرير، كما بيناه مستوفي في كتاب «التخيير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير» وبينا أن هذا كان عام الوفود سنة تسع، وأن النهي عن لباس الحرير كان قبل ذلك، بدليل أنه

نهى عمر عن لبس الحلة الحرير التي أعطاه إياها، فكساها عمر أخًا له مشركًا بمكة، وهذا كان قبل الفتح ، ولباسه ﷺ هدية ملك أيلة كان بعد ذلك، ونظير هذا نهيه ﷺ عن الصلاة قبل طلوع الشمس، وبعد العصر، سدًا لذريعة التشبه بالكفار، وأباح ما فيه مصلحة راجحة من قضاء الفوائت، وقضاء السنن، وصلاة الجنازة وتحية المسجد، لأن مصلحة فعلها أرجح من مفسدة النهي. والله أعلم.

وفي القضية دليل على أن المتعاقدين إذا جعلا بينهما أجلاً غير محدود، جاز إذا اتفقا عليه ورضيا به، وقد نص أحمد على جوازه في رواية عنه في الخيار مدة غير محدودة، أنه يكون جائزًا حى يقطعاه، وهذا هو الراجح، إذ لا محذور في ذلك، ولا عذر، وكل منهما قد خل على بصيرة ورضى بموجب العقد، فكلاهما في العلم به سواء، فليس لأحدهما مزية على الآخر، فلا يكون ذلك ظلمًا.

وفي هذه الغزوة أنه قال: «**من قتل قتيلاً، له عليه بينة فله سلبه**»(١) .

وقاله في غزوة أخرى قبلها ، فاختلف الفقهاء، هل هذا السلب مستحق بالشرط أو بالشرع؟

على قولين، هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: أنه له بالشرع، شرطه الإمام أو لم يشرطه، وهو قول الشافعي.

والثاني: أنه لا يستحق إلا بشرط الإمام، وهو قول أبي حنيفة.

وقال مالك رحمه الله: لا يستحق إلا بشرط الإمام بعد القتال، فلو نص قبله، لم يجز.

قال مالك: ولم يبلغنى أن النبي ، قال ذلك إلا يوم حنين، وإنما نفل النبي ﷺ بعد أن برد القتال.

ومأخذ النزاع أن النبي ﷺ كان هو الإمام، والحاكم،والمغنى، وهو الرسول، فقد يقول الحكم بمنصب الرسالة، فيكون شرعًا عامًا إلى يوم القيامة كقوله: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» (٢) .

---

(١) البخاري (٤٣٢١) مسلم (١٧٥١).

(٢) مسلم (١٧١٨) والبخاري ونحوه.

وقوله: «من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء، وله نفقته»(١) .

وقوله : «بالشاهد واليمين»(٢)

و «وبالشفعة فيما لم يقسم»(٣)

وقد يقول بمنصب الفتوى، كقوله لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد شكت إليه شح زوجها، وأنه لا يعطيها ما يكفيها: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(٤) .

فهذه فتيا لا حكم، إذ لم يدع بأبي سفيان، ولم يسأله عن جواب الدعوى، ولا سألها البينة.

وقد يقوله بمنصب الإمامة، في كون مصلحة للأمة في ذلك الوقت، وذلك المكان، وعلى تلك الحال ، فيلزم من بعده من الأئمة مراعاة ذلك على حسب المصلحة التى راعاها النبي ﷺ زمانًا ومكانًا وحالاً، ومن ها هنا تختلف الأئمة في كثير من المواضع التي فيها أثر عنه ﷺ ، كقوله ﷺ : «من قتل قتيلاً فله سلبه»(٥) .

هل قاله بمنصب الإمامة، في كون حكمه متعلقًا بالأئمة، أو بمنصب الرسالة والنبوة، فيكون شرعًا عامًا؟

وكذلك قوله: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»(٦) .

هل هو شرع عام لكل أحد، أذن فيه الإمام، أو لم يأذن، أو هو راجع إلى الأئمة، فلا يملك بالإحياء إلا بإذن الإمام؟ على القولين.

فالأول: للشافعي وأحمد في ظاهر مذهبهما.

والثاني: لأبي حنيفة وفرق مالك بين الفلوات الواسعة وما لا يتشاح فيه الناس، وبين ما يقع فيه التشاح، فاعتبر إذن الإمام في الثاني دون الأول.

---

(١) أحمد (٣/ ٤١٥، ٤/ ١٤١) وأبو داود (٣٤٠٣) وابن ماجه (٢٤٦٦) وصححه الألبانى فى صحيح أبو داود (٢٩٠٤).

(٢) مسلم (١٧١٢).

(٣) رواه أبو داود (٣٥١٤) وصححه الألبانى فى صحيح أبي داود (٣٠٠٠).

(٤) مسلم (١٧١٤) .

(٥) سبق تخريجه.

(٦) البخاري (٢٣٣٥).

وقوله ﷺ : «له عليه بينه» دليل على مسألتين :

إحداهما: أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر، لا تقبل في استحقاق سلبه.

الثانية: الإكتفاء في ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من غير يمين، لما ثبت في الصحيح عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين، فلما التقينا، كان للمسلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فاسرعت إليه حتى أتيته من ورائه، فضربته على حبل عاتقه، وأقبل على، فضمني ضمة، وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت، فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس؟

فقلت: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله ﷺ فقالك «من قتل قتيلاً له عليه بينة، فله سلبه».

قال: فقمت فقلت: من يشهد لي؟

ثم جلست، ثم قال مثل ذلك فقال: قضمت فقلت: من يشهل لي؟ ثم قال ذلك الثالثة، فقمت، فقال رسول الله ﷺ : «مالك يا أبا قتادة؟».

فقصصت عليه القصة فقال رجل من القوم، صدق يا رسول الله، وسلبُ ذلك القتيل عندي، فأرضه من حقه، فقال أبو بكر الصديق: لاها الله إذا إلا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه، فقال رسول الله ﷺ : «صدق فأعطه إياه».

فأعطاني فبعت الدرع، فابتعت به، مخرفًا في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام(١) .

وفي المسألة ثلاث أقوال، هذا أحدها، وهو وجه في مذهب أحمد.

والثاني: أنه لابد من شاهد ويمين، كإحدى الروايتين عن أحمد.

والثالث: وهو منصوص الإمام أحمد ـ أنه لابد من شاهدين، لأنهما دعوى قتل، فلا تقبل إلا بشاهدين.

وفي القصة دليل على مسألة أخرى، وهي أنه لا يشترط في الشهادة التلفظ «أشهد»

---

(١) مسلم (١٧٥١).

وهذا أصح الروايات عن أحمد في الدليل، وإن كان الأشهر عند أصحابه إلا الاشتراط، وهي مذهب مالك.

قال شيخنا: ولا يعرف عن أحد الصحابة والتابعين اشتراط لفظ الشهادة، وقد قال ابن عباس: شهد عندي رجال مرضيون، وارضاهم عندي عمر، أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر، وبعد الصبح.

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا له بلفظ أشهد، إنما كان مجرد إخبار. وفي حديث ماعز فلما شهد على نفسه أربع شهادات رجمه، وإنما كان من مجرد إخبار نفسه، وهو إقرار، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقوله: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقوله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وقوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

إلى أضعاف ذلك مما ورد في القرآن والسنة من إطلاق لفظ الشهادة على الخبر المجرد عن لفظ أشهد.

وقد تنازع الإمام أحمد وعلى بن المديني في الشهادة للعشرة بالجنة، فقال على: أقول: هم في الجنة، ولا أقول: أشهد أنهم في الجنة.

فقال الإمام أحمد: متي قلت: هم في الجنة، فقد شهدت. وهذا تصريح منه بأنه لا يشترط في الشهادة لفظ أشهد. وحديث أبي قتادة من أبين الحجج في ذلك.

فإن قيل: إخبار من كان عنده السلب إنما كان إقرارًا بقوله: هو عندي، ولس من الشهادة في شيء قيل: تضمن كلامه شهادة وإقرارًا بقوله: «صدق»، شهادة له بأنه قتله،

وقوله: هو «عندي» إقرار منه بأنه هو عنده، والنبي ﷺ إنما قضى بالسلب بعد البينة وكان تصديق هذا هو البينة.

وقوله ﷺ: «فله سلبه» دليل على أنه له سلبه كله غير مخمس، وقد صرح بهذا في قوله لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلاً: «له سلبه أجمع».

وفي المسألة ثلاث مذاهب، هذا أحدها:

والثاني: أنه يخمس كالغنيمة، وهذا قول الأرزاعي وأهل الشام، وهو مذهب ابن عباس لدخوله في آية الغنيمة.

والثالث: أن الإمام إذا استكثره خمسه، وإن استقل لم يخمسه وهو قول إسحاق، وفعله عمر بن الخطاب، فروى سعيد في «سننه» عن ابن سيرين، أن البراء بن مالك بارز مرزبان المرازبة بالبحرين، فطعنه، فدق صلبه، وأخذ سواريه وسلبه، فلما صلى عمر الظهر، أتى البراء في داره فقال: كنا لا نخمس السلب، وإن سلب البراء قد بلغ مالاً، وأنا خامسه، فكان أول سلب خمس في الإسلام سلب البراء، وبلغ ثلاثين ألفًا.

والأول: أصح، فإن رسول الله ﷺ لم يخمس السلب وقال: هو له أجمع، ومضت على ذلك سنته وسنة الصديق بعده، وما رآه عمر اجتهاد منه أداه إليه رأيه.

والحديث يدل على أنه من أصل الغنيمة، فإن النبي ﷺ قضى به للقاتل، ولم ينظر في قيمته، وقدره، واعتبار خروجه من خمس الخمس، وقال مالك: هو من خمس الخمس، ويدل على أنه يستحقه من يسهم له، ومن لا يسهم له من صبي وامرأة وعبد ومشرك وقال الشافعي في أحد قوليه: «لا يستحق السلب إلا من يستحق السهم» لأن السهم المجمع عليه إذا لم يستحق العبد والصبي والمرأة والمشرك فالسلب أولى، والأول أصح للعموم ولأنه جار مجرى قول الإمام: من فعل كذا وكذا أو دل على حصن أو جاء برأس فله كذا مما فيه تحريض على الجهاد والسهم مستحق بالحضور، وإن لم يكن منه فعل والسلب مستحق بالفعل فجرى مجرى الجعالة (١).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٧٧ ـ ٤٩٤).

غزوة الطائف

سار رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف في شوال، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته. وقد كانت ثقيف رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يكفيهم لسنة، فلما إنهزموا من أوطاس دخلوا الحصن وتهيأوا للقتال.

قال محمد بن شعيب، عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ثم سار رسول الله ﷺ حتى بلغ الطائف فحاصرهم، ونادى مناديه: من خرج منهم من عبيدهم فهو حر. فاقتحم إليه من حصنهم نفر، منهم أبو بكرة ابن مسروح أخو زياد من أبيه، فأعتقهم ودفع كل رجل منهم إلى رجل من أصحابه ليحمله ورجع رسول الله ﷺ حتى أتى على الجعرانة فقال «إني معتمر».

وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة وقال إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى، قالا: ثم سار رسول الله ﷺ إلى الطائف، وترك السبى بالجعرانة، وملئت عرش مكة منهم ونزل رسول الله ﷺ بالأكمة عند حصن الطائف بضع عشرة ليلة، يقاتلهم، وثقيف ترمي بالنبل، وكثرت الجراح، وقطعوا طائفة من أعنابهم ليغيظوهم بها، فقالت ثقيف: لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أولكم. واستأذنه المسلمون في مناهضة الحصن، فقال: ما أرى أن نفتحه، وما أذن لنا فيه.

وزاد عروة، قال: أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقطع كل رجل من المسلمين خمس نخلات أو جبلات من كرومهم. فأتاه عمر فقال: يا رسول الله، إنها عفاء لم تؤكل ثمارها. فأمرهم أن يقطعوا ما أكلت ثمرته، الأول فالأول. وبعث مناديًا ينادي: من خرج إلينا فهو حر.

وقال ابن إسحاق(١) : لم يشهد حنينًا ولا حصارَ الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان ابن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق.

ثم سار رسول الله ﷺ على نخلة إلى الطائف، وابتنى بها مسجدًا وصلى فيه. وقتل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٧٨).

ناس من أصحابه بالنبل، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم. وحاصرهم النبي ﷺ بعضًا وعشرين ليلة، ومعه امرآتان من نسائه؛ إحداهما أم سلمة بنت أبي أمية. فلما اسلمت ثقيف بني على مصلى رسول الله ﷺ أبو أمية بن عمرو بن وهب مسجدًا. وكان في ذلك المسجد سارية لا تطلع عليها الشمس يوما من الدهر؛ فيما يذكرون، إلا سمع لها نقيض. والنقَيض: صوت المحامل.

وقال يونس بن بكير، عن هشام بن سير، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أب نجيح السلمي، قال: حاصرنا مع رسول الله ﷺ قصر الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ سهم فله درجه في الجنة» . فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر»(١) .

وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أمها، قالت: كان عندي مُخَنث فقال لأخي عبد الله: إن فتح الله عليكمة الطائف غدًا، فإني أدلك على ابنة غيلان، فإنه تقبل بأربعة وتدبر بثمان. فسمع رسول الله ﷺ قوله فقال: «لا يدخلن هذا عليكم». متفق(٢) عليه بمعناه.

وقال الواقدي(٣) عن شيوخه: أن سلمان قال لرسول الله ﷺ: أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ـ يعني الطائف ـ فإنا كنا بأرض فارس ننصبه على الحصون، فإن لم يكن منجنيق طال الثواء، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقًا بيده، فنصبه على حصن الطائف. ويقال: قدم بالمنجنيق يزيد بن زمعة، ودبابتين، وياقل: الطفيل بن عمرو قدم بذلك. قال: فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، . فحرقت الدبابة.

فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها. فنادى سفيان بن عبد الله الثقفي: لم تقطع أموالنا؟ فإنما هي لنا أو لكم. فتركها.

---

(١) أحمد (٤/ ١٣، ٣٨٤) وأبو داود (٣٩٦٥) والترمذي (١٦٣٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٥٥).

(٢) البخاري (٤٣٢٤) مسلم(٢١٨٠).

(٣) المغازي (٣/ ٩٢٧).

وقال أبو الأسود، عن عروة من طريق ابن لهيعة: أقبل عيينة بن بدر حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال: ائذن لي أن أكلمهم، لعل الله أن يهديهم. فإذن له، فانطلق حتى إذا دخل الحصن، فقال: بأبي أنتم، تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لئن حدث به حدث لتملكن العرب عزًا ومنعة، فتمسكوا بحصنكم، ثم خرج فقال له النبي ﷺ: «ماذا قلت لهم؟» قال: دعوتهم إلى الإسلام، وحذرتهم النار وفعلت.

فقال: «كذبت، بل قلت كذا وكذا». فقال صدقت يا رسول الله، أتوب إلى الله وإليك.

أخبرنا محمد بن عبد العزيز المقريء سنه اثنين وتسعة وتسعين وستمائة، ومحمد بن أبي الحزم، وحسن بن على، ومحمد بن أبي الفتح الشيباني، ومحمد بن أحمد العقيلي، ومحمد بن يوسف الذهبي، وآخرون قالوا: أخبرنا أبو الحسن على بن محمد السخاوي، . وأخبرنا عبد المفيط بن عبد الرحمن، بالاسكندرية وقال: أخبرنا عبد الرحمن بن مكي.

وأخبرنا لؤلؤ المحسني، بمصر، وعلى بن أحمد وعلى بن محمد الحنبليان وآخرون، قالوا: أخبرنا عبد المطلب بن يوسف. وسمعته سنة اثنين وتسعين على عائشة بنت عيسى ابن الموفق، قالت: أخبرنا جدي أبو محمد بن قدامة سنة أربعة عشرة وستمائة حضورًا، قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدس، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي العباس، وعن عبد الله بن عمر قال: حاصر النبي ﷺ أهل الطائف فلم ينل منهم شيئًا. قال: إنا قافلون غدًا إن شاء الله. فقال المسلمون: أنرجع ولم نفتحه؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «اغدوا على القتال غدًا» فأصابهم جراح. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله» فأعجبهم ذلك. فضحك النبي ﷺ أخرجه[1] مسلم. عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان هكذا. وعنده: عبد الله بن عمرو في بعض النسَخ بمسلم.

وأخرجه البخاري[2]، عن ابن المديني، عن سفيان، فقال: عبد الله بن عمرو. قال البخاري: قال الحميدي، سمعت أبا العباس الأعمى، يقول: عبد الله بن عمر بن الخطاب.

---

(١) مسلم (١٧٧٨).

(٢) البخاري (٤٣٢٥).

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا ابن عيينة، فذكروه، وقال فيه: عبد الله بن عمرو.

ثم مال أبو بكر: وسمعت ابن عيينة يحدث به مرة أخرى، عن ابن عمر.

وقال المفضل بن غسان الغلالي، أظنه عن ابن معين. قال أبو العباس الشاعر، عن عبد الله بن عمرو، وابن عمر، في فتح الطائف: الصحيح ابن عمر.

قال: واسم أبي العباسي: السائب بن فروخ مولى بني كنانة ، وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة: أن النبي ﷺ ارتحل عن الطائف بأصحابه ودعا حين ركب قافلاً: «**اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم**».

وقال ابن إسحاق(١) : حدثني عبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن المكرم، عمن أدركوا.

قالوا: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريبًا من ذلك. ثم انصرف عنهم، فقدم المدينة، فجاءه وفدهم في رمضان فأسلموا قال ابن إسحاق: واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف: سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية وعرفطة بن حباب، وعبد الله ابن أبكر الصديق، رمي بسهم فمات بالمدينة في خلافة أبيه، وعبد بن أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي، أخو أم سلمة، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وكان يقال لأبي أمية، واسمه حذيفة : زاد الراكب، وكان عبد الله شديدًا على المسلمين، قيل هو الذي قال: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩].

وما بعدها، ثم أسلم قبل فتح مكة بيسير، وحسن إسلامه، وهو الذي قال له هيت المُخنث: يا عبد الله إن فتح الله عليكم بالطائف، فإنى أدلك على ابنة غيلان.. الحديث ـ وعبد الله بن عامر بن ربيعة، والسائب بن الحارث وأخوه: عبد الله، وجليحة بن عبد الله.

ومن الأنصار: ثابت بن الجذع ، والحارث بن سهل بن أبي صعصعة، والمنذر بن عبد الله، ورقيم بن ثابت.

فذلك اثنا عشر رجلاً، رضي الله عنهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٨٦).

ويروي(١) أن النبي ﷺ استشار نوفل بن معاوية الديلي في أهل الطائف، فقال: ثعلب فى جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك(١) .

قال ابن القيم فى الأحكام المستنبطة من الغزوة :

منها : جواز غزو الرجل وأهله معه ، فإن النبى ﷺ كان معه فى هذه الغزو أم سلمة وزينب .

ومنها : جواز نصب المنجنيق على الكفار ، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية .

ومنها: أن الإمام إذا حاصر حصنًا، ولم يفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه، لم يلزمه ومصابرته، وجاز له ترك مصابرته، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها.

ومنها: أنه أحرم من الجعرانة بعمرة، وكان داخلاً إلى مكة، وهذ هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف ولمن يليه ، وأما ما يفعله كثير من لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة، ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه ألبته، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس، زعموا أنه إقتدى بالنبي ﷺ وغلطوا، فإنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها، فهذا لون، وسنته لوْن، وبالله التوفيق.

ومنها: استجابة الله لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم، ويأتي بهم، وقد حاربوه وقاتلوه، وقتلوا جماعة من أصحابه وقتلوا رسول رسول الله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله فدعا لهم، ولم يدع عليهم وهذا من كمال رأفته، ورحمته، ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها: كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه والتحبب بكل ما يكون، ولذها ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي يبشره وفرحة

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ٩٣٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٧ ـ ٢١٢).

بذلك، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب، لا يصح. وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي ﷺ، وسألها عمر ذلك فلم تكره له السؤال ولا لها البذل، وعلى هذا في بيتها جواز النبي ﷺ وسألها عمر ذلك فلم تكره له السؤال ولا لها البذل، وعلى هذا، فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثر بمقامه في الصف الأول لم يكره هذا السؤال، ولا لذلك البذل، ونظائره ومن تأمل سيرة الصحابة. وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرم وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفريحا لأخيه المسلم وتعظيم لقدره، وإجابة له لما سأله، وترغيب له في الخير، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجح على ثواب تلك القربة، في كون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة، وأخذ أضعافها، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء أن يتوضأ ويتيمم هو إذا كان لابد من تيمم أحدهما، فآثر أخاه، وحاز فضيلة الإيثار وفضلية الطهر بالتراب، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة، وعاينوا التلف ومع بعضهم ماء، فآثر على نفسه، واستسلم للموت كان ذلك جائز، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرمًا، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بني أن يوثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل، ثم يؤثره بثوابها، وبالله التوفيق.

ومنها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحد، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البته، وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي آتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك، والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء فيها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته. وكثير منها بمنزلة اللات والعزي، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركًا عندها، وبها، والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلف وترزق، وتميت وتحي، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا مأخذهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر، بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

ومنها: جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تساق إليها كلها، ويصرفها على الجند والمقاتلة، ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات، وأعطاها لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا، وله أن يقطعها للمقاتلة، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين، وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيصرف فى مصالح المسلمين فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد، ولا قبر يسرج عليه ويعظم وينذر له، ويحج إليه، ويعبد من دون الله، ويتخذ وثنًا من دونه، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم.

ومنها: أن وادي وج - وهو واد بالطائف - حرم يحرم صيده، وقطع شجره، وقد اختلف الفقهاء في ذلك والجمهور قالوا: ليس في البقاع حرم إلا مكة والمدينة وأبو حنيفة خالفهم في حرم المدينة، وقال الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه: وج حرم يحرم صيده وشجره، واحتج بهذا القول بحديثين أحدهما هذا الذي تقدم.

والثاني: حديث عروة بن الزبير، عن أبيه الزبير، أن النبي ﷺ قال: «إن صيد وج وعضاهه حرم محرم لله» رواه الإمام أحمد وأبو داود (١).

---

(١) أحمد (١٤١٦) وأبو داود (٢٠٣٢) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٤٤١).

وهذا الحديث يعرف بمحمد بن عبد الله بن إنسان عن أبيه عن عروة. قال البخاري في تاريخه: لا يتابع عليه قلت: وفي سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه والله أعلم.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ودخلت سنة تسع، بعث المصدقين يأخذون الصدقات من الأعراب. قال ابن سعد: ثم بعث رسول الله ﷺ المصدقين ، قالوا: لما رأى رسول الله هلال المحرم سنة تسع، بعث المصدقين يصدقون العرب فبعث عيينة بن حصن إلى بني تميم، وبعث يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار، وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة ـ وبعث رافع بن مكين إلى جهينة وبعث الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب، وبعث بشر بن سفيان إلى بني كعب وبعث ابن اللتيبة إلى بني ذبيان،وأمر رسول الله ﷺ المصدقين أن يأخذوا العفو منهم، ويتوقوا كرائم أموالهم(١) .

قيل: ولما قدم ابن اللتيبة حاسبه(٢). وكان في هذا حجة على محاسبة العمال والأمناء، فإن ظهرت خيانتهم عزلهم، وولى أميناً(٣) .

(١) ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٠). (٢) البخاري (٧١٧٤) مسلم (١٨٣٢). .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٠) وانظر زاد المعاد (٣/ ٥٠٣ـ ٥٠٩).وصحيح السيرة النبوية ص٥٧٩.

غزوة تبوك

قال ابن إسحاق * ، عن عاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن رسول الله ﷺ قلما كان يخرج في غزوة إلا أظهر أنه يريد غيرها، إلا غزوة تبوك فإنه قال: أيها الناس، إني أريد الروم. فأعلمهم وذلك في شدة الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم.

فبينما رسول الله ﷺ ذات يوم في جهازه، إذا قال للجد بن قيس: «يا جد، هل لك في بنات بني الأصفر؟». فقال: يا رسول الله، لقد علم قومي أنه ليس أحدٌ أشد عجباً بالنساء مني، وإن أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتنني، فائذن لي يا رسول الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]. قال: وقال رجل من المنافقين: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] فنزلت ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ولم ينفق أحد أعظم من نفقة عثمان، وحمل على مئتي بعير قال عمرو بن مرزوق: حدثنا السكن بن أبي كريمة، عن الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خباب، قال: شهدت رسول الله ﷺ وحث على جيش العسرة، قال: فقام عثمان رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال ثم حث ثانية، فقام عثمان، فقال: يا رسول الله، على مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض أو قال: حث، الثالثة، فقام عثمان فقال، يا رسول الله ﷺ، على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال عبد الرحمن أنا شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول على المنبر: «ما على عثمان ماعمل بعد اليوم». أو قال: «بعده».(١) رواه أبو داود والطيالسي وغيره، عن السكن بن المغيرة.

وقال ضمرة، عن ابن شوذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن ابن سمرة، عن مولاه، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش

(*) السيرة لابن هشام (٢/ ٥١٥).

(١) الترمذي (٣٧٥٠) أحمد (٤/ ٧٥) وضعفه الألباني في المشكاة (٦٠٦٣).

العسرة، ففرغها في حجر النبيﷺ ، فجعل يقلبها ويقول: «ما عمل بعد اليوم». قالها مراراً.

وقال بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك. وذكر الحديث متفق عليه(١) .

وقال: روى عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، في غزوة تبوك، قال: أمر النبيﷺ المسلمين بالصدقة والنفقة في سبيل الله، فأنفقوا احتسابًا، وأنفق رجال غير محتسبين ـ وحمل رجال من فقراء المسلمين وبقي أناس. وأفضل ما تصدق به يومئذ أحد عبد الرحمن بن عوف تصدق بمئتي أوقية، وتصدق عمر بمائة أوقية، وتصدق عاصم الأنصاري، بتسعين وسقًا من تمر. وقال النبيﷺ لعبد الرحمن: «هل تركت لأهلك شيئًا؟» قال: نعم أكثر مما أنفقت وأطيب، قال: «كم؟» قال: ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير، رضى الله عنه(٢) .

وقال بن إسحاق: ثم إن رجالاً أتوا رسول اللهﷺ وهم البكاؤون، وهم سبعة، منهم من الأنصار: سالم بن عمير، وعليه بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحمام بن الجموح، وعبد الله بن المغفل، وبعضهم يقول: عبد الله بن عمرو المزني، وهرم ابن عبد الله، والعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول اللهﷺ ، وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]. فبلغني أن يامين بن عمرو، لقي أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ فقالا: جئنا رسول اللهﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج فأعطاهما ناضحًا له فارتحلاه وزودهما شيئًا من لبن.

وأما على بن زيد فخرج من الليل فصلى ما شاء الله، ثم بكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملنى عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو

---

(١) البخاري (٤٤١٥) مسلم (١٦٤٩).

(٢) كنز العمال (٤٤١٨) (٣٠٢٤٩).

عرض. ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة؟» فلم يقم أحد ثم قال: «أين المتصدق؟ فليقم». فقام إليه فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: «أبشر، فو الذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة»(١) و﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٠] فاعتذروا فلم يعذرهم الله. فذكر أنهم نفر من بني غفار. قال: وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ، حتى تخلفوا عن غير شك ولا ارتياب منهم كعب بن مالك أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع أحد بني عمرو بن سالم بن عوف. وهلال بن أمية أخو بنى واقف، وأبو خيثمة أخو بنى سالم بن عوف وكانوا رهط صدق.

ثم خرج رسول الله ﷺ الخميس، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. فلما خرج ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفًا من الناس. وضرب عبد الله بن أبي بن سلول عسكره على ذي حدة، عسكره أسفل منه، وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين. فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عنه ابن سلول فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب. وخلف رسول الله ﷺ على بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً وتخفيفًا منه. فلما قال ذلك المنافقون، أخذ على سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو نازل بالجرف، فقال: يا رسول الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني تستثقلني وتخفف مني، قال: «كذبوا، ولكن خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي». فرجع إلى المدينة(٢) .
وأخرجا في الصحيحين من حديث الحكم بن عتيبة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: خلف رسول الله ﷺ عليًا في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، أتخلفني في النساء والصبيان؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي» ورواه عامر، وإبراهيم، إبنا سعد بن أبي وقاص، عن أبيهما (٣) .

قال ابن إسحاق(٤) : حدثني بريدة بن سفيان، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن مسعود، قال لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك، جعل لا يزال يتخلف الرجل فيقولون: يا

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٥١٨). (٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٥١٩ .
(٣) البخاري (٤٤١٦) مسلم (٢٤٠٤).
(٤) السيرة لابن هشام (٢/ ٥٢٤).

رسول الله، تخلف فلان فيقول: **«دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»** حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره فقال **دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»**.

فتلوم أبو ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق.. فقال رسول اله ﷺ: **«كن أبا ذر»** فلما تأمله القوم قالوا: هو والله أبا ذر. فقال رسول الله ﷺ: **«يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»**. فضرب الدهر من ضربه، وسير أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه. إذا مت فاغسلاني وكفناني وضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به ذلك. فاطلع ركب، في رهط من أهل الكوفة. فقال: ما هذا؟ فقيل جنازة أبي ذر فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال صدق رسول الله ﷺ: **«يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»** فنزل، فوليه بنفسه حتى أجنه(١) .

وقال ابن إسحاق(٢) : حدثني عبد الله بن أبي بكر، أن أبا خيثمة، أحد بني سالم، رجع ـ بعد مسير رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في حائط قد رشت كل واحدة منها عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فقال: رسول الله في الضح والريح والحر، وأنا في ظل بارد وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، وفي مالي مقيم؟ ما هذا بالنصف، ثم قال: لا، والله، لا أدخل عرش واحدة منكما حتى ألحق رسول الله ، فهيئا لى زادًا ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله ـ ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، حتى أدركه بتبوك حين نزلها. وقد كان أدركه عُمير بن وهب في الطريق فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبوخيثمة لعمير: إن لي ذنبًا، تخلف عني حتى أتي رسول الله ﷺ. ففعل، فسار حتى دنا من رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: **«كن أبا خيثمة.»** فقالوا هو والله أبو خيثمة، فأقبل وسلم، فقال له **«أولى لك أبا خيثمة»**(٣)

---

(١) الحاكم (٣/ ٥٠، ٥١)وصححه ووافقه الذهبى لكنه قال : فيه إرسال .

(٢) ابن هشام (٢/ ٥٢٠).

(٣) مسلم (٢٧٦٩).

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له خيراً وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُروة. وقال موسى بن عقبة. فذكرا نحواً من سياق ابن اسحاق.

وقال معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: في قوله تعالى: ﴿اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، قال خرجوا في غزوة تبوك، الرجلان والثلاثة على البعير، وخرجوا في حر شديد، فأصابهم يومًا عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها ويشربون ماءها.

وقال مالك بن مغول، عن طلحة بن مصرف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير، فنفدت أزواد القوم، حتى هم أحدهم بنحر بعض حمائلهم.. الحديث رواه مسلم(١).

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبى هريرة، أو عن أبي سعيد، شك الأعمش، قال: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا، فأكلنا وادهنا. فقال: «أفعل». فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادع بفضل أزوادهم، وادع لهم فيها بالبركة. فقال: «نعم» فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا فضل أذوادهم. فجعل الرجل يأتي بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الأخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله، بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم - حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملآوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: **«أشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، لا يلقى الله بها عبدًا غير شاك فيحجب عن الجنة»** أخرجه مسلم(٢).

وقال عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير، عن ابن عباس، أنه قيل لعمر رضي الله عنه: حدثنا من شأن العسرة. فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر، يا رسول

---

(١) مسلم (٢٧ / ٤٤).
(٢) مسلم (٢٧ / ٤٥).

الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع الله لنا ـ قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعها حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت، فملأو ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر. حديث حسن قوي(١) .

وقال مالك، وغيره: عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم» يعني أصحاب الحجر. وقال سليمان بن بلال: حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: لما نزل رسول الله ﷺ الحجر، أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يسقوا منها. فقالوا: قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويريقوا ذلك الماء. أخرجها البخاري(٢) .

ولمسلم مثل الأول منها.

وقال عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ الحجر، فاستقوا من آبارها وعجنوا به فأمرهم أن يهرقوا الماء، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت الناقة ترده ـ أخرجه مسلم(٣) .

وقال مالك، عن أبي الزبير، عن أبي الطفيل، أن معاذ بن جبل أخبره أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك. ، فكان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء. قال: فأخر الصلاة يومًا، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل، ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي». قال فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض (٤) بشيء من ماء. فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مستما من مائها شيئًا؟» قالا: نعم. فسبهما، وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بما كثير، فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) ابن خزيمة (١٠١).
(٢) البخاري (٣٣٧٨، ٤٧٠٢) مسلم (٢٩٨١).
(٣) مسلم (٨/ ٢٩٨).
(٤) تسيل قليلا قليلا .

«يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما ها هنا قد ملىء جنانًا» أخرجه مسلم[١] .

وقال سليمان بن بلال، عن عمرو بن يحيى، عن عباس بن سهل، عن أبي حميد، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأتينا وادي القرى، على حديقة لا مرآة، فقال رسول الله ﷺ: «أخرصوها» . فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أواسق، وقال: «احصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله» فانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول اله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كن له بعير فليشد عقاله». فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء. وجاء ابن العلماء صاحب إيلة إلى رسول الله ﷺ بكتاب، وأهدى له بغلة بيضاء، فكتب إليه رسول الله ﷺ، وأهدى له بردًا. ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى، فسأل رسول الله ﷺ المرأة عن حديقتها كم بلغ ثمرها، فقالت: بلغ عشرة أواسق. فقال: «إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع».

فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة. فقال: «هذه طيبة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه». أخرجه مسلم أطول منه، وللبخاري[٢] نحوه وقال ابن إسحاق[٣] : حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن عباس بن سهل: أن رسول الله ﷺ وسلم حين مر بالحجر استقوا من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها، ولا توضأوا منه، وما كان من عجين عجنتموه منه فاعلفوه الإبل، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له».

ففعل الناس ما أمرهم، إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته والآخر لطلب بعير له. فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الآخر فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيء. فأخبر ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ألم أنهاكم» ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي. وأما الآخر فإنه وصل إلى رسول الله ﷺ حين قدم من تبوك. هذا

(١) مسلم (٧٠٦).
(٢) البخاري (٤٤٢٢) مسلم (١٣٩٢).
(٣) السيرة لابن هشام ٢/ ٥٢١).

مرسل منكر، وقال ابن وهب: أخبرني معاوية، عن سعيد بن غزوان، عن أبيه: أنه نزل بتبوك وهوحاج، فإذا رجل مقعد فسألته عن أمره فقال: سأحدثك حديثًا فلا تحدث به ما سمعت أني حي: إن رسول الله ﷺ نزل بتبوك إلى نخلة، فقال: «**هذه قبلتنا**». ثم صلى إليها. فأقبلت، وأنا غلام، أسعى حَتى مررت بينه وبينها، فقال: «**قطع صلاتنا قطع الله أثره**».

قال: فما قمت عليها إلى يومي هذا.

وقال سعيد بن عبد العزيز، عن مولى ليزيد بن نمران، عن يزيد بن نمران، قال: رأيت مقعدًا بتبوك، فقال: مررت بين يدي النبي ﷺ وأنا على حمار وهو يصلي. فقال: «**اللهم اقطع أثره**». فما مشيت عليها بعد. أخرجها أبو داود(١) .

قال البكائي، قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناس، يعني من يوم الحجر، ولا ماء معهم، دعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس. فحدثني عاصم، قال: قلت لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين؛ لما قال من أمر الحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك، هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة سائرة.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ سار، فضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له: عمارة بن حزم، وكان عقبيًا بدريًا، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي وكان منافقًا، فقال زيد، وهو في رحل عمارة: أليس يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن السماء وهو لا يدري ين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ، وعمارة عنده: «**إن رجلاً قال كذا وكذا. وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا، قد حبستها شجرة بزمامها**».

---

(١) أبو داود (٧٠٥، ٧٠٦) والبيهقى (٢/ ٢٧٥) والبخارى فى التاريخ (٨ / ٣٦٦) . وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٣٨، ١٣٩).

فذهبوا فجاؤا به. فذهب عمارة إلى رحله، فقال: والله عجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا، من مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ زيد، والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه، ويقول أي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر. اخرج أي عدو الله من رحلي. فزعم بعضهم أن زيدًا تاب بعد ذلك.

قال ابن إسحاق(١): وقد كان رهط، منهم وديعة بن ثابت، ومخشن حمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ، فيما بلغني، لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلي قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم. فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون فقال وديعة بن ثابت: يا رسول إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي واسمي واسم أبي. فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن، يعني: فسأل الله أن يقتله شهيدًا لا يعلم بمكانه. فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يحنه بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية. وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب لهم رسول الله كتابًا، فهو عندهم. وقال موسى بن عقبة: قال ابن شهاب: بلغ رسول الله في غزوة تلك تبوكًا ولم يتجازوها. وأقام بعض عشرة ليلة، يعني تَبوك وقال يحيى بن أبي كثير، عند محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن جابر، قال: قام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة أخرجه أبو داود (٢) . وإسناده صحيح.

---

(١) ابن هشام (٢ / ٤٢٥) .

(٢) أبو داود (١٢٣٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٠٩٤).

فائدة: قال ابن إسحاق: أعطى رسول الله ﷺ أهل أيلة بردة مع كتابه، فاشتراها منهم أبو العباس عبد الله بن محمد ـ يعني السفاح ـ بثلاثمائة دينار وقال يونس، عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك، رجل من كنده، وكان ملكًا على دومة وكان نصرانيًا. فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر». فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه منظر العين في ليلة مقمرة صافية، وهو على سطح ومعه امرأته، فأتت البقر تحك بقرونها، باب القصر. فقالت له. امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك مثل هذا؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسرج، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخوه حسان، فتلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته وقتل أخاه، وقدموا به على رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه على الجزية، وأطلقه (١) .

فائدة: قال عبيد الله بن إياد بن لقيط، عن أبيه، عن قيس بن النعمان السلولي؟ قال: خرجت خيل رسول الله ﷺ، فسمع بها أكيدر، فأتى النبي ﷺ، فقال: «بلغنا أن خيلك إنطلقت فخفت على أرضي، فاكتب لي كتابًا فإن مقر بالذي على. فكتب له». فأخرج قباء من ديباج مما كان كسرى يكسوها، فقال: يا محمد اقبل عني هذا، هدية، قال: «ارجع بقبائك فإنه ليس يلبس هذا أحد إلا حرمه في الآخرة ».

فشق عليه أن رده. قال: «فادفعه إلى عمر». فأتى عمر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أحدث في أمر؟ فضحك النبي ﷺ حتى وضع يده أو ثوبه، على فيه ثم قال: ما بعثت به إليك لتلبسه، ولكن تبيعه وتستعين بثمنه».

وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال لما توجه رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، بعث خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر دومة الجندل، فلما عهد إليه عهده، قال خالد: يا رسول الله، كيف بدومة الجندل، وفيها أكيدر، وإنما تأتيها في عصابة من المسلمين؟ فقال: «لعل الله يكفيكه». فسار خالد، حتى إذا دنا من دومة نزل في أدبارها. فبينما هو وأصحابه في منزلهم ليلاً، إذا أقبلت البقر حتى جلعت تحك بباب الحصن، وأكيدر يشرب ويتغنى بين امرأتيه فاطلعت إحداهما فرأت البقر، فقالت: لم أرى

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥٢٦) .

كالليلة في اللحم. فثار وركب فرسه، وركب غلمته وأهله، فطلبها، حتى مر بخالد وأصحابه فأخذوه ومن معه فأوثقوهم. ثم قال خالد لأكيدر أرأيت إن أجرتك تفتح لي دومة؟ قال: نعم. فانطلق حتى دنا منها، فثار أهلها وأرادوا أن يفتحوا له، فأبى عليهم أخوه. فلما رأى ذلك قال لخالد: أيها الرجل حلني، ولك الله لأفتحنها لك، إن أخي لا يفتحها ما علم أني في وثاقك، فأطلقه خالد، فلما دخل أوثق أخاه وفتحها لخالد، ثم قال اصنع ما شئت. فدخل خالد وأصحابه. ثم قال: يا خالد إن شئت حكمتك، وإن شئت حكمتني. فقال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت فأعطاهم ثمانمائة من السبى وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.

وأقبل خالد بأكيدر إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه يحنة بن رؤبة، عظيم أيلة. فقدم على رسول الله ﷺ وأشفق أن يبعث إليه كما بعث إلى أكيدر. فاجتمعا عند رسول الله ﷺ، وقضاهما على قضية، على دومة وعلى تبوك وعلى أيلة وعلى تيماء، وكتب لهم به كتابًا، ورجع قافلاً إلى المدينة.

ثم ذكر عروة قصة في شأن جماعة من المنافقين هموا بأذية رسول الله ﷺ فأطلعه الله على كيدهم، وذكر بناء مسجد الضرار.

وذكر ابن إسحاق(١) ، عن ثقة من بني عمرو بن عوف: أن رسول الله ﷺ أقبل من تبوك حتى نزل بذي أوان، بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتي فتصلي لنا فيه. فقال: إن على جناح سفر، فلو رجعنا إن شاء الله أتياكم. فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان، أتاه خبر السماء، فدعا مالك بن الدخسم ومعن بن عدي، فقال انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه. فخرجا سريعين حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيه من القرآن ما نزل.

وقال أبو الأصبغ عبد العزيز بن يحيى الحراني: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن حذيفة، قال: كنت آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوقه؛ أو قال عماره يقوده وأنا أسوفه؛ حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا بإثنى عشر راكبًا قد اعترضوه فيها، فأنبهت رسول الله ﷺ؛ فصرخ بهم فولوا مدبرين. فقال رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، قد كانوا ملثمين. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، أرادوا أن يزحموني في العقبة لأقع.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥٢٩) .

قلنا: يا رسول الله، أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا»، أكره أن يتحدث العرب أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

وقال قتادة ما عن أبي نضرة، عن قيس بن عباد، في حديث ذكره عن عمار بن ياسر، أن حذيفة حدثه عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقًا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»[1] . أخرجه مسلم .

وقال عبد الله بن صالح المصري: حدثنا معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة:١٠٧]، قال: أناس بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنو مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإن ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم، فأخرج محمد وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: نحب أن تصلي فيه. فنزلت: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ .

وقال ابن عيينة، عن الزهري، عن السائب بن يزيد، قال: اذكر أنا حين قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، خرجنا مع الصبيان نتلقاه إلى ثنية الوداع. أخرجه البخاري[2] .

وقال غير واحد، عن حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة، قال: «إن بالمدينة لأقوامًا ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ، إلا كانوا معكم فيه». قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر». أخرجه البخاري[3] .

قال شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب، أن بني قريظة كانوا حلفاء لأبي لبابة، فاطلعو إليه، وهو يدعوهم إلى حكم النبي ﷺ فقالوا: يا أبا لبابة، أتأمرنا أن ننزل؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك فقال له: «لم ترعيني؟» فقال له رسول الله ﷺ: «أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها

---

(١) مسلم (٢٧٧٩).
(٢) البخاري (٤٤٢٧).
(٣) البخاري (٤٤٢٣).

إلى حلقك؟» فلبث حينًا ورسول الله ﷺ عاتب عليه ثم غزا رسول الله ﷺ تبوكًا، فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف. فلما قفل رسول الله ﷺ جاءه أبو لبابة يسلم عليه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ففزع أبو لبابة، فارتبط بسارية التوبه، التي عند باب أم سلمة، سبعًا بين يوم وليلة، في حر شديد، لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة. وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله على. فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية. ثم تاب الله عليه فنودي: إن الله قد تاب عليك. فأرسل إليه رسول الله ﷺ ليطلق عنه رباطه، فأبي أن يطلقه عنه أحد إلا رسول الله ﷺ. فجاء فأطلق عنه بيده. فقال أبو لبابة حين أفاق: يا رسول الله ﷺ إني أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأنتقل إليك فأساكنك، وإن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. فقال: «يجزئ عنك الثلث». فهجر دار قومه وتصدق بثلث ماله ثم تاب فلم ير منه بعد ذلك في الإسلام لا خير، حتى فارق الدنيا ـ مرسل.

وقال ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله سبحانه وتعالى، ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال: هو أبو لبابة، إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمد يذبحكم إن نزلتم على حكمه. وزعم محمد بن إسحاق أن إرتباطه كان حينئذ. ولعله ارتبط مرتين. وقال عبد الله بن صالح: حدثني معاوية بن صالح، عن على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ ، في غزوة تبوك. فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ عليهم. فلما رآهم قال: « من هؤلاء؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم. قال: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين». فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فأنزلت: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

و﴿عَسَى﴾ من الله واجب.

فلما نزلت، أرسل عليهم فأطلقهم وعذرهم، ونزلت إذا بذلوا أموالهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وروى نحوه عطية العوفي، عن ابن عباس. وقال عقيل، عن ابن شهاب، وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أنا أباه.

قال: سمعت كعبًا يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر، أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها. حتى كانت تلك الغزوة غزاها في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبه غدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لايجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان. قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر، فتجهز والمسلمون معه.

وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردته. فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا. فقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعد أن فصلوا لا أتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر ذلك لي. فكنت إذا خرجت في الناس أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا[1] من النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء.

---

(١) متهما.

فلم يذكرني رسول الله ﷺ حتى تبوك، قال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ينظر في عطفه، فقال له معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا إلا إلى خيرًا.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من من تبوك حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعًا وثمانين رجل فقبل منهم رسول الله، علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله. فجئته فلما سلمت عليه تبسم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك!» فقلت: بلى، يا رسول الله، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبًا ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط على، ولئن حدثت حديث صدق تجد على فيه إني لأرجو عفو الله والله ما كان لي من عذر ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وسار رجال من بني سلمة فقالوا: لا والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، أعجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: والله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. ثم قلت هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهم مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع العمري، وَهلال بن أمية الواقفي.

فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس تغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسى الأرض فما هي التي أعرف، فلبسنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم،

فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ ، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى، فإذا إلتفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين تصورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فوالله ما رد. فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت له فسكت، فناشدته الثالثة، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلى. حتى جاءني فدفع إلى كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فإذ فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك قلت. وهذا أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها به.

حتى إذا مضى لنا أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ فقال إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها، أم ماذا أفعل بها؟ فقال: لا، بل اعتزلها فلا تقربها. وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر.

قال كعب : فجاءت امرأة هلال رسول الله ﷺ، فقالت: إن هلال شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا، ولكن لا يقربنك قالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي مند كان من أمره ما كان إلى يومي هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك؟ فقلت: لا والله، وما يدريني ماذا يقول لي رسول الله ﷺ إن استأذنته فيها، وأنا رجل شاب .فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة.

فلم أن صليت صلاة الفجر قبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفي على سلع (١) : يا كعب بن مالك، أبشر. فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء الفرج.

(١) اسم جبل معروف.

وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا ،حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون. وركض رجل إلى فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جائني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي فكسوتهما ببشراه ،والله لا أملك غيرهما يومئذ، واستعتر ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجًا يهنئونني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. وقال رسول الله ﷺ وسلم وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك، مذ ولدتك أمك**». فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا ، بل من عند الله** ». وكان رسول الله ﷺ إذا بشر ببشارة يبرق وجهه كأن قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى الرسول. قال: «**أمسك بعض مالك فإنه خير لك**»، فقلت: فإنى أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت: يا رسول الله، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق. وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث أحسن مما أبتلاني، وما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. فأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾ [التوبة:١١٧]. إلى قوله: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة:١١٩].

والله ما أنعم على من نعمة، بعد إذا هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ الا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي، شر ما قاله لأحد، فقال: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعب: كنا خلفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك، قال الله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ**

الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة:١١٨]، وليس الذي ذكر الله تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن تخلف واعتذر، فقبل منه رسول الله ﷺ. متفق عليه [(١)] [(٢)].

وقال ابن القيم في الأحكام المستنبطة من الغزوة:

فمنها: جواز القتال في الشهر الحرام إن كان خروجه في رجب محفوظًا [(٣)] على ما قاله ابن إسحاق، ولكن ها هنا أمر آخر، وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهر الحرام. بخلاف العرب؛ فإنها كانت تحرمه، وقد تقدم أن في نسخ تحريم القتال فيه قولين، وذكرنا حجج الفريقين.

ومنها: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه، ليتأهبوا له، ويعدوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكني عنه للمصلحة.

ومنها: أن الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كل واحد منهم الخروج معه، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين. والثاني إذا حضر العدو البلد، والثالث إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الجهاد بالنفس في القرآن وقرينه، بل جاء مقدمًا على الجهاد بالنفس في كل موضع، إلا موضعًا واحدًا، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس، ولا ريب أنه أحد الجهادين كما قال النبي ﷺ: من جهز غازيًا فقد غزا [(٤)] ، فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا يبذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد، فإن لم يقدر أن يكثر العدد، وجب عليه أن يمد بالمال والعدة، وإذ ا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن، فوجب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

ومنها: ما برز به عثمان بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسيق به الناس فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت. وما أعلنت، وما أخفيت، وما

(١) البخاري (٤٤١٨) مسلم (٢٧٦٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٢ _ ٢٥٧) .
(٣) انظر فتح البارى (١٦ / ٢٣٧) .
(٤) البخاري (٢٨٤٣) مسلم (١٨٩٥).

أبديت». ثم قال: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم» (١) وكان قد أنفق ألف دينار ثلاثمائة بعير بعدتها وأحلاسها وأقتابها.

ومنها: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده، ويتحقق عجزه. فإن الله سبحانه إنما نفي الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فخرجوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

ومنها: استخلاف الإمام - إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء. والمعذروين، والنساء، والذرية، ويكون نائبه من المجاهدين، لأنه من أكبر العون لهم، وكان رسول الله ﷺ يستخلف بن أم مكتوم، فاستخلفه بضعة عشرة مرة، وأما في غزوة تبوك. فالمعروف عند أهل الأثر أنه استخلف على بن أبي طالب، كما في «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص، قال: خلف رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه في غزوة تبوك، فقال يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا بني بعد»(٢) ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله ﷺ، وأما الإستخلاف العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفوا به، وقالوا: خلفه استثقالاً، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبي ﷺ، فأخبره، فقال: «كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك».

ومنها: جواز الخرص للرطب على رؤوس النخل، وأنه من الشرع، والعمل بقول الخارص، وقد تقدم في غزوة خيبر، وأن الإمام يجوز أن يخرص بنفسه، كما خرص رسول الله ﷺ حديقة المرأة.

ومنها: أن الماء الذي بآبار ثمود، لا يجوز شربه، ولا الطبخ منه، ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقي به البهائم إلا ما كان من بئر الناقة.

وكانت معلومة باقية إلى زمن رسول الله ﷺ، ثم استمر علم الناس بها قرنًا بعد قرن إلى وقتنا هذا، وفلا يرد الركوب بئرًا غيرها، وهي مطوية محكمة البناء، واسعة الأرجاء آثار العتق عليها بادية، لا تشتبه بغيرها.

---

(١) الترمذى (٣٧٠١) أحمد(٥/ ٦٣) والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٨٣). وحسنه الألبانى فى المشكاة (٦٠٦٤).

(٢) البخاري (٣٧٠٦) مسلم (٢٤٠٤).

ومنها: أن من مر بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لم ينبغ له أن يدخلها، ولا يقيم بها، بل يسرع السير، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها. ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبراً. ومن هذا إسراع النبي ﷺ السير في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ كان يجمع بن الصلاتين في السفر، وقد جاء جمع التقديم في هذه القصة في حديث معاذ، كما تقدم، وذكرنا علة الحديث ومن أنكره، ولم يجيء جمع التقديم عنه في سفر إلا هذا، وصح عنه جمع التقديم بعرقة قبل دخوله إلى عرفة، فإنه جمع بين الظهر والعصر في وقت الظهر، فقيل: ذلك لأجل النسك، كما قال أبو حنيفة. وقيل: لأجل الشغل، وهو اشتغاله بالوقوف، واتصاله إلى غروب الشمس. قال أحمد: يجمع للشغل، وهو قول جماعة من السلف والخلف وقد تقدم.

ومنها: جواز التيمم بالرمل. فإن النبي ﷺ وأصحابه، قطعوا الرمال التي بين المدينة وتبوك ولم يحملوا معهم ترابًا بلا شك، وتلك مفاوز معطشة شكوا فيها العطش إلى رسول الله ﷺ. وقطعًا كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها نازلون، هذا كله ما لا شك فيه مع قوله ﷺ وحيثما أدركت رجلاً من أمتي الصلاة، فعنده مسجده وطهوره(١) .

ومنها: أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفقت إقامته هذه المدة، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر. سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

وقد اختلف السلف والخلف في ذلك إختلافًا كثيرًا، ففي «صحيح البخاري»(٢) عن ابن عباس، قال: أقام رسول الله ﷺ في بعض أسفاره تسع عشرة ليلة يصلي ركعتين، فنحن إذا أقمنا تسع عشرة ليلة نصلي ركعتين، وإن زدنا على ذلك أتممنا، وظاهر كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح، فإنه قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمان عشرة ليلة زمن الفتح، لأنه أراد حنينًا، ولم يكن ثم أجمع المقام، وهذه إقامته التى

---

(١) أحمد (٥/ ٢٤٨). عن أبى أمامة .
(٢) البخاري (١٠٨٠).

راواها ابن عباس. وقال غيره: بل أراد ابن عباس مقامة بتبوك، كما قال جابر بن عبد الله: أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة، رواه الإمام أحمد في «مسنده»(١).

وقال عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة: أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ونتمها (٢).

وقال نافع: أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلي ركعتين،وقد حال الثلج بينه وبين الدخول (٣).

وقال حفصبن عبيد الله: أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلي صلاة المسافر(٤). وقال أنس: أقام أصحاب رسول الله ﷺ برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة. وقال الحسن: أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع. وقال إبراهيم: كانوا يقيمون بالرى السنة، وأكثر من ذلك، وسجستان السنتين فهذا هدي رسول الله ﷺ وأصحابه كما ترى، وهو الصواب.

وأما مذهب الناس، فقال الإمام أحمد: إذا نوى إقامة أربعة أيام، أتم، وإن نوي دونها، قصر، وحمل هذه الآثار على أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يجمعوا الإقامة ألبتة. بل كانوا يقولون: اليوم نخرج، غدًا نخرج وفي هذا نظر لا يخفى، فإن رسول الله ﷺ فتح مكة، وهي ما هي، وأقام فيها يؤسس قواعد الإسلام، ويهدم قواعد الشرك، ويمهد أمر ما حولها من العرب، ومعلوم قطعًا أن هذا يحتاج إلى إقامة أيام لا يتأتي في يوم واحد، ولا يومين، وكذلك إقامته بتبوك، فإنه أقام ينتظر العدو، ومن المعلوم قطعًا، أنه كان بينه وبينهم عدة مراحل يحتاج قطعها إلى أيام، وهو يعلم أنهم لا يوافون في أربعة أيام، وكذلك إقامة ابن عمر في أذربيجان ستة أشهر يقصر الصلاة من أجل الثلج ومن المعلوم أن مثل هذا الثلج لا يتحلل ويذوب في أربعة أيام بحيث تنفتح الطرق، وكذلك إقامة أنس بالشام سنتين يقصر وإقامة الصحابه برامهرمز سبعة أشهر يقصرون، ومن المعلوم أن مثل هذا الحصار والجهاد يعلم أنه لا ينقضي في أربعة أيام. وقد قال أصحاب أحمد: إنه

---

(١) أحمد (٣/ ٢٩٥). (٢) عبد الرزاق في المصنف (٤٣٣٩).
(٣) عبد الرزاق فى المصنف (٤٣٣٩) وصحح إسناده الحافظ فى التلخيص (٢/ ٤٧).
(٤) عبد الرزاق في المصنف (٤٣٥٢).

لو أقام لجهاد العدو، أو حبس سلطان، أو مرض، قصر، سواء غلب على ظنه بانقضاء حاجته في مدة يسيرة أو طويلة، وهذا هو الصواب، لكن شرطوا فيه شرطًا لا دليل عليه من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا عمل الصحابة. فقالوا: شرط ذلك إحتمال إنقضاء حاجته في المدة التي لا تقطع حكم السفر، وهي ما دون الأربعة أيام، فيقال، من أين لكم هذا الشرط، والنبي لما أقام زيادة لأربعة أيام يقصر الصلاة بمكة وتبوك لم يقل لهم شيئًا، ولم يبين لهم أنه لم يعزم على إقامة أكثر من أربعة، وهو يعلم أنهم يقتدون به في صلاته، ويتأسون به في قصرها في مدة إقامته، فلم يقل لهم حرفًا واحدًا، لا تقصروا فوق إقامة أربع ليال، وبيان هذا من أهم المهمات، وكذلك إقتداء الصحابة به بعده، ولم يقولو لمن صلى معهم شيئًا من ذلك.

وقال مالك والشافعي: إن نوى إقامة أكثر من أربعة أيام أتم، وإن نوى دونها قصر، وقال أبو حنيفة إن نوى إقامة خمسة عشر يومًا أتم، وإن نوى دونها قصر، وهو مذهب الليث بن سعد، وروى عن ثلاثة من الصحابة: عمر، وابنه، وابن عباس. وقال سعيد بن المسيب: إذا أقمت أربعًا فصل أربعًا، وعنه كقول أبي حنيفة. وقال على بن أبي طالب: إن أقام عشرًا، أتم وهي رواية عن ابن عباس.

وقال الحسن: يقصر ما لم يقدم مصرًا.

وقالت عائشة: يقصر ما لم يضع الزاد والمزاد.

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينظر قضاءها يقول: اليوم أخرج غدا أخرج، فإنه يقصر أبدًا، إلا الشافعي في أحد قوليه، فإنه يقصر عنده إلى سبعة عشر أو ثمانية عشر يومًا، ولا يقصر عندها. وقد قال ابن المنذر في «إشرافه»: أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يجمع إقامة وإن أتى عليه سنون.

ومنها: جواز، بل استحباب حنث الحالف في يمينه إذا رأى غيرها خيرًا منها. فيكفر عن يمينه، ويفعل الذي هو خير، وإن شاء قدم الكفارة على الحنث، وإن شاء أخرها.

وقد روى حديث أبو موسى هذا إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها وفي لفظ: «إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

وفي لفظ: إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني»(١) وكل هذه الألفاظ في

---

(١) البخاري (٦٦٢٣) مسلم (١٦٤٩).

الصحيحين، وهى تقتضي عدم الترتيب وفي السنن من حديث عبد الرحمن بن سمرة، عن النبي ﷺ «**إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، ثم ائت الذي هو خير**»(١) .

وأصله في الصحيحين، فذهب أحمد، ومالك، والشافعي إلى جواز تقديم الكفارة على الحنث، واستثنى الشافعي التكفير بالصوم، فقال: لا يجوز التقديم، ومنع أبو حنيفة تقديم الكفارة مطلقًا.

ومنها: إنعقاد اليمين: في حالة الغضب، إذا لم يخرج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفذ حكمه، وتصح عقوده، فلو بلغ به الغضب إلى حد الإغلاق لم تنعقد يمينه ولا طلاقه. قال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**»(٢) يريد الغضب.

ومنها: قوله ﷺ «**ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم**» وقد يتعلق به الجبري، ولا متعلق له به، وإنما هذا مث قوله: «**والله لا أعطي أحدًا شيئًا، ولا أمنع وإنما أنا قاسم أضع: حيث أمرت**»(٣) فإنه عبد الله ورسوله إنما يتصرف بالأمر، فإذا أمره ربه بشيء نفذه، فالله هو المعطي، والمانع، والحامل، والرسول منفذ لما أمر الله به. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فالمراد به القضية من الحصباء التي رمى بها وجوه المشركين، فوصلت إلى عيونهم، فأثبت الله سبحانه له بالرمي، باعتبار النبذ والإلقاء، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلى جميع المشركين، وهذا فعل الرب تعالى لا تصل إليه قدرة العبد، والرمي يطلق على الحذف وهو مبدؤه، وعلى الإيصال، وهو نهايته.

ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا، فهو توبة وإقلاع، وقد قال أصحابنا وغيرهم: من شهد عليه بالردة، فشهد أن لا

---

(١) أبو داود (٣٢٧٨) والنسائي (٧/ ١٠) ورواه البخاري ومسلم بلفظ مقارب.
(٢) صحيح أحمد (٦/ ٢٧٦) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) والحاكم (٢/ ١٩٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٩١٩)
(٣) البخاري (٣١١٧).

إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لم يكشف عن شيء عنه بعد ، وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الردة،كفاه جحدها. ومن لم يقبل توبة الزنديق، قال هؤلاء لم تقم عليهم بينة، ورسول الله ﷺ لا يحكم عليهم بعلمه والذي بلغ رسول الله ﷺ عنهم قولهم لم يبلغه إياه نصاب البينة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبدالله ابن أبي، وكذلك غيره أيضًا، إنما شهد عليه واحد.

وفي الجواب نظر، فإن نفاق عبد الله بن أبي، وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدًا، كالمتواترة عن النبي ﷺ وأصحابه وبعضهم أقر بلسانه، وقال: «إنما كنا نخوض ونلعب» وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله: إنك لم تعدل.

والنبي ﷺ لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل ما قامت عليهم بينة، بل قال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» (١) رواه البخاري.

فالجواب الصحيح إذن أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ. وجمع كلمة الناس عليه. وكان في قتلهم تنفير، والإسلام بعد في غربة، ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما ينفرهم عند الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختص بحال حياته ﷺ وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه: «أن كان ابن عمتك» (٢) وفي قسمه بقوله: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله وقول الآخر له: إنك لم تعدل، فإن هذا محض حقه، له أن يستوفيه وله أن يتركه، وليس للأمة بعده ترك إستيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه، ولا بد، ولتقرير هذه المسائل موضع آخر والغرض التنبيه والإشارة.

ومنها: أن أهل العهد والذمة إذا أحدث أحد منهم حدثًا فيه ضرر على الإسلام، انتقض عهده في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمه وماله هدر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة: فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه وهو لمن أخذه من الناس، وهذا لأنه بالإحداث صار محاربًا، حكمه حكم أهل الحرب.

ومنها: جواز الدفن بالليل كما دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً. وقد سئل أحمد

---

(١) سبق تخريجه. (٢) مسلم (٢٣٥٧).

عنه، فقال: وما بأس بذلك. وقال أبو بكر: دفن ليلاً، وعلى دفن فاطمة ليلاً. وقالت عائشة: سمعنا صوت المساحي من آخر الليل في دفن النبي ﷺ انتهى. ودفن عثمان، وعائشة، وابن مسعود ليلاً.

وفي الترمذي عن ابن عباس، أن النبي ﷺ دخل قبرًا ليلاً. فأسرج له سراج، فأخذه من قبل القبلة، وقال: «رحمك الله إن كنت لأواه تلاء للقرآن»(١) . قال الترمذي حديث حسن. وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ سأل عن رجل فقال: «من هذا؟».

قالوا فلان دفن البارحة فصلى عليه(٢) .

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ خطب يومًا فذكر رجلاً من أصحابه قبض فكفن في كفن غير طائل، وقبر ليلاً، فزجر النبى ﷺ أن يقبر الرجل بالليل حتى يصلي عليه إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك»(٣) . قال الإمام أحمد: إليه أذهب.

قيل: نقول بالحديثين بحمد الله. ولا نرد أحدهما بالآخر، فنكره الدفن بالليل، بل تزجر عنه إلا لضرورة أو لمصلحة راجحة، كميت مات مع المسافرين بالليل، ويتضررون بالإقامة به إلى النهار، وكما إذا خيف على الميت الإنفجار، ونحو ذلك من الأسباب المرجحة للدفن ليلاً. وبالله التوفيق.

ومنها: أن الإمام إذا بعث سرية ، فغنمت غنيمة أو أسرت أسيرًا أو فتحت حصنًا، كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه، فإن النبي ﷺ قسم ما صالح عليه أكيدر من فتح دومة الجندل بين السرية الذين بعثهم مع خالد، وكانوا أربعمائة وعشرين فارسًا، وكانت غنائمهم ألفى بعير وثمانمائة رأس ، فأصاب كل رجل منهم خمس فرائض، وهذا بخلاف ما إذا أخرجت السرية من الجيش في حال الغزو، فأصابت ذلك بقوة الجيش، فإن ما أصابوا يكون غنيمة للجميع بعد الخمس والنفل، وهذا هدية الرسول ﷺ .

ومنها: قوله ﷺ : إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم

---

(١) رواه الترمذي (١٠٥٧) وابن ماجه (١٥٢٠) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٤١).

(١) البخاري (١٣٤٠).

(١) مسلم (٩٤٣).

فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنه طائفة من الجهال أنهم معهم بأبدانهم، فهذا محال، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة، قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» وكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي القلب، واللسان، والمال، والبدن وفي الحديث: «جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم»(١) .

ومنها: تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلي فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له. وإذا كان هذا شأن المسجد الضرار، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق، كالحانات، وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات. وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بأكملها يباع فيها الخمر، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقًا، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضورهم الجماعة والجمعة(٢) ، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

ومنها: أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة، كما لا يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر، منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معًا، لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجدًا أو أوقد عليه سراجًا، فهذا من الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغربته بين الناس كما ترى.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٠٤) وأحمد (٣/ ١٢٤، ١٥٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٦).

(٢) مسلم (٦٥١).

ومنها: جواز إنشاد الشعر للقادم فرحًا وسرورًا به ما لم يكن معه محرم من لهو، كمزمار، وربابة، وعود، ولم يكن غناء يتضمن رضية الفواحش، وما حرم الله، فهذا لا يحرمه أحد، وتعلق أرباب السماع الفسقي به كتعلق من يستحل شرب الخمر المسكر قياسًا على أكل العنب، وشرب العصير الذي لا يسكر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا.

ومنها: استماع النبي ﷺ مدح المادحين له، وترك الإنكار عليهم، ولا يصح قياس غيره عليه في هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق، وقد قال: احثوا في وجوه المادحين التراب(١).

ومنها: ما اشتملت عليه قضية الثلاثة الذين خلفوا من الحكم والفوائد الجمة، فنشير إلى بعضها:

ومنها: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره، وفي ذلك من التحذير والنصيحة، وبيان طرق الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأمور.

ومنها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

ومنها: أن بيعة العقبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعبًا كان لا يراها دون مشهد بدر.

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يستر عن رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو، ويوري به عنه، استحب له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة.

ومنها: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة، لم يجز.

ومنها: أن الجيش في حياة النبي ﷺ لم يكن لهم ديوان، وأول من دون الديوان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من سنته التي أمر النبي ﷺ بإتباعها، وظهرت مصلحتها، وحاجة المسلمين، إليها.

---

(١) مسلم (٣٠٠٢).

ومنها: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في إنتهازها، والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها، والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الإستجابة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

ومنها: أنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة أما مغموص عليه في النفاق، أورجل من أهل الأعذار، أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة، أو خلفه لمصلحة.

ومنها: أن الإمام المطاع لا ينبغي له أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، فإن النبي ﷺ قال بتبوك. «ما فعل كعب؟» ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحًا له، ومراعاة وإهمالاً للقوم المخلفين.

ومنها: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية، أو ذبًا عن الله ورسوله، ومن هذا طعن أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواة، ومن هذا طعن ورثة الأنبياء وأهل السنة في أهل الأهواء والبدع لله لا لحظوظهم وأغراضهم.

ومنها: جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد أنه وهم وغلط، كما قال معاذ للذي طعن في كعب بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، ولم ينكر رسول الله ﷺ على واحد منهما.

ومنها: أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للمسلمين عليه، ثم ينصرف إلى أهله.

ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل

سريرته إلى الله، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره.

ومنها: ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحدث حدثًا تأديبًا له، وزجر لغيره، فإنه ﷺ لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المغضب.

ومنها: أن التبسم قد يكون عن الغضب كما يكون عن التعجب والسرور، فإن كلا منهما يوجب انبساط دم القلب وثورانه، ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه فينشأ عن ذلك السرور، والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم، فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه في وجهه، ولا سيما عند المغنية كما قيل:

إذا رأيت نيوب الليث بـارزة فلا تظنـن أن الليث مبتسم

ومنها: معاتبة الإمام المطاع أصحابه، ومن يعز عليه، ويكرم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرورية، فكيف بعتاب أحب الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرته، وأجل فائدته، ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات، وحلاوة الرضى، وخِلَع القبول.

ومنها: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم، وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب، فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارت المبادئ حلاوات في العواقب، وحلاوات المباديء مرارات في العواقب. وقول النبي ﷺ لكعب: «أما هذا، فقد صدق»، دليل ظاهر في التمسك بمفهوم اللقب عند قيام قرينه تقتض تخصيص المذكور للحكم كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

وقوله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وتربتها طهورً»(١) وقوله في هذا الحديث: «أما هذا فقد صدق»، وهذا مما لا شك فيه أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم.

---

(١) البخاري (٤٣٨).

وقوله كعب: هل في هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فيه أن الرجل ينبغي له أن يرد حر المصيبة بروح التأسي بمن لقي مثل ما لقي، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وهذا هو الروح الذي منعه الله سبحانه وتعالى أهل النار فيها بقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] وقوله: «فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة» هذا الموضع فما عدا من أوهام الزهري، فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازى والسير ألبتة ذكر هذين الرجلين فى أهل بدر لا ابن إسحاق ولا موسى بن عقبة ولا الأموى ولا الواقدى ولا أحد ممن عد أهل بدر، وكذلك ينبغي ألا يكونا من أهل بدر، فإن النبي ﷺ لم يهجر حاطبًا ولا عاقبه وقد جس عليه، وقال عمر لما هم بقتله: وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وأين ذنب التخلف من ذنب الجس قال أبو الفرج بن الجوزي: ولم أزل حريصًا على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهري، وذكر فضله وحفظه وإتقانه، وأنه لا يكاد يحفظ عليه غلط إلا في هذا الموضع، فإنه قال إن مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية شهدا بدرًا، وهذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه إنسان.

وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون، فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهوكريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: إذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد شرًا، أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فيرد يوم القيامة بذنوبه(١) .

وفيه دليل على هجران الإمام، والعالم، والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٢، ٢٣٩٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٤١، ١٩٥٣).

والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه.

وقوله: «**حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرف**» هذا التنكير يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض، وفى الشجر، والنبات حتي يجده فيمن لايعلم حاله من الناس، ويجده أيضًا المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلق زوجته وولده وخادمه ودابته، ويجده في نفسه أيضًا، فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه، ومن شفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراك هذا التنكير والوحشة وما لجرح بميت إيلام.

ومن المعلوم أن هذا التنكير والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلب إذا استحكم مرضه، واشتد ألمه بالذنوب والإجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامة الشقاوة، وأنه قد أيس من عاقبة هذا المرض، وأعيا الأطباء شفاؤه ، والخوف والهم مع الريبة، والأمن، والسرور مع براءة الذنب.

فما في الأرض أشجع من برئٍ ... ولا في الأرض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلى به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعًا عظيمًا من وجوه عديدة تفوت الحصر، ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة، وذوقة نفس ما أخبر به الرسول فيصير تصديقه ضروريًا عنده، ويصير ما نال من الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعته من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تتطرق إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل، فخالفته وسلكتها، فرأيت عين ما أخبرك به، فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له، وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها، ولم تجد من تلك المخاوف شيئًا، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً، فإن علمه بتلك يكون مجملاً.

ومنها: أن هلال بن أمية ومرارة قعدا في بيوتهما، وكان يصليان في بيوتهما، ولا يحضران الجماعة، وهذا يدل على أن هجران المسلمين للرجل عذر يبيح له التخلف عن الجماعة، أو يقال: من تمام هجرانه أنه لا يحضر جماعة المسلمين، لكن يقال فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبي ﷺ، ولا عتب عليهما على التخلف، وعلى هذا يقال: لما

أمر المسلمون بهجرهم تركوا: لم يؤمروا، ولم ينهوا، ولم يكلموا، فكان من حضر منهم الجماعة لم يمنع، ومن تركها لم يكلم، أو يقال: لعلهما ضعفا وعجزا عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنت أنا أجلد القوم وأشبهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.

وقوله: «وأتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟» فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب، إذ لو وجب الرد لم يكن بد من إسماعه.

وقوله: حتى إذا طال ذلك علي، تسورت جدار حائط أبي قتادة، فيه دليل على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك، وإن لم يستأذنه.

وفي قوله أبي قتادة له: الله ورسوله أعلم، دليل على أن هذا ليس بخطاب ولا كلام له، فلو حلف لا يكلمه، فقال مثل هذا الكلام جوابًا لم يحنث، ولاسيما إذا لم ينو مكالمته، وهو الظاهر من حال أبي قتادة.

وفي إشارة الناس إلى النبطي كان يقول: من يدل على كعب بن مالك دون نطقهم لهم تحقيق لمقصود الهجر، وإلا فلو قالوا له صريحًا: ذاك كعب بن مالك، لم يكن ذلك كلامًا له، فلا يكونون به مخالفين للنهي، ولكن لفرط تحريمهم وتمسكهم بالأمر، لم يذكروه له بصريح إسمه. وقد يقال: إن في الحديث عنه بحضرته وهو يسمع نوع مكالمه له، ولا سيما إذا جعل ذلك ذريعة إلى المقصود بكلامه، وهي ذريعة قريبة، فالمنع من ذلك من باب الحيل وسد الذرائع وهذا أفقه وأحسن.

وفي مكاتبته ملك غسان له بالمصير إليه إبتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبى ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمله الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسول الله وللمسلمين، ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاء يظهر لب الرجل وسره، وما ينطوي عليه، فهو كالكير الذي يخرج الخبيث من الطيب.

وقوله : فتيممت بالصحيفة التنور فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمر، وكالكتاب الذي

يخشى منه الضرر والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه. وكانت غسان إذ ذاك ـ وهم ملوك عرب الشام ـ حربًا لرسول الله ﷺ، وكانوا ينعلون خيولهم لمحاربته، وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى دار الإسلام وكتب معه إليه، قال شجاع: فانتهيت إليه وهو في غوطة دمشق، وهو مشغول بتهئية الأنزال والألطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يوم يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه ـ وكان روميًا اسمه مري يسألني عن رسول الله ﷺ، وكنت أحدثه عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فيرق حتى يغلب عليه البكاء، ويقول: إنى قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبي بعينه، فأنا أؤمن به وأصدقه، فأخاف من الحارث أن يقتلني وكان يكرمني، ويحسن ضيافتي.

وخرج الحارس يومًا فجلس، فوضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه ثم رمي به، قال: من ينتزع مني ملكي، وقال أنا سائر إليه ولو كان باليمين جئته، على بالناس، فلم تزل تعرض حتى قام، وأمر بالخيول تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خبري، وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: أن لا تسر ولا تعبر إليه، واله عنه، ووافني بإيلياء، فلما جاءه جواب كتابه، دعاني، فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غدًا، فأمر لي بمائة مثقال ذهبًا، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال: أقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام، فقدمت على رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «باد ملكه»، وأقرأته من حاجبه السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق» ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح، ففي هذه المدة أرسل ملك غسان يدعو كعبًا إلى اللحاق به، فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودينه.

في أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نسائهم لما مضى لهم أربعون ليلة، كالبشارة بمصدقات الفرج والفتح في وجهين:

أحدهما: كلامه لهم، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

والثاني: من خصوصية أمرهم بإعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد

والاجتهاد في العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذان بقرب الفرج، وأنه قد بقي من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة، أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الإعتكاف، وزمن الصيام في توفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمة بهم، وشفقة عليهم، وإذا لعلهم يضعف صبرهم عن نسائهم في جميعها، فكان من اللطف بهم والرحمة، أن أمروا بذلك في آخر المدة، كما يؤمر به الحاج من حين يحرم لا من حين يعزم على الحج.

وقول كعب لامرأته الحقي بأهلك دليل على أنه لم يقطع بهذه اللفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه. والصحيح: أن لفظ الطلاق والعتاق والحرية كذلك إذا أراد به غير تسييب الزوجة، وإخراج الرقيق عن ملكه، لا يقع به طلاق ولا عتاق، هذا هو الصواب الذي ندين الله به، ولا نرتاب فيه البته، فإذا قيل له: إن غلامك فاجر أو جاريتك تزني، فقال: ليس كذلك، بل هو غلام عفيف حر، وجارية عفيفة حرة، ولم يرد بذلك حرية العتق، وإنما أراد حرية العفة، فإن جاريته وعبده لا يعتقان بهذا أبدًا، وكذا إذا قيل له: كم سنة لغلامك عندك؟ فقال: هو عتيق عندي، وأراد قدم ملكه له، لم يعتق بذلك، وكذلك إذا ضرب امرأته الطلق، فسئل عنها، فقال: هي طالق، ولم يخطر بقلبه إيقاع الطلاق، وإنما أراد أنها في طلق الولادة، لم تطلق بهذا، وليست هذه الألفاظ مع هذه القرائن صريحة إلا فيما أريد بها، ودل السياق عليها، فدعوى أنها صريحة في العتاق والطلاق مع هذه القرائن مكابرة، ودعوى باطلة قطعًا.

وفي سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليل ظاهر أن تلك كانت عادة الصحابة، وهي سجود الشكر عند النعم المتجددة والنقل المندفعة، وقد سجد أبو بكر الصديق لما جاءه قتل مسيلمة الكذاب(١)، وسجد على بن أبي طالب لما وجد ذا الثُّديَّة مقتولاً في الخوارج(٢) وسجد رسول الله ﷺ حين بشره جبريل أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرًا، وسجد حين شعف لأمته، فشفعه الله فيهم ثلاث مرات، وأتاه بيشر فبشره بظفر

(١) رواه البيهقي (١/ ٣٧١).

(٢) رواه أحمد (٨٤٨) (١٢٥٤) وصححه الشيخ أحمد شاكر وقال إسناده صحيح.

جند له على عدوهم ورأسه في حجر عائشة، فقال فخر ساجدًا وقال أبو بكرة: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خر لله ساجدًا(١) وهي آثار صحيحة لا مطعن فيها.

وفي استباق صاحب الفرس والراقي على سلع ليبشرا كعبًا دليل على حرص القوم على الخير، واستباقهم إليه، وتنافسهم في مسرة بعضهم بعضًا وفي نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير، دليل على أن إعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم، وعادة الأشراف، وقد أعتق العباس غلامه لما بشره أن عند الحجاج بن علاط من الخبر عن رسول الله ﷺ ما يسره. وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه.

وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية والقيام إليه إذا أقبل، ومصافحته، فهذه سنة مستحبة، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية، وأن الأولى أن يقال له: ليهنك ما أعطاك الله، وما من الله به عليك، ونحو هذا الكلام، فإن فيه تولية النعمة وبها، والدعاء لمن نالها بالتهني بها.

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبو الله توبته، لقول النبي ﷺ: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك».

فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خير من يوم إسلامه؟ قيل: هو مكمل إسلامه، ومن تمامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته كمالها وتمامها والله المستعان.

وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة والرحمة بهم والرأفة، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه. وقول كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي. دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

وقوله رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله، لم يلزمه إخراج جميعه، بل يَجوز له أن يبقى له منه بقية، وقد اختلفت الرواية في ذلك، ففي الصحيحين، أن النبي ﷺ قال له: «امسك عليك بعض مالك» ولم يعين له قدرًا بل أطلق ووكله إلى اجتهاده في قدر الكفاية، وهذا هو الصحيح،

---

(١) أبو داود (٢٧٧٤) والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجه (١٣٩٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٤٣).

فإن ما نقص عن كفايته وكفاية أهله لا يجوز التصدق به، فنذره لا يكون طاعة، فلا يجب الوفاء به، وما زاد على قدر كفايته وحاجته، فإخراجه والصدقة به أفضل، فيجب إخراجه إذا نذره، هذا قياس المذهب، ومقتضى قواعد الشريعة، ولهذا تقدم كفاية الرجل، وكفاية أهله، على أداء الواجبات المالية، سواء كانت حقًا لله كالكفارات والحج، أو حقًا للآدميين كأداء الديون، فإننا نترك للمفلس ما لا بد منه من مسكن، وخادم، وكسوة، ، وآلة حرفة، أو ما يتجربه لمؤمنته إن فقد الحرفة. ويكون حق الغرماء فيما بقي. وقد نص الإمام أحمد على أن من نذر الصدقة بماله كله، أجزأه ثلثه، واحتج له أصحابه بما روي في قصة كعب هذه، أنه قال : يا رسول الله إن من توبتي إلى الله ورسوله أن أخرج من مالي كله إلى الله ورسوله صدقة، قال: «لا » قلت: فنصفه؟ قال: «لا» قلت: فثلثه؟ قال: «نعم» قلت فإنى أمسك سهمي الذي بخيبر. رواه أبو داود(١) .

وفي ثبوت هذا ما فيه، فإن الصحيح في قصة كعب بن مالك عنه أنه قال: «أمسك عليك بعض مالك» من غير تعيين لقدره، وهم أعلم بالقصة من غيرهم، فإنهم ولده، وعنه نقلوها.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما تاب الله عليه، قال : يا رسول الله! إن من توبتي أن أهجر دار قومي وأساكنك، وأن أنخلع من مالي صدقة لله عز وجل ولرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يجزئ عنك الثلث»(٢) .

قيل: هذا هو الذي احتج به أحمد، لا بحديث كعب، فإنه قال في رواية ابنه عبدالله: إذا نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه، وعليه دين أكثر مما يملكه ، فالذي أذهب إليه أنه يجزئه من ذلك الثلث، لأن النبي ﷺ أمر أبا لبابة بالثلث، وأحمد أعلم بالحديث أن يحتج بحديث كعب هذا الذي فيه ذكر الثلث، إذ المحفوظ في هذا الحديث «أمسك عليك بعض مالك» وكأن أحمد رأى تقييد إطلاق حديث كعب هذا بحديث أبي لبابة.

وقوله فيمن نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه أو عليه دين يستغرقه: إنه يجزئه من

---

(١) ابو داود (٣٣٢١) وصححه الألبانى فى أبي داود (٢٨٤٢).

(٢) أحمد (٣/ ٤٥٣، ٥٠٢) وأبو داود (٣٣١٩) وصححه الألبانى فى صحيح أبي داود (٢٨٤١).

ذلك الثلث، دليل على إنعقاد نذره، وعليه دين يستغرق ماله، ثم إذا قضى الدين، أخرج مقدار ثلث ماله يوم النذر، وهكذا قال في رواية ابنه عبد الله: إذا وهب ماله، أو قضى دينه واستفاد غيره، فإنما يجب عليه إخراج ثلث ماله يوم حنثه، يريد بيوم حنثه يوم نذره، فينظر قدر الثلث ذلك اليوم، فيخرجه بعد قضاء دينه.

وقوله: أو ببعضه: يريد أنه إذا نذر الصدقة بمعين من ماله، أو بمقدار كألف ونحوها، في جزئه ثلثه كنذر الصدقة بجميع ماله والصحيح من مذهبه لزوم الصدقة بجميع المعين. وفيه رواية أخري، أن المعين إن كان ثلث ماله فما دونه ، لزمه الصدقة بجميعه ، وإن زاد على الثلث، وهي أصح عند أبي البركات.

وبعد: فإن الحديث ليس فيه دليل على أن كعبًا وأبا لبابة نذرا نذرًا منجزًا، وإنما قالا: إن من توبتنا أن ننخلع من أموالنا، شكرًا لله على قبول توبتهما، فأخبر النبي ﷺ أن بعض المال يجزئ من ذلك، ولا يحتاجان إلى إخراجه كله، وهذا كما قال لسعد وقد استأذنه أن يوصي بماله كله، فأذن له في قدر الثلث. فإن قيل هذا يدفعه أمران:

أحدهما: قوله: «يجزئك» والإجزاء إنما يستعمل في الواجب.

والثاني: أن منعه من الصدقة بما زاد على الثلث دليل على أنه ليس بقربة، إذ الشارع لا يمنع من القرب، ونذر ما ليس بقربه لا يلزمه الوفاء به.

قيل: أما قوله: «يجزيك» فهو بمعني يكفيك، فهو من الرباعي وليس من «جزى عنه» إذا قضى عنه، يقال: أجزأني: إذا كفاني، وجزى عن: إذا قضى عني، وهذا هو الذي يستعمل في الواجب، ومنه قوله ﷺ لأبي بردة في الأضحية: تجزي عنك ولن تجزى عن أحد بعدك(١) والكفاية تستعمل في الواجب والمستحب.

وأما منعه من الصدقة بما زاد على الثلث، فهو إشارة منه عليه بالأرفق به، وما يحصل له به منفعة دينه ودنياه، فإنه لو مكنه من إخراج ماله كله لم يصبر على الفقر والعدم، كما فعل بالذي جاءه بالصرة ليتصدق بها، فضربه بها(٢) ، ولم يقبلها منه خوفًا عليه من الفقر،

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٢٢٤) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٤٠٩٣).

(٢) أبو داود (١٦٧٣) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٦٩).

وعدم الصبر ـ وقد يقال ـ وهو أرجح إن شاء الله تعالى: إن النبي ﷺ عامل كل واحد ممن أراد الصدقة بماله بما يعلم من حاله، فمكن أبا بكر الصديق من إخراج ماله كله، وقال: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله(١) ، فلم ينكر عليه، وأقر عمر على الصدقة بشطر ماله، ومنع صاحب الصرة من التصدق بها، وقال لكعب: «أمسك عليك بعض مالك»، وهذا ليس فيه تعيين المخرج بأنه الثلث ويبعد جدًا بأن يكون الممسك ضعفي المخرج في هذا اللفظ، وقال لأبي لبابة: يجزئك الثلث، ولا تناقض بين هذه الأخبار، وعلى هذا، فمن نذر الصدقة بماله كله، أمسك منه ما يحتاج إليه هو وأهله، ولا يحتاجون معه إلى سؤال الناس مدة حياتهم من رأس مال أو عقار، أو أرض يقوم فعلها بكفايتهم، وتصدق بالباقي. والله أعلم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: يتصدق منه بقدر الزكاة، ويمسك الباقي، وقال جابر ابن زيد كان ألفين فأكثر، أخرج عشره، وإن كان ألفًا فما دون فسبعه، وإن كان خمسمائة فما دون فخمسه. وقال أبو حنيفة رحمة الله: يتصدق بكل ماله الذي تجب فيه الزكاة، ومالا تجب فيه الزكاة، ففيه روايتان، أحدهما: يخرجه، والثاني: لا يلزمه منه شيء.

وقال الشافعي: تلزمه الصدقة بماله كله، وقال مالك، والزهري، وأحمد: يتصدق بثلثه، وقالت طائفة: يلزمه كفارة يمين. فقط.

ومنها: عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء ، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، وجعل الأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس.

فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم، وجعل علم المنافقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع ما نعاه عليهم أصله الكذب في

---

(١) أبو داود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٧٦) صحيح أبي داود (١٤٧٢).

القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، بل هو لبه وروحه. والكذب: بريد الكفر والنفاق، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا إبتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، هذا من أعظم ما يعرف العبد قدره التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غاية أمرم أن تاب عليهم، وهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه، إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه، وصفاتها، وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم، فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحدًا منهم عمله. وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الأية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانيًا بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله فيه وبه، وله وفى يديه، يعطيه مَن يشاء إحسانًا وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة:١١٨]، قد فسرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلفوا من بين من خلف لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك،

لقال: تخلفوا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم بخلاف تخلفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم. والله أعلم[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦٨ ـ ٥٩٢).

بين يدى السرايا

السرية أو البعث : القطعة من الجيش الذى أرسله رسول الله ﷺ ولم يخرج فيه.

مأخوذ من السرى وهو الشىء النفيس وسمعوا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم .

كانت بعوث رسول الله ﷺ وسرَايَاه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية : غزوة عبيدة ابن الحارث أسفل ثنية المرة . وغزوة حمزة بن عبد المطلب ساحل البحر من ناحية العيص. وبعض الناس يقدم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة .

وغزوة سعد بن أبى وقاص الخرار وغزوة عبد الله ابن جحش نخلة وغزوة زيد بن حارثة للقردة . وغزوة محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف وغزوة مرثد بن أبى مرثد الغنوى الرجيع . وغزوة المنذر بن عمرو بئر مَعُونة . وغزوة أبى عبيدة بن الجراح ذا القصة من طريق العراق . وغزوة عمر بن الخطاب تُربة من أرض بنى عامر وغزوة على بن أبى طالب اليمن.

وقال ابن سعد : وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين وأوصلها على بن برهان الحلبى فى كتابه السيرة الحلبية إلى ست وخمسين سرية .

كما أوصل الغزوات إلى تسع وعشرين غزوة .

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن غزواته وسرآياه ثلاث وأربعون ، أربع وعشرون بعثـًا وتسع عشرة غزوة خرج فى ثمان منها بنفسه .

سرية عبيدة بن الحارث

قال الحافظ الدمياطي: ثم سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف إلى بطن رابغ في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجره، عقد له لواء أبيض حمله مسطح ابن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف، بعثه رسول الله ﷺ في ستين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، فلقي أبا سفيان بن حرب وهو في مائتين، وهو على ما يقال له: إحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجحفة، فكان بينهم المناوشة، وكان سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله، ثم انصرف الفريقان على حاميتهم وكان على القوم عكرمة بن أبي جهل قاله ابن إسحاق(١).

(١) السيرة النبوية للحافظ الدمياطي ص١٨٤ .

سرية حمزة رضي الله تعالى عنه

قال ابن سعد: كان أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحمزة بن عبد المطلب بن هاشم في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ لواء أبيض، فكان الذي حمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلاً من المهاجرين..

وقال بعضهم: كانوا شطرين من المهاجرين والأنصار، والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم، وهذا الثبت عندنا.

وخرج حمزة يعترض لعير من قريش قد جاءت من الشام تريد مكة وفيها أبو جهل بن هشام، في ثلثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر «يعني ساحله» من ناحية العيص، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال فمشى مجدي بن عمرو الجُهني ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا، فتوجه أبو جهل في أصحابه وعيره إلى مكة، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة[١].

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤ ـ ٥).

سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه

ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال، لبث رسول الله ﷺ بالمدينة أربعة عشر شهرًا ثم بعث عبد الله بن جحش في ركب من المهاجرين وكتب معه كتابًا فدفعه إليه فأمره أن يسير ليلتين ثم يقرأ الكتاب فيتبع ما فيه، وفي بعثه ذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعمرو بن سراقة، وعامر بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وواقد بن عبد الله، وصفوان بن بيضاء فلما سار ليلتين فتح الكتاب فإذا فيه: أن امضي حتى تبلغ نخلة، فلما قرأه، قال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله فمن كان منكم يريد الموت في سبيل الله فليمض فإني ماض على ما أمر رسول الله ﷺ. فمضى ومضى معه أصحابه، ولم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن(١) فوق الفرع يقال له بحران(٢) أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعقبانه فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا، وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكايد قد حلق رأسه فلما رآوه آمنوا وقالوا: عمار، لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم،: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم فرمي واقد به عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ

---

(١) قرية بين مكة والطائف يقال لها معدن البرية كثيرة النخل والزروع والمياه.

(٢) بحران بالطن. موضع بناحية الفرع وبين الفرع والمدينة حوالي ١٥٠ كم.

خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه.

قال: وذلك في رجب قبل بدر بشهرين، وهي هاجت بينهم القتال وحرشت بين الناس.

فأرسلت قريش ليفادوا الأسيرين فأبى رسول الله ﷺ وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك، وعتبة بن غزوان» فلم يفادهما حتى قدم سعد وعتبة. ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان، وأقام عند رسول الله ﷺ.

ورجع عثمان بن عبدالله بن المغيرة كافرًا قال فيه: وقالت اليهود عند ذلك: واقد وقدت الحرب، وعمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب فكان ذلك كما قالوا وكان لهم فيما تفاءلوا من ذلك وأحبوا ما يسؤوهم (١).

---

(١) المغازى لموسى بن عقبة ص ١٢٠ ـ ١٢٢.

سرية عمير بن عدي

قال ابن سعد: ثم كانت سرية عمير بن عدي بن خرشة الخطمي إلى عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد، لخمسَ ليال بقين من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ .

وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حصن الخطمي، وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه، وتقول الشعر . .

فجاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها نيام ـ منهم من ترضعه في صدرها ـ فجسها بيده ـ وكان ضرير البصر ـ ونحى الصبي عنها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ بالمدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «أقتلت ابنة مروان؟» قال: نعم، فهل على في ذلك من شيء؟ فقال: «لا ينتطح فيها عنزان»(١) فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ وسماه رسول الله ﷺ عميرًا البصير. (٢) .

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣ / ٩٩) وابن عدي في كشف الخفاء (٢/ ٥٢٤) وانظر الكنز (٤٤١٣١) والعلل المتناهية (١/ ١٧٥).

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٦ ـ ٣٧).

سرية سالم بن عمير

قال ابن سعد: ثم سرية سالم بن عمير العمري إلى أبي عفك اليهودي في شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ، وكان أبو عفك من بني عمرو بن عوف شيخًا كبيرًا قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يهوديًا، وكان يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، فقال سالم بن عمير، وهو أحد البكائين وقد شهد بدرًا، على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فأمهل يطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عفك بالفناء وعلم به سالم بن عمير، فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى حشي في الفراش، وصاح عدو الله، فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه.

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٨) السيرة النبوية للدمياطي (ص١٨٨).

سرية قتل كعب بن الأشرف

قال ابن سعد: ثم سرية قتل كعب الأشرف اليهودي، وذلك لأربع عشر ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ وكان سبب قتله أنه كان رجلاً شاعرًا يهجو النبي ﷺ وأصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم.

فلما كانت وقعة بدر كبت وذل وقال: بطن الأرض خير من ظهرها اليوم، فخـرج حتى قدم مكة فبكى قتلى قريش وحرضهم بالشعر، ثم قدم المدينة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلامه الشر، وقوله الأشعار» وقال أيضًا: «من لي بابن الأشرف فقد آذاني فقال محمد بن مسلمة: أنا به يا رسول الله وأنا أقتله، فقال: «افعل وشاور سعد بن معاذ في أمره»[١] .

واجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس - منهم عباد بن بشر، وأبو نائلة سلكان بن سلامة والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عبس بن جبر فقالوا: يا رسول الله نحن نقتله، فأذن لنا فقلنا يا رسول الله: هل تأذن لنا أن نقول: فقال: «قولوا» وكان أبو نائلة أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة فخرج إليه، فأنكره كعب وذعر منه فقال: أنا أبو نائلة إنما جئت أخبرك أن قدوم هذا الرجل كان علينا من البلاد حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، ونحن نريد التنحي منه، ومعي رجال من قومي على مثل رأيي، وقد أردت آن آتيك بهم فنبتاع منك طعامًا وتمرًا ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة، فسكن إلى قوله وقال: جيء بهم متى شئت.

فخرج من عنده على ميعاد، فأتى أصحابه فأخبرهم، فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذا أمسى، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه فمشى معهم حتى أتى البقيع ثم وجههم وقال: امضوا على بركة الله وعونه. . .

قال: وكانوا في ليلة مقمرة، فمضوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف له أبو نائلة فوثب، فأخذت امرأته بملحفته وقالت: أين تذهب؟ إنك رجل محارب! وكان حديث عهد

(١) رواه البخاري (٤٠٣٧).

بالعرس، قال: ميعاد على وإنما هو أخي أبو نائلة، وضرب بيده الملحفة وقال: لو دعي الفتى لطعنة أجاب، ثم نزل إليهم فحادثوه ساعة حتى انبسط إليهم وأنس بهم، ثم أدخل أبو نائلة يده في شعره وأخذ بقرون رأسه وقال لأصحابه: اقتلوا عدو الله! فضربوه بأسيافهم فاختلفت عليه فلم تغن شيئًا ورد ورد بعضها بعضًا ولصق بأبى نائلة ـ قال محمد ابن مسلمة: فـذكرت مغولاً (١) كان في سيفي فانتزعته فوضعته في سرته ثم تحاملت عليه فقططته (٢)حتى انتهى إلى عانته، فصاح عدو الله صيحة ما بقي آطم من آطام يهود إلا أوقدت عليه نار. . . ثم حزوا رأسه وحملوه معهم، فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أن قد قتلوه، ثم انتهوا إلى رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله فلما أصبح قال: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه!» فخافت اليهود فلم يطلع منهم أحد ولم ينطقوا وخافوا أن يبيتوا كما بُيت ابن الأشرف.

أخبرنا محمد بن حميد العبدي عن معمر بن راشد عن الزهري في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ١٨٦] قال كعب بن الأشرف وكان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه ـ يعني في شعره ـ يهجو النبي ﷺ وأصحابه فانطلق إليه خمسة نفر من الأنصار فيهم محمد بن مسلمة ورجل آخر يقال أبو عبس فأتوه وهو في مجلس قومه بالعوالي فلما رآهم ذعر منهم وأنكر شأنهم، قالوا جئناك في حاجة، قال: فليدن إلى بعضكم فليخبرني بحاجته، فجاءه رجل منهم فقالوا: جئناك لنبيعك أدرعًا لنستنفق بها، فقال: والله لئن فعلتم لقد جهدتم مذ نزل بكم هذا الرجل. فواعدوه أن يأتوه عشاء حين تهدأ عنهم الناس، فنادوه، فقالت امرأته: ما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشيء مما تحب! قال: إنهم حدثوني بحديثهم وشأنهم.

أخبرنا محمد بن حميد عن معمر، عن أيوب عن عكرمة: أنه أشرف عليهم فكلموه وقال: ما ترهنون عندي؟ أترهنوني أبناءكم؟ وأراد أنَ يسلفهم تمرًا، قالوا: إنا نستحي أن يعير أبناؤنا فيقال: هذا رهينة وسق وهذا رهينة وسقين! قال: فترهنونني نساؤكم؟ قالوا: أنت أجمل الناس ولا نأمنك، وأي امرأة تمتنع منكم لجمالك؟ ولكنا نرهنك سلاحنا وقد

---

(١) سيف قصير يضعه الرجل في ثيابه ليغتال به الناس.

(٢) قططته : قطعته عرضا نصفين . (٣) أطم : حصن .

علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم! قال: نعم ائتوني بسلاحكم واحتملوا ما شئتم، قالوا: فانزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا، فذهب ينزل، فتعلقت به امرأته وقالت: أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونوا معك، قال لو وجدني هؤلاء نائمًا ما أيقظوني، قالت فكلمهم من فوق البيت، فأبى عليها فنزل إليهم يفوح ريحه، فقالوا: ما هذه الريح يا فلان؟ قال: عطر أم فلان، لامرأته ـ فدنا بعضَهم ـ يشم رأسه ثم اعتنقه وقال: اقتلوا عدو الله! فطعنه أبو عبس في خاصرته وعلاه محمد بن مسلمة بالسيف فقتلوه، ثم رجعوا فأصبحت اليهود مذعورين، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: قتل سيدنا غيلة! فذكرهم النبي ﷺ صنيعه وما كان يحض عليهم ويحرض في قتالهم ويؤذيهم، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحًا. احسبه قال. وكان ذلك الكتاب مع على، رضي الله تعالى عنه، بعد [١] .

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢ ـ ٤٦).

سرية زيد بن حارثة

قال ابن سعد: ثم سرية زيد بن حارثة إلى القردة(١) وكان لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ وهي أول سرية خرج فيها زيد أميرًا - والقردة من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق - بعثه رسول الله ﷺ يعترض لعير قريش، فيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعه مال كثير نَقَر (٢) وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم. وكان دليلهم فرات بن حيان العجلي، فخرج بهم على ذات عرق طريق العراق، فبلغ رسول الله ﷺ أمرهم فوجه زيد بن حارثة في مائة راكب فاعترضوا لها، فأصابوا العير وأفلت أعيان القوم، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ فخمسها فبلغ الخمس فيه عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي على أهل السرية، وأسر فرات بن حيان فأتي به النبى ﷺ فقيل له : إن تُسلم تُترك ! فأسلم فتركه رسول الله ﷺ من القتل(٣) .

---

(١) هو اسم ماء.

(٢) جمع نقرة، وهي القدر من النحاس يسخن فيها الماء.

(٣) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٨).

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي

قال ابن سعد: ثم سرية أبي سَلمة بن عبد الأسد المخزومي إلى قطن وهو جبل بناحية فيد ـ به ماء أسد بن خزيمة ـ وكان ذلك في هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابنى خويلد قد سار في قومهما ومن أطاعهما يدعوانهم إلى حرب رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ أبا سلمة وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وقال: سر حتى تنزل أرض بني أسد فأغار عليهم قبل أن تتلاقي عليك جموعهم.

فخرج فأغذ (١) السير ونكب عن سنن الطريق، وسبق الأخبار وانتهى إلى أدنى قطن، فأغار على سرح لهم فضموه وأخذوا رعاء لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم فجاءوا جمعهم فحذروهم فتفرقوا في كل ناحية، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق في طلب النعم والشياه فآبو (٢) إليه سالمين قد أصابوا إبلاً وشياه ولم يلقوا أحدًا، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة (٣) .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٦٨).

(٢) فأغذ : فأسرع السير .

(٣) فآبوا : رجعوا .

سرية عبد الله بن أنيس

قال ابن سعد: ثم سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي بعرنة خرج من المدينة يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد الهذلي ثم اللحياني وكان ينزل عرنة وما والاها في ناس من قومه وغيرهم ـ قد جمع الجموع لرسول الله ﷺ فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ليقتله، فقال: صفه لي يا رسول الله قال: «إذا رأيته هبته وفرقت منه وذكرت الشيطان».

قال: وكنت لا أهاب الرجال، واستأذنت رسول الله ﷺ أن أقول فأذن لي، فأخذت سيفي وخرجت أعتزي إلى خزاعة، حتى إذا كنت ببطن عرنة رأيته يمشي وراء الأحابيش ومن ضوى إليه، فعرفته بنعت رسول الله ﷺ وهبته فرأيتني أقطر فقلت: صدق رسول الله.

فقال: من الرجل؟

فقلت: رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لاكون معك. قال: أجل إني لأجمع له، فمشيت معه وحدثته واستحلى حديثي حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه. ثم دخلت غارًا في الجبل، وضربت العنكبوت علي، وجاء الطلب فليم يجدوا شيئًا فانصرفوا راجعين، ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد فلما رآني قال: «أفلح الوجه» (١) قلت: أفلح وجهك يا رسول الله! فوضعت رأس بين يديه وأخبرته خبري، فدفع إلى عصًا وقال:

«تخصر(٢) بهذه في الجنة» فكانت عنده، فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها في كفنه ففعلوا، وكانت غيبته في ثمان عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٩٦). (٢) توكأ عليها.

(٣) الطبقات لابن سعد (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

سرية المنذر بن عمرو

قال ابن سعد: ثم سرية المنذر بن عمرو الساعدي إلى بئر معونة (١) في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: وقدم عامر بن مالك بن جعفر أبو براء ملاعب الأسنة الكلابي على رسول الله ﷺ فأهدى له فلم يقبل منه، وعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال: لو بعثت معى نفراً من أصحابك إلى قومي لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال: أنا لهم جار إن يعرض لهم أحد فبعث معه رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من الأنصار شببة (٢) يسمون القراء وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي. فلما نزلوا بئر معونة - وهو ماء من مياه بني سليم، وهو بين أرض بني عامر وأرض بني سليم، كلا البلدين يعد منه وهو بناحية المعدن - نزلوا عليها وعسكروا بها وسرحوا ظهرهم (٣) وقدموا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فوثب على حرام فقتله واستصرخ عليهم بني عامر فأبوا وقالوا: لا يخفر (٤) جوار أبي براء واستصرخ عليهم قبائل من سليم: عصبة ورعلا وذكوان، فنفروا معه ورأسوه (٥) واستبطأ المسلمون حرامًا فأقبلوا في إثره، فلقيهم القوم فأحاطوا بهم فكاثروهم فتقاتلوا فقتل أصحاب رسول الله ﷺ وفيه سليم بن ملحان والحكم بن كيسان في سبعين رجلاً، فلما أحيط بهم قالوا: اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك منا السلام غيرك فأقرئه منا السلام فأخبره جبرائيل ﷺ بذلك فقال: «وعليهم السلام» وبقى المنذر بن عمرو فقالوا: إن شئت آمناك، فأبى، وأتى مصرع حرام فقاتلهم حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: «أعنق ليموت» - يعني أنه تقدم على الموت وهو يعرفه -، وكان معهم عمرو بن أمية الضمري فقتلوا جميعًا غيره، فقال عامر بن الطفيل: قد كان على أمى نسمة فأنت حر عنها، وجز ناصيته (٦).

وفقد عمرو بن أمية عامر بن فهيرة من بين القتلى فسأل عنه عامر بن الطفيل فقال: قتله رجل من بني كلاب يقال له جبار بن سلمى، لما طعنه قال: فزت والله! ورفع إلى السماء علواً فأسلم جبار بن سلمى لما رأى من قتل عامر بن فهيرة ورفعه. وقال رسول الله ﷺ إن الملائكة وارت جثته وأنزل عليين.

وجاء رسول الله ﷺ خبر أهل بئر معونة وجاءه تلك الليلة أيضًا مصاب خبيب بن

(١) موضع فى بلاد هذيل بين مكة وعسفان وتسمى هذه السرية سرية القراء أيضا لأن أكثر من فيها كانوا من القراء.

(٢) شببة : جمع شاب . (٣) ظهرهم : أى إبلهم التى يمتطون ظهرها .

(٤) لا ينقضى عهده . (٥) جعلوه رئيسا . (٦) أى قصى مقدم شعر رأسه وهو رمز للعتق.

عدي ومرثد بن أبي مرثد وبعث محمد بن سلمة، فقال رسول الله ﷺ هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهًا ودعا. ودعا رسول الله ﷺ على قـتلهم بعد الركوع من الصبح فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مـضرا اللهم سنين كسني يوسف اللهم عليك ببني لحـيان وعضل والقارة وزغب ورعل وذكوان وعصيـة فإنهم عصوا الله ورسوله» ولم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة، وأنزل الله فيهم قرآنا حتى نسخ بعد: «بلغنا قومنا عنا أنا لقينا ربنا فـرضي عنا ورضينا عنه» (١) وقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد بن عـامر، واطلب خفرتي من عامر بن الطفيل».

وأقبل عمرو بـن أمية، سار أربعًا على رجليه، فلمـا كان بصدور قناة لقي رجلين من بني كلاب قد كان لهـما من رسول الله ﷺ أمان فقتلهـما وهو لايعلم ذلك، ثم قدم على رسول الله ﷺ فأخبره بمقتل أصحـاب بئر معونة، فقال رسول الله ﷺ: «أبت من بينهم». وأخبر النبي ﷺ بمقتل العـامريين فقال: «بئس ما صنعت! قد كان لهـما مني أمان وجوار، لأدينهما» (٢)، فبعث بديتهما إلى قومهما.

أخبرنا مـحمد بن عبد الله الأنصـاري، حدثنا سعيد بن أبي عـروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن رعلاً وذكوان وعصية أتوا رسول الله ﷺ فاستمدوه على قومهم فأمدهم سبـعين رجلاً من الأنصـار، وكانوا يدعـون فينا القراء، وكـانوا يحطبون بالنهـار ويصلون بالليل، فلما بلغوا بئر معونة غدروا بهم فـقتلوهم، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فقنت شهراً في الصلاة الصبح يدعو على رعل وذكوان وعُصبة وبني ليحان.

قال: فـقرأنا لهم قرآنًا زمـانًا ثم إن ذلك رفع أونسخ: «بلغـوا عنا قومنا أنا لقـينا ربنا فرضى عنا وأرضانا» (٣).

أخبرنا يحيى بن عباد، حـدثني عمارة بن زاذان، حدثني مكحول قال: قلت لأنس بن مالك: يا أبا حمزة ـ من القراء؟ قال: ويحك قتـلوا على عهد رسول الله ﷺ. كانوا قومًا يستعذبون لرسول الله ﷺ ويحطبون حتى إذا كان الليل قاموا إلى السواري للصلاة.

أخبرنا يعقوب بن إبراهمي بن سعـد الزهري عن أبيه، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، أخـبرني عبد الرحـمن بن عبد الله بن كعب بن مـالك ورجال من أهل العلم: أن

(١) رواه البخاري (٤٠٨٩) من حديث أنس. (٢) لأدينهما: من الدية يعنى يدفع دية كل منهما.

(٣) الحديث السابق.

المنذر بن عمرو الساعدي قتل يوم بئر معونة، وهو الذي قال له: أعنق ليموت وكان عامر ابن الطفيل استنصر لهم بني سليم فنفروا معه فقتلوهم غير عمرو بن أمية الضمري، أخذه عامر بن الطفيل فأرسله، فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ أبت من بينهم وكان من أولئك الرهط عامر بن فهيرة، قال ابن شهاب: فزعم عروة بن الزبير أنه قتل يومئذ فلم يوجد جسده حين دفنوا قال عروة كانوا يرون أن الملائكة هى التي دفنته أخبرنا عتاب بن زياد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا مالك بن أنس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك قال: أنزل في الذين قتلوا ببئر معونة قرآن حتى نسخ بعد: «بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» ودعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم ثلاثين غداة، يدعو على رعل وذكوان وعصية عصت الله ورسوله (١) .

أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان بن عيينه عن عاصم قال: سمعت أنس بن مالك قال: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة(٢) .

شهداء بئر معونة

من بني تميم بن مرة:

* عامر بن فهيرة مولى أبي بكر.

ومن بني مخزوم:

* الحكم بن كيسان.

ومن بني النجار من بني عامر بن مالك:

* الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك.
* سهل بن عامر بن سعد مع عمه.
* سهل بن عمرو عم سهل بن عامر.

---

(١) وانظر صحيح البخارى (٤٠٩١) .

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٧٠ ـ ٧٥).

* الطفيل بن سعيد ـ ويقال ابن سعد.

ومن بني ساعدة:

* المنذر بن عمرو الساعدي.

ومن بني جحجبى:

* المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح.

* حرام بن ملحان.

* عروة بن الصلت.

* أوس بن معاذ [١].

---

(١) المغازى لموسى بن عطية ص ٢٠٨ .

سـريـة مرثد بن أبي مرثد

قال ابن سعد: ثم سرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى الرجيع في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ .

أخبرنا عبد الله بن إدريس الأودي، وأخبرنا معن بن عيسى الأشجعي، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عمر بن أسيد بن العلاء بن جارية ـ وكان من جلساء أبي هريرة ـ قال: قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة ـ وهم إلى الهون بن خزيمة فقالوا يا رسول الله ﷺ إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام. فبعث رسول اله ﷺ معهم عشرة رهط: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ومرثد بن أبي مرثد، وعبد الله بن طارق، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة وخالد ابن أبي البكير، ومعتب بن عبيد ـ وهو أخو عبد الله بن طارق لأمه، وهما من بلي ـ حليفتان في بني ظفر ـ وأمر عليهم عاصم بن ثابت، وقال قائل: مرثد بن أبي مرثد فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع ـ وهو ماء لهذيل بصدور الهدة، والهدة على سبعة أميال منها، والهدة على سبعة أميال من عسفان ـ فغدروا بالقوم واستصرخوا عليهم هذيلاً، فخرج إليهم بنو لحيان فلم يرع القوم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذ أصحاب رسول الله ﷺ بسيوفهم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتالكم إنما نريد أن نصيب بكم ثمنًا من أهل مكة، ولكن العهد والميثاق ألا نقتلكم.

فأما عاصم بن ثابت ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن أبي البكير ومعتب بن عبيد فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا. ولا عقدًا أبدًا، فقاتلوهم حتى قتلوا.

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي وعبد الله بن طارق فاستأسروا وأعطوا بأيديهم، وأرادو رأس عاصم ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ـ وكانت نذرت لتشربن في قحفة(١) عاصم الخمر، وكان قتل ابنيها مسافعًا وجلاسًا يوم أحد ـ فحمته الدبر(٢) فقالوا: أملهوه حتى تمسى، فإنه لو قد أمست ذهبت عنه. فبعث الله الوادي فاحتمله، وخرجوا

(١) قحفه: الجزء أعلى الرأس فوق الدماغ أو ما تقلعه من جمجمة وانفصل.

(٢) الذبر: النحل، وقيل الزنابير.

بالنفر الثلاثة حتى إذا كانوا بمر الظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القيد وأخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بمر الظهران، وقدموا بخبيب وزيد مكة. فأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه، وابتاع حجير بن أبي إهاب خبيب بن عدي لابن أخته عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم ثم أخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما، وكان صليا ركعتين ركعتين قبل أن يقتلا، فخبيب أول من سن ركعتين عند القتل (١).

أخبرنا عبد الله بن إدريس، حدثني عمرو بن عثمان بن عبد الله بن موهب الحارث بن عامر قال: موهب: قال لي خبيب ـ وكانوا جعلوه عندي ـ: يا موهب أطلب إليك ثلاثًا: أن تسقيني العذب، وأن تجنبني ما ذبح على النصب، وأن تؤذني إذا أرادوا قتلي.

أخبرنا عبد اله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن نفرًا من قريش فيهم أبو سفيان حضروا قتل زيد ـ فقال قائل منهم: يا زيد أنشدك الله، أتحب أنك الآن في أهلك وأن محمدًا عندنا مكانك نضرب عنقه؟ قال: لا والله ما أحب أن محمدًا يشاك في مكانه بشوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: والله ما رأيت من قوم قط أشد حبًا لصاحبهم من أصحاب محمد له(٢).

لما أخذ بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبا أسيرًا ، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها ، فأعادته فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه ، فوجدته مجلسه فى فخذه والموسى بيده فقالت ففزعت فزعة عرفها خبيب فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك ، قالت والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وهو موثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول إنه لرزق رزقه الله خبيبا (٣) .

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٦) عن أبي هريرة. (٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٧٥ ـ ٧).
(٣) رواه البخارى (٣٩٨٩) .

سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء (١)

قال ابن سعد: ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء، خرج لعشر ليال خلون من المحرم على رأس تسعة وخمسين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ بعثه في ثلاثين راكبًا إلى القرطاء - وهم بطن من بني بكر من كلاب وكانوا ينزلون البكرات بناحية ضرية، وبين ضرية والمدينة سبع ليال - وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار وأغار عليهم فقتل نفرً منهم وهرب سائرهم، واستاق نعما وشاء ولم يعرض للظعن، وانحدر إلى المدينة فخمس رسول الله ﷺ ما جاء به، وقضى على أصحابه ما بقي، فعدلوا الجزور بعشر من الغنم، وكانت النعم مائة وخمسين بعيرًا والغنم ثلاثة آلاف شاة. وغاب تسع عشرة ليلة، وقدم لليلة بقيت من المحرم.

ومعه ثمامة بن أثال الحنفي أسيرًا (٢) .

---

(١) القرطاء هم بنو كلب بن كلاب .

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١١١) وفتح الباري (٨/ ٤٢١).

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر[١]

قال ابن سعد: ثم سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر عمر مرزوق ـ وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد ـ طريق الأول إلى المدينة ـ وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ، قالوا: وجه رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن إلى الغمر في أربعين رجلاً، فخرج سريعًا يغذ السير ونذر[٢] به القوم فهربوا فنزلوا علياء بلادهم ووجدوا دارهم خلوفًا[٣] فبعث شجاع بن وهب طليعة فرأى النعم، فتحملوا فأصابوا ربيئة لهم[٤] فأمنوه فدلهم على نعم لبني عم له، فأغاروا عليها فاستقوا مائتي بعير، ربيئة الرجل وحدروا[٥] النعم إلى المدينة، وقدموا على رسول الله ﷺ ولم يلقوا كيدًا[٦] .

---

(١) الغمر: ماء لبني أسد نصف طريق الجامع من الكوفة إلى مكة.

(٢) علموا بقدومه.

(٣) خلوف : إذا غاب الرجال وأقامت النساء.

(٤) هو الذي ينظر القوم حتى لا يراهم عدو.

(٥) ساقوها منحدرين إلى المدينة.

(٦) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٢).

سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة

قال ابن سعد: ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ: قالوا بعث رسول الله ﷺ، محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة وبني عوال من ثعلبة - وهم بذي القصة، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً طريق الربذة - في عشرة نفر، فوردوا عليهم ليلاً فأحدق به القوم، وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحًا فضرب كعبه فلا يتحرك، وجردوهم من الثياب ومر بمحمد بن مسلمة رجل من المسلمين فحمله حتى ورد به المدينة، فبعث رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحدًا ووجدوا نعمًا وشاء فساقه ورجع(١) .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٢ - ١٢٣).

سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة

قال ابن سعد: ثم سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: أجدبت بلاد بني ثعلبة وأنمار، ووقعت سحابة بالمراض إلى تغلمين - والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة، وأجمعوا أن يغيروا على سرح المدينة، وهو يرعي بهيفا - موضع على سبعة أميال من المدينة فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً من المسلمين حين صلوا المغرب، فمشوا إليهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح[١] فأغاروا عليهم فأعجزوهم هربًا في الجبال، وأصاب رجلاً واحدًا فأسلم وتركه فأخذ نعمًا من نعمهم فاستاقه، ورثه[٢] من متاعهم وقدم بذلك المدينة، فخمسه رسول الله ﷺ وقسم ما بقي عليهم[٣].

(١) بقية ظلمة الليل.
(٢) رثة: الثياب الخلقة والمتاع الخلق.
(٣) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٣).

سرايا زيد بن حارثة

إلى بني سليم بالجموم:

قال ابن سعد: ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى بني سليم فسار حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل عن يسارها ـ وبطن نخل من المدينة على أربعة برد ـ فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا في تلك المحلة نعمًا وشاء وأسرى، فكان فيهم زوج حليمة المزنية، فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ، للمزنية نفسها وزوجها، فقال بلال ابن الحارث في ذلك شعرًا:

لعمرك ما أخنى المسـول ولا ونت   حليمـة حتى راح ركبهـما معًا(١)

إلى العيص:

ثم سرية زيد بن حارثة إلى العيص ـ وبينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذي المروة ليلة، وذلك في جمادى الأولى سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن عيرًا لقريش قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب يتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسروا ناسًا ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع. . وقدم بهم المدينة فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله ﷺ فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله ﷺ الفجر: إني قد أجرت أبا العاص! فقال رسول الله ﷺ: وما علمت بشيء من هذا وقد أجرنا من أجرت، ورد عليه ما أخذ منه.

إلى الطرف:

ثم سرية زيد بن حارثة إلى الطرف(١) في جمادى الآخرة سنة ست من مهاجر رسول

---

(١) أخنى: أفسد وأفحش. والمسول: أصلها المسئول.

(٢) اسم ماء لبني ثعلبة.

الله ﷺ. قالوا: بعث رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة إلى الطرف ـ وهو ماء قريب من المراض دون النخيل ـ على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة

طريق البقرة على المحجة، فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً فأصاب نعمًا وشاء، وهربت الأعراب وصبح زيد بالنعم المدينة، وهي عشرون بعيرًا، ولم يلق كيدًا، وغاب أربع ليال، وكان شعارهم: أمِت أمِت[1].

إلى حسمي:

ثم سرية زيد بن حارثة إلى حِسمي[2] وهي وراء وادي القري ـ في جمادى الآخرة سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر وقد أجاره وكساه فلقيه الهنيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد في ناس من جذام بحسمي فقطعوا عليه الطريق، فلم يتركوا عليه إلا سمل[3] ثوب فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره بذلك فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل ورد معه دحية، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة، فأقبل بهم حتى هجم مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم، فأخذوا من النعم ألف بعير، ومن الشاء خمسة الاف شاة، ومن السبايا مائة من النساء والصبيان.

فرحل زيد بن رفاعة الجزامي في نفر من قومه إلى رسول الله ﷺ فدفع إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتبه ولقومه حين قدم عليه، فأسلم وقال: يا رسول الله لا تحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حرامًا، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ قال أبو زيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله من كان حيًا، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو زيد! فبعث معهم عليًا رضي الله عنه إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فتوجه علي فلقى رافع بن مكيث الجهني يشير زيد بن حارثة على

---

(١) روا أحمد (٤/ ٤٦) وأبو داود (٢٥٩١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٦١).

(٢) موضع يقال: إن الطوفان أقام به ثمانين سنة بعد تقوية ما كافة الأمكنة.

(٣) الخلق من الثياب.

ناقة من إبل القوم، فردها عليٌّ على القوم ، ولقي زيدًا بالفحلتين، وهي بين المدينة وذي المردة، فأبلغه أمر رسول الله ﷺ ، فرد إلى الناس كل ما كان أخذ لهم.

إلى وادي القرى:

ثم سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى في رجب سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بعث رسول الله ﷺ زيدًا سنة ست[1] .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٣ ـ ١٢٧).

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

قال ابن سعد: ثم سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ. قالوا: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فأقعده بين يديه وعممه بيده وقال: «أغز بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً»(١) .

وبعثه إلى كلب بدومة الجندل وقال: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبي ـ وكان نصرانيًا وكان رأسهم ـ وأسلم معه ناس كثيرون من قومه.

وأقام من أقام على إعطائه الجزية، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبع وقدم بها إلى المدينة، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن(٢) .

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١) وأبو داود (٢٦١٣) والترمذي (١٦١٧) عن بريدة بن الحصيب.

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٧).

سرية عليٍّ بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك

قال ابن سعد: ثم سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك[١] في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعًا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فبعث إليهم علي بن أبي طالب في مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى الهمج[٢] وهو ماء بين خيبر وفدك وبين فدك والمدينة ست ليال ـ فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم فقال أخبركم على أنكم تؤمنوني، فأمنوه فدلهم، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاه، وهربت بنو سعد بالظعن ورأسهم وبر بن عليم، فعزل عليٌّ صفي النبي ﷺ لقوحًا[٣] تدعى الحفذة ـ ثم عزل الخمس، وقسم الغنائم على أصحابه، وقدم المدينة ولم يلقى كيدًا[٤] .

---

(١) فدك: قرية بخيبر وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل.

(٢) همج: ماء عيون عليه نخل بناحية وادي القرى.

(٣) اللقوح: الناقة التي تحلب فواقًا بعد فواق لكثرة لبنها فإذا أتى عليها ثلاثة أشهر حلبت غدوًا وعشيًا.

(٤) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٨).

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى

قال ابن سعد: ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى، على سبع ليال عن المدينة، في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم.

ثم استبل[١] زيد وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه رسول الله ﷺ في سرية إليهم فكمنوا النهار وساروا الليل، ونذرت بهم[٢] بنو بدر.. ثم صبحهم زيد وأصحابه فكبروا وأحاطوا بالحاضر وأخذوا أم قرفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر، فكان الذي أخذ الجارية سلمة بن الأكوع فوهبها لرسول الله ﷺ فوهبها رسول الله ﷺ لحزن بن أبي وهب.

وعمد قيس بن المحسر إلى أم قرفة ـ وهي عجوز كبيرة ـ فقتلها قتلاً عنيفًا. وقتل النعمان وعبيد الله بنى مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر.

وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك فقرع باب النبي ﷺ فقام إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسايله [٣] فأخبره بما ظفره الله به.

وكان أمير هذه السرية أبو بكر الصديق[٤] رضي الله تعالى عنه[٥] .

---

(١) استبل : شفي من جراحاته.

(٢) ونذرت بهم: أحست.

(٣) سايله : ساء له .

(٤) انظر مسلم (١٧٥٥) وأبو دادو (٢٦٩٧).

(٥) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٢٩).

سرية عبد الله بن عتيك إلى أبي رافع

قال ابن سعد: ثم سرية عبد الله بن عتيك إلى أبي رافع بن سلام بن أبي الحقيق النضري بخيبر في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: كان أبو راقع بن أبي الحقيق قد أجلب[(١)] في غطفان ومن حوله من المشركين العرب، وجعل لهم الحفل العظيم لحرب رسول الله ﷺ فبعث رسول الله عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس، وأبا قتادة والأسود بن خزاعي، ومسعود بن سنان وأمرهم بقتله، فذهبوا إلى خيبر فكمنوا، فلما هدأت الرجل جاؤوا إلى منزله، فصعدوا درجة له، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية، فاستفتح وقال:

جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشار إليها بالسيف فسكتت، فدخلوا عليه فما عرفوه إلا ببياضه كأنه قبطية[(٢)] فعلوه بأسيافهم، قال ابن أنيس: وكنت رجلاً أعشى لا أبصر، فأتكي بسيفي على بطنه حتى سمعت خشه في الفراش، عرفت أنه قد قضي، وجعل القوم يضربونه جميعًا، ثم نزلوا، وصاحت امرأته فتصايح أهل الدار واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر[(٣)] وخرج الحارث أبو زينب في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران فلم يروهم فرجعوا، ومكث القوم في مكانهم يومين حتى سكن الطلب. ثم خرجوا مقبلين إلى المدينة كلهم يدعي قتله، فقدموا على رسول الله ﷺ فقال: «أفلحت الوجوه!» فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله! وأخبروه خبرهم فأخذ أسيافهم فنظر إليها فإذا أثر الطعام في ذباب سيف عبد الله بن أنيس، فقال «هذا قتله»[(٤)(٥)].

---

(١) جمع الناس وأعانهم على رسول الله ﷺ.

(٢) ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء.

(٣) جمع منهر وهو خـرق في الحصن ناقد يدخل فيه الماء وهو مفعل من النهر والميم زائدة . النهاية ٤/١١ .

(٤) رواه البخاري (٤٠٣٨).

(٥) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٠ ـ ١٣١).

سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام

قال ابن سعد: ثم سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر، في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق أمرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار في غطفان وغيرهم بجمعهم لحرب رسول اله ﷺ فوجه رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر فى شهر رمضان سرًا فسأل عن خبره وغرته فأخبره بذلك، فقدم على رسول الله ﷺ، فأخبره فندب رسول الله ﷺ الناس فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبدالله ابن رواحة، فقدموا على أسير فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال نعم، ولي منكم مثل ذلك؟ قالوا: نعم، إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع في ذلك، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كنا بقرقرة ثبار ندم أسير، فجاء عبد الله ابن أنيس، وكان في السرية: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنت له، ودفعت بعيري. . فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد لي أسير فضربته بالسيف فأندرت[١] عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره وبيده مخرس[٢] من شواحط[٣] فضربني فشجني مأمومة [٤] وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدًا، ولم يصب من المسلمين أحد، ثم أقبلنا إلى رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث قال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين![٥] .

---

(١) أندرت : قطعت .

(٢) المخرش: عصا معوجة.

(٣) الشوحط : نوع من شجر الجبال تتخذ منه القسى .

(٤) المأمومة: الشجة التي بلغت أم الرأس.

(٥) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢).

سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين

قال ابن سعد: ثم سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: قدم نفر من عرينة ثمانية على رسول الله ﷺ فأسلموا واستوبأوا(١) المدينة فأمر بهم رسول الله ﷺ، إلى لقاحة وكانت ترعى بذي الحدر ناحية قباء قريبًا من عير على ستة أميال من المدينة - فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا فعدوا على اللقاح فاستاقوها فأدركهم يسار مولى رسول الله ﷺ ومعه نفر فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر فبعث في أثرهم عشرين فارسًا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهري، فأدركهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة. وكان رسول الله ﷺ بالغابة فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالزغابة(٢) بمجتمع السيول وأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم فصلبوا هناك وأنزل على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] فلم يسمل(٣) بعد ذلك عينًا وكانت اللقاح خمس عشرة لقحة غزارًا فردها إلى المدينة ففقد رسول الله ﷺ منها لقحة تدعى الحسناء، فسأل عنها فقيل: نحروها(٤) (٥).

---

(١) يعني تصح أجسامهم في المدينة.
(٢) مجتمع السيول بآخر العقيق.
(٣) فلم يسمل: لم يفقأ
(٤) انظر البخاري (٤١٩٢).
(٥) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٢ - ١٣٣).

سرية عمرو بن أمية الضمري

قال ابن سعد: ثم سرية عمرو بن أمية الضمري، وسلمة بن أسلم بن حريس - إلى أبي سفيان بن حرب بمكة، وذلك أن أبا سفيان بن حرب قال لنفر من قريش: ألا أحد يغتال محمدًا فإنه يمشي في الأسواق؟ فأتاه رجل من الأعراب فقال: قد وجدت أجمع الرجال قلبًا وأشده بطشًا وأسرعه شدًا، فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ومعي خنجر مثل خافية النسر(١) ، فأسورَّه(٢) ثم آخذ في عير واسبق القوم عدوًا فإني هاد بالطريق خريت قال: أنت صاحبنا.. فأعطاه بعيرًا ونفقة وقال: اطو أمرك. فخرج ليلاً فسار على راحلته خمسًا وصبح ظهر الحرة صبح سادسة ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى دل عليه، فعقل راحلته، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني عبد الأشهل.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا ليريد غدرًا!» فذهب ليجنى(٣) على رسول الله ﷺ فجذبه أسيد بن الحضير بداخلة إزاره فإذا بالخنجر فسقط في يديهوقال: دمي! دمي! فأخذ أسيد بلبيه فدعثه فقال رسول الله ﷺ: «اصدقني ما أنت؟» قال: وأنا آمن؟ قال: «نعم»! فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان فخلى عنه رسول الله ﷺ فأسلم. وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية، وسلمة بن أسلم إلى أبي سفيان بن حرب وقال: إن أصبتا منه غره فاقتلاه! فدخلا مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريشًا بمكانه فخافوه وطلبوه - وكان فاتكًا في الجاهلية - وقالوا: لم يأت عمرو لخير، فحشد له أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة فلقى عمرو عبيد الله ابن مالك بن عبيد الله التيمي فقتله، وقتل رجلاً آخر من بني الديل سمعه يتغنى ويقول:

ولست بمسلم ما دمت حيًا ... ولست أين دين المسلمينا

ولقي رسولين لقريش بعثهما يتحسسان الخبر، فقَتل أحدهما وأسر الآخر فقدم به المدينة، فجعل عمرو يخبر رسول الله ﷺ خبره ورسوله الله ﷺ يضحك (٤).

---

(١) مثل النسر قليل الحجم يسهل عليه إخفاؤه.

(٢) ارتفع إليه وآخذه.

(٣) ليغدر ويعتدي على النبي ﷺ.

(٤) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٣ - ١٣٥).

سرية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى تربة

قال ابن سعد: ثم سرية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى تربة في شعبان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة ـ وهي بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران ـ فخرج وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب محالهم فلم يلق منهم أحد فانصرف راجعً إلى المدينة(١) .

(١) الطبقات لا بن سعد (٢/ ١٦٩).

سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كلاب بنجد

قال ابن سعد: ثم سرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب بنجد ناحية ضرية[(١)] في شعبان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ .

أخبرنا هشام بن القاسم الكناني، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: غزوت مع أبي بكر إذ بعثه النبي ﷺ علينا فسبى ناسًا من المشركين فقتلناهم، فكان شعارنا: أمت أمت! قال: فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين[(٢)] .

أخبرنا هاشم بن القاسم، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ، أبا بكر إلى فزارة وخرجت معه، حتى إذا مادنونا من الماء عرس أبو بكر، حتى إذا ما صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل ونحن معه، قال سلمة: فرأيت عنقًا [(٣)] من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم قاموا ، فإذا امرأة من فزارة فيهم عليها قشع من أدم معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت أسوقهم إلى أبي بكر فنفلني أبو بكر ابنتها فلم أكشف لها ثوبًا حت قدمت المدينة، ثم باتت عندى فلم أكشف لها ثوبًا حتى لقيني رسول الله ﷺ، في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة » فقلت: يا نبي الله! والله لقد أعجبني وما كشفت لها ثوبًا! فسكت حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك» قال: فقلت هي لك يا رسول الله! قال : فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدي بها أسرى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين[(٣)] .

---

(١) مكان بارض نجد

(٢) أحمد (٤/ ٤٦) وأبو داود (٢٥٩٦) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٦١).

(٣) عنقًا : جمعا من الناس .

(٤) رواه مسلم (١٧٥٥) وأحمد فى المسند (٤ / ٤٦) .

سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى فدك

قال ابن سعد: ثم سرية بشير بن سعد إلى فدك في شعبان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بعث إلى رسول الله ﷺ، بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك، فخرج يلقى رعاء الشاء فسأل عن الناس فقيل في بواديهم، فاستاق النعم والشاء وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ فأخبرهم فأدركه الدهم منهم عند الليل، فأتوا يرامونهم بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير وأصبحوا فحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير وقاتل بشير حتى ارتث (١) وضرب كعبه فقيل قد مات، ورجعوا بنعمهم وشائهم. وقدم علبه بن زيد الحارثي أخبرهم على رسول الله ﷺ ثم قدم من بعده بشير بن سعد(٢) .

---

(١) ارتث : أثخنته الجراح فضعف عن الحركة.

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة

قال ابن سعد: ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة في شهر رمضان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول ﷺ، غالب بن عبد الله إلى بني عوال، وبني عبد بن ثعلبة ـ وهم بالميفعة، وهي وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد، وبينها وبين المدينة ثمانية برد ـ بعثة فى مائة وثلاثين رجلاً ـ ودليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ، فهجموا عليهم جميعًا ووقعوا وسط محالهم فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا نعمًا وشاء فحدروه إلى المدينة ولم يأسروا أحدًا وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ:

«ألا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب؟» فقال أسامة. لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله » (١) (٢) .

---

(١) البخارى (٦٨٧٢) مسلم (٩٦).

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٧١).

سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار

قال ابن سعد: ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن[١] وجبار - في شوال سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، أن جمعًا من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ بشير بن سعد، فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمائة رجل، فساوروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا إلى يمن وجبار - وهي نحو الجناب، والجناب يعارض سلاح وخيبر ووادي الفري - فنزلوا بسلاح ثم دنوا من القوم فأصابوا لهم نعمًا كثيرة وتفرق الرعاء، فحذروا الجمع فتفرقوا ولحقوا بعلياء بلادهم، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتوا محالهم فيجدها وليس فيها أحد، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما إلى رسول الله ﷺ فأسلما فأرسلهما.

وركب رسول الله ﷺ، حتى نزل سرف وتتام الناس إليه - وأقام أبو رافع بمكة حتى أمسى، فحمل إلى رسول الله ميمونة بنت الحارث فبني عليها رسول الله ﷺ، بسرف[٢]، ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة.

أخبرنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، وأخبرنا يحيى بن عباد، حدثنا حماد ابن سلمة، جميعًا عن أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ وأصحابه قدموا مكة: يعني في عمرة القضية، فقال المشركون من قريش، إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، قال: وقعدوا مما يلي الحجر، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون قوتهم، وأن يمشوا ما بين الركنين - قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم[٣] [٤] .

---

(١) واد قريب من خيبر.
(٢) مسلم (١٤١١).
(٣) البخاري (١٢٦٥) مسلم (٢٢٠٦).
(٤) الطبقات لابن سعد (١/ ١٧٢ - ١٧٣).

سرية بن أبى العوجاء السلمي إلى بني سليم

قال ابن سعد: ثم سرية ابن أبى العوجاء إلى بني سليم في ذي الحجة سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ، ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلاً إلى بني سليم، فخرج إليهم، وتقدمه عين لهم كان معه فحذرهم فجمعوا له جمعًا فأتاهم ابن أبي العوجاء، وهم معدون له، فدعاهم إلى الإسلام.

فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، فتراموا بالنيل ساعة وجعلت الأمداد تأتى إلى نبى سليم حتى أحدقوا بهم من كل ناحية، فقاتل القوم من المسلمين قتالاً شديدًا حتى قتل عامتهم، أوصيب ابن أبي العوجاء جريحًا مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ فقدموا المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان[1].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

سرايا غالب بن عبد الله الليثي

إلى بني الملوح بالكديد:

قال ابن سعد: ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد في صفر سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

أخبرنا عبد الله بن عمرو أبو معمر، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، حدثنا محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن مسلم بن عبد الله الجهني، عن جندب بن مكيث الجهني، قال: بعث رسول الله ﷺ، غالب بن عبد الله الليثي ثم أحد بني كلب بن عوف في سرية، فكنت فيهم، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوح بالكديد - وهم من بني ليث، قال: فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه فقال إنما جئت أريد الإسلام وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ قلنا: إن تكن مسلمًا لم يضرك رباطنا يومًا وليلة وإن تكن على غير ذلك نستوثق منك: قال: فشددناه وثاقًا وخلفنا عليه رويحلاً منا أسود فقلنا: إن نازعك فاحتز رأسه!

فسرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس فكمنا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم فخرجت حتى أتيت تلا مشرفًا على الحاضر يطلعني عليهم، حتى إذا اسندت عليهم فيه علوت على رأسه ثم اضطجعت عليه.

قال: فإني لأنظر إذا خرج رجل منهم من خباء له فقال لأمرأته: إني أرى على هذا الجبل سوادًا ما رأيته أول من يومي هذا، فإنظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئًا.

قال: فنظرت فقالت: والله ما فقد من أوعيتي شيئًا.

قال: فناولينى قوسي ونبلي، فناولته قوسه وسهمين معها، فأرسل سهمًا فوالله ما أخطأ بين عيني.

فال: فانترعته وثبت مكاني، ثم أرسل آخر فوضعه في منكبي فانتزعته وثبت مكاني، فقال لامرأته: والله لو كانت ربيئة لقد تحركت بعد! والله لقد خالطها سهماي لا أبا لك (١)

---

(١) تعبير تعجبي يستعمل في المدح والذم وفي التعجب.

فإذا أصبحت فانظريهما لاتضعهما الكلاب.

قال: ثم دخل وراحت الماشية من إبلهم وأغنامهم، فلما احتلبوا وعطنوا[١] واطمأنوا فناموا شننا عليهم الغارة واستقنا النعم.

قال: فخرج صريخ القوم في قومهم فجاء ما لا قبل لنا به فخرجنا بها نحدرها حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملناه، واحتملنا صاحبنا، فأدركنا القوم حتى نظروا إلينا مابيننا وبينهم إلا الوادي ـ ونحن موجهون في ناحية الوادي، إذا جاء الله بالوادي من حيث شاء يملأ جنبتيه ماء، والله ما رأينا يومئذ سحابًا ولا مطرًا فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا وقد أسندناها في المسيل، هكذا قال.

وأما في رواية محمد بن عمر قال: أسندناها في «المشلل» نجدوها وفتناهم فوتًا لا يقدرون فيه على طلبنا، قال: فما أنسى قول راجز من المسلمين وهو يقول:

أبي أبو القاسم أن تعزبى في خل نباته مغلول

صفر أعاليه كلون المذهب

وزاد محمد بن عمر في روايته

وذاك قول صادق لم يكذب

قال: فكانوا بضعة عشر رجلاً. قال عبد الوارث: وحدثني هذا الحرف رجل عن محمد بن إسحاق أنه حدثه رجل من أسلم ـ أنه كان شعارهم يومئذ: أمت أمت[٢].

إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بقدك:

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى مصاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

أخبرنا محمد بن عمر، حدثنى عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه.

قال: هيأ رسول الله ﷺ، الزبير بن العوام وقال له سر حتى تنتهي إلى مصاب

---

(١) عطنوا: أراحوا مواشيهم.
(٢) سبقه تخريجه.

أصحاب بشير بن سعد فإن أظفرك الله بهم فلا تبقي فيهم، وهيأ معه مائتي رجل وعقد له لواء، فقدم غالب بن عبد الله الليثي من الكديد من سرية فقد ظفره الله عليهم فقال رسول الله ﷺ، للزبير : «اجلس!» وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل، وخرج أسامة بن زيد فيها حتى انتهى إلى مصاب أصحاب بشير، وخرج معه علبة بن زيد فيها، فأصابوا منهم نعمًا وقتلوا منهم قتلى.

أخبرنا محمد بن عمر. حدثني أفلح بن سعيد عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال: خرج مع غالب في هذه السرية عقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عجرة، وأسامة ابن زيد الحارثي.

أخبرنا محمد بن عمر، حدثني شبل بن العلاء بن عبد الرحمن عن إبراهيم بن حويصة عن أبيه قال: بعثني رسول الله ﷺ، في سرية مع غالب بن عبد الله إلى بني مرة فأغرنا عليهم مع الصبح وقد أوعز إلينا أمرنا ألا نفترق وواخي بيننا، فقال: لا تعصوني، فإن رسول الله ﷺ قال: «من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاه، فقد عصاني»[1] . وإنكم متى ما تعصوني فإنكم تعصون نبيكم، فآخى بيني وبين أبي سعيد الخدري، قال: فأصبحنا فأصبنا القوم[2] .

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٧) مسلم (١٨٣٥) من حديث أبى هريرة بلفظ « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقذ عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ، ومن عصى الأمير فقد عصانى ».

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٧٨ ـ ١٨٢).

سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر بالسي

قال ابن سعد: ثم سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر بالسي[١] في شهر ربيع الأول سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي، حدثنا أبو بكر عبد الله بن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن عمر بن الحكم قال : بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن بالسي ناحية ركبة من وراء المعدب ـ وهي من المدينة على خمس ليال ـ وأمره أن يغير عليهم ، وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غارُّون، فأصابوا نعمًا كثيرًا وشاء، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة وكانت سهامهم خمسة عشر بعيرًا وعدلوا البعير بعشر من الغنم، وغابت السرية خمسة عشرة ليلة[٢]

---

(١) السي: أرض في بلاد العرب.

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٨٢).

سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح
وهيَ من وراء وادي القرى

قال ابن سعد: ثم سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح، وهي من وراء وادي القرى، في شهر ربيع الأول سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

أخبرنا محمد بن عمر، حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعًا من جمعهم كثيراً، فدعوهم للإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا ـ أي أصحاب رسول الله ﷺ، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر فشق ذلك عليه، وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم[١] .

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٣).

سرية مؤتة وهي بأدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق

قال ابن سعد: ثم سرية مؤتة ـ وهي بأدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق ـ في جمادى الأولى سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف(١) وهم ثلاثة آلاف فقال رسول الله ﷺ: «أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضى المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم»(٢) .

وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، وخرج مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين! فقال ابن رواحة عند ذلك:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا (٣)

قال: فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه وقد نزل المسلمون معان من أرض الشام، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام ـ وهذه القبائل كانت موالية للروم.

فأقاموا ليلتن لينظروا في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بالخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي.

فمضوا إلى مؤتة ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح

(١) موضع قريب من المدينة.

(٢) البخاري (٤٢٦١).

(٣) أى تترك الدم بغزواة يعلوه الزبد كما يعلو الماء .

والكراع[1] والديباج والحرير والذهب.

فالتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قتل طعنًا بالرماح رحمه الله.

ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فنزل عن فرس له شقراء فعرقبها[2] فكانت أول فرس عرقبت في الإسلام، وقاتل حتى قتل، رضي الله عنه ـ ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحًا ووجدوا فيما قيل من بدن جعفر إثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح[3].

ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحمه الله.

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذا اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم. فلما أخذ خالد بن الوليد اللواء قال رسول الله ﷺ: **«الآن حمي الوطيس»**[4].

فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فرارا! فررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: **«ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله!»**.

رواية أخرى:

أخبرنا بكر بن عبدالرحمن قاضى الكوفة، حدثنا عيسى بن المختار عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي اليسر عن أبي عامر قال: بعثني رسول الله ﷺ، إلى الشام، فلما رجعت مررت على أصحابي وهم يقاتلون المشركين بمؤتة قلت والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ولبس السلاح، وقال: غيره: أخذ زيد اللواء ـ وكان رأس القوم ـ ثم حمل جعفر حتى إذا هم أن يخالط العدو، رجع فوحش بالسلاح ثم حمل على العدو وطعن حتى قتل، ثم أخذ اللواء زيد بن حارثة وطاعن حتى قتل، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة

---

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل.

(٢) قطع عرقوبها.

(٣) البخاري (٤٢٦٠).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٥) بلفظ: (هذا حين حمى الوطيس).

وطاعن حتى قتل، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى لم أر اثنين جميعًا، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال: إلي أيها الناس! فاجتمع إليه الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فقال له خالد: لا آخذه منك أنت أحق به، فقال الأنصاري والله ما أخذته إلا لك! فأخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤا.

وقال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فشق ذلك عليه فصلى الظهر ثم دخل ـ وكان إذا صلى الظهر قام فركع بركعتين ، ثم أقبل بوجهه على القوم ـ فشق ذلك على الناس، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك، حتى إذا كان صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلي الغداة، فقال له القوم حين تبسم يا نبي الله بأنفسنا أنت! ما يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذي رأينا! قال رسول الله ﷺ: **«كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتهم في الجنة إخوانًا على سرر متقابلين، ورأيت جعفرا ملكًا ذا جناحين مضرجًا بالدماء مصبوغ القوادم»**.

وقال ابن القيم: وأطلع سبحانه وتعالى على ذلك رسوله من يومهم ذلك فأخبر به أصحابه، وقال: **«لقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سرير صاحبيه»، فقلت «عم هذا» فقيل لي: مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى»**.

وذكر عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن ابن جدعان، عن ابن المسيب قال رسول الله ﷺ: **«مثل لي جعفر وزيد وابن رواحة في خيمة من در، كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيدًا وابن رواحة في أعناقها صدود، ورأيت جعفرًا مستقيمًا ليس فيه صدود قال: «فسألت أو قيل لي: إنهما حين غشيهما الموت أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل»**(١)

وقال رسول الله ﷺ في جعفر: **«إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء»**(٢)

---

(١) عبد الرزاق في المصنف ٩٥٦٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير انظر السلسلة الصحيحة (١٢٢٦).

قال أبو عمر: وروينا عن ابن عمر أنه قال: «وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه، تسعين جرحًا ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح»(١).

وقال موسى بن عقبة: قدم يعلى بن منية على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتك»،

قال: أخبرني يا رسول الله فأخبره ﷺ خبرهم كله، ووصفهم له، فقال والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفًا واحدًا لم أذكره، وإن أمرهم كما ذكرت، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم».

واستشهد يومئذ: جعفر، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، ومسعود بن الأوس، ووهب بن سعد بن أبي سرح، وعباد بن قيس، وحارثة بن النعمان، وسراقة بن عمرو بن عطية، وأبو كليب، وجابر ابنا عمرو بن زيد، وعامر، وعمرو سعيد بن الحارث وغيرهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن زيد بن الأرقم.

قال: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجره فخرج بي في سفره ذلك مُردفى على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو ينشد:

إذا أدنينني وحـــملت رحـــلي   مسيرة أربع بعـــد الحســـاء
فشأنـك فانعمـــن وخـــلاك ذم   ولا أرجع إلى أهلـــي ورائي
وجاء المسلمون وغـــادروني   بأرض الشام مستنهي الثواء(٢)

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٤) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٩٧).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل
وهي وراء وادي القرى

قال ابن سعد: ثم سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل وهي وراء وادي القري وبينها وبين المدينة عشرة أيام، كانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلي وعذرة وبلقين.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كبيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فلحق بعمرو .

فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت على مددًا وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان عمرو يصلي بالناس وسار حتى وطيء بلاد بلي ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا، ثم قفل، وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريدًا إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم(١) .

قال ابن القيم: وذكر ابن إسحاق نزولهم على ماء لجذام يقال له: السلسل.

قال: وبذلك سميت ذات السلاسل.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عامر قال: بعث رسول

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٨٩).

الله ﷺ جيش ذات السلاسل، فاستعمل أبا عبيدة على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب، وقال لهما: «**تطاوعا**» قال: وكانوا امروا أن يغيروا على بكر، فانطلق عمرون وأغار على قضاعة لأن بكرًا أخواله، قال: فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبى عبيدة فقال: إن رسول الله ﷺ استعملك علينا. وإن ابن فلان قد اتبع أمر القوم، فليس لك معه أمر، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو[١] .

وفي هذه الغزوة احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص، وكانت ليلة باردة، فخاف على نفسه من الماء، فتيمم وصلى بأصحابه، الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال: «**يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» فأخبره بالذي منعه من الإغتسال، وقال: إنى سمعت الله يقول: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء:٢٩] فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[٢] وقد احتج بهذه القصة من قال: إن التيمم لا يرفع الحدث لأن النبي ﷺ سماه جنبًا بعد تيممه وأجاب من نازعهم في ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الصحابة لما شكوه قالوا: صلى بنا الصبح، جنب، فسأله النبي ﷺ عن ذلك وقال: «**صليت بأصحابك وأنت جنب**»، استفهامًا واستعلاما فلما أخبره بعذره، وأنه تيمم للحاجة، أقره على ذلك.

الثاني: أن الرواية اختلفت عنه، فروى عنه فيها أنه غسل مغابه وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم ولم يذكر التيمم وكأن هذه الرواية أقوى من رواية التيمم، قال عبد الحق: وقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها، ثم قال: وهذا أوصلُ من الأول، لأنه عن عبد الرحمن بن جبير المصري، عن أبي القيس مولى عمر، عن عمرو[٣] والأولى التي فيها التيمم، من رواية عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، لم يذكر بينهما أبا قيس.

الثالث: أن النبي ﷺ أراد أن يستعلم فقه عمرو في تركه الاغتسال: فقال له:

---

(١) أحمد (١/ ١٦٩) وصححه الألباني ، وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده ضعيف (١٦٩٨).
(٢) أبو داود (٣٣٤) صحيح أبي داود (٣٢٣).
(١) أبو داود (٣٣٥) صحيح أبي داود (٣٢٤).

«صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فلما أخبره أنه تيمم للحاج علم فقهه، فلم ينكر عليه، ويدل عليه أن ما فعله عمرو من التيمم، والله أعلم خشية الهلاك بالبرد، كما أخبره به، والصلاة بالتيمم في هذه الحال جائزة غير منكر على فاعلها، فعلم أنه أراد استعلام فقهه وعلمه والله أعلم [١] .

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩).

سرية الخبط[١] وأميرها أبو عبيدة بن الجراح

قال ابن سعد: ثم سرية الخبط أميرها أبو عبيدة بن الجراح، وكانت في رجب سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمر بن الخطاب، إلى حي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، وبينهما وبين المدينة خمس ليال، فأصابهم في الطريق جوع شديد فأكلوا الخبط، وابتاع قيس بن سعد جزراً ونحرها لهم وألقى لهم البحر حوتًا عظيمًا فأكلوا منه وانصرفوا ولم يلقوا كيدًا[٢].

وقال ابن القيم: وكان أميرها أبو عبيدة بن الجراح، وكانت في رجب سنة ثمان فيما أنبأنا به الحافظ أبو الفتح محمد بن سيد الناس في كتاب «عيون الأثر» له، وهو عندي وهم، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قالوا: بعيث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة رجلاً من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمر بن الخطاب إلى الحي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، وبينها وبين المدينة خمس ليال فأصابهم في الطريق جوع شديد، فأكلوا الخبط، وألقى إليهم البحر حوتًا عظيمًا فأكلوا به، ثم انصرفوا، ولم يلقوا كيدًا، وفي هذا نظر، فإن في «الصحيحين» من حديث جابر قال:

«بعثنا رسول الله ﷺ في ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاثة جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منها نصف شهر، ودهنا من ودكها حتى ثابت إلينا أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعة، فنظر إلى أطول رجل في الجيش، وأطول جمل، فحمل عليه ومر تحته، وتؤودنا

---

(١) سميت هذه السرية بهذا الاسم لأنهم جاعوا فأكلوا ورق الشجر.
(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا له ذلك، فقال: هو «رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكل منه»(١).

قلت: وهذا السياق يدل على أن هذه الغزوة كانت قبل الهدنة، وقبل عمرة الحديبية، فإنه من حين صالح أهل مكة بالحديبية لم يكن يرصد لهم عيرًا، بل كان زمن أمن وهدنة إلى حين الفتح، ويبعد أن تكون سرية الخبط على هذا الوجه مرتين: مرة قبل الصلح، ومره بعده. والله أعلم.

وقال ابن القيم أيضًا في فقه هذه القصة: ففيها جواز القتال في الشهر الحرام ـ إن كان ذكر التاريخ في رجب فيها برجب محفوظًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه وهم غير محفوظ، إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية، وقد عير المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧]، ولم يثبت نسخ هذا بنص يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه، وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحرم.

بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم ها هنا في أشهر التيسير الأربعة التي سير الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها، وكان أولها يوم الحج الأكبر عاشر ذي الحجة، وآخرها عاشر ربيع الآخر، هذا هو الصحيح في الآية لوجوه عديدة، ليس هذا موضعها.،

وفيها: جواز نهي الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم وإن احتاجوا إليه خشية أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم، ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

وفيها: جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة:٣]. وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة:٩٦] وقد صح عن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة،

---

(١) البخاري (٤٢٦١) مسلم (١٩٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه، وفي السنن: عن ابن عمر مرفوعًا وموقوفًا: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**»(١) حديث حسن. وهذا الموقوف في حكم المرفوع، لأن قول الصحابي أحل لنا كذا، وحرم علينا ينصرف إلى إحلال النبي ﷺ وتحريمه.

فإن قيل: فالصحابة في هذه الواقعة كانو مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها. قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله ﷺ ونحن مضطرون، فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مضطرين مستغنين عنها، لما أكلوا منها.

قيل: لا ريب أنهم كانوا مضطرين، ولكن هيأ الله لهم من الرزق أطيبه وأحله، وقد قال النبي ﷺ لهم بعد أن قدموا: «**هل بقي معكم من لحمه شيئًا؟**» قالوا: نعم فأكل منه النبي ﷺ، وقال: «**إنما هو رزق ساقه الله إليكم**»، ولو كان هذا رزق مضطر لم يأكل منه رسول الله في حال الاختيار، ثم لو كان أكلهم منه ضرورة، فكيف ساغ لهم أن يدهنوا من ودكها وينجسوا به ثيابهم وأبدانهم، وأيضًا فكثير من الفقهاء لا يجوز الشبع من الميتة، وإنما يجوزون منها سد الرمق، والسرية أكلت منها حتى ثابت إليهم أجسامهم وسمنوا وتزودوا منها.

فإن قيل : إنما يتم لكم الاستدلال بهذه القصة إذا كانت تلك الدابة قد ماتت في البحر، ثم ألقاها ميتة، ومن المعلوم أنه كما يحتمل ذلك، يحتمل أن يكون البحر قد جزر عليها عنها، وهي حية، فماتت بمفارقة الماء، وذلك ذكاتها وذكاة حيوان الماء البحر، ولا سبيل إلى دفع اهذا الاحتمال، كيف وفي بعض طرق الحديث «**جزر البحر عن حوت كالظرب**» **قيل:** هذا الاحتمال مع بعده جدًا، فإنه يكاد يكون خرقًا للعادة. فإن مثل هذه الدابة إذا كانت حية إنما تكون في لجة بالبحر وثبجة دون ساحله، وما رق منه ودنا من البر، وأيضًا فإنه لا يكفي ذلك في الحل، لأنه إذا شك في السبب الذي مات به الحيوان، هل هو سبب مبيح له أو غير مبيح؟ لم يحل الحيوان كما قال النبي ﷺ في الصيد يرمي بالسهم، ثم يوجد في الماء.

«**وإن وجدته غريقًا في الماء، فلا تأكله فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك**»(٢) فلو كان

---

(١) أحمد (٢/ ٩٧) وابن ماجه (٣٣١٤) انظر الصحيحة (١١١٨) وصحيح الجامع (٢١٠).

(٢) مسلم (١٩٢٩).

الحيوان البحري حرامًا إذا مات في البحر، ولم يبح. وهذا مما لا يعلم فيه خلاف بين الأئمة.

وأيضًا فلو لم تكن هذه النصوص مع المبيحين، لكنا القياس الصحيح معهم، فإن الميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات، كان سبب الحل، وإلا فالموت، لا يقتضى التحريم، فإنه حصل بالذكاة كما يحصل بغيرها، وإذا لم يكن الحيوان دم وفضلات نزيلها الذكاة، لم يحرم بالموت، ولم يشترط لحله ذكاة كالجراد، ولهذا لا ينجس بالموت ما لا نفس له سائلة كالذباب والنحلة، ونحوها، السمك من هذا الضرب، فإنه لو كان له دم وفضلات تحتقن بموته، لم يحل لموته بغير ذكاة ، ولم يكن في فرق بين موته في الماد وموته خارجه، إذ من المعلوم أن موته في البر لا يذهب تلك الفضلات التي تحرمه عند المحرمين إذا مات في البحر، ولو لم يكن في المسألة نصوص، لكان هذا القياس كافيًا، والله أعلم.

وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ﷺ، وإقراره على ذلك، لكن هذا في حال الحاجة إلى الاجتهاد، وعدم تمكنهم من مراجعة النص، وقد اجتهد أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما بين يدي رسول الله ﷺ في عدة من الوقائع، وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة، لا في أحكام عامة وشرائع كلية، فإن هذا لم يقع من أحد من الصحابة في حضوره ﷺ ألبته(١).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٤).

سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري

إلى خضرة ـ وهي أرض محارب:

قال ابن سعد: ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى حضرة ـ وهي أرض محارب بنجد ـ في شعبان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، فهجم على حاضر[١] منهم عظيم، فأحاط بهم فصرخ رجل منهم: يا خضرة! وقاتل منهم رجال فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا النعم، فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفى شاة، وسبوا سبيًا كثيرًا وجمعوا الغنائم فأخرجوا الخمس فعزلوه، وقسموا ما بقي على أهل السرية فأصاب كل رجل منهم إثنا عشر بعيرًا[٢] فعدل البعير بعشر من الغنم، وصارت في سهم أبي قتادة جارية وضيئة فاستوهبها منه رسول الله ﷺ فوهبها له فوهبها رسول الله ﷺ لمحمية بن جزء وغابوا في هذه السرية خمس عشرة ليلة.

إلى بطن إضم:

ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى بطن إضم في أول شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: لما هم رسول الله ﷺ، بغرو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر ـ سرية إلى بطن إضم ـ وهي فيما بين ذي خشب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد ـ ليظن ظان أن رسول الله ﷺ، توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار، وكان في السرية محلم بن جثامة الليثي، ، فمر عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم بتحية الإسلام، فأمسك عنه القوم، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وسلبه بعيره وقناعه ووطب[٣] لبن كان معه، فلما لحقوا بالنبي ﷺ نزل فيهم القرآن.

---

(١) حاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه.

(٢) انظر البخاري (٤٣٣٨).

(٣) رق يكون فيه السمن واللبن.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤](١) .

فمضوا ولم يلحقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشب، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة فأخذوا على بين حتى لقوا النبي ﷺ بالسقيا(٢) .

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٩١ ـ ١٩٣).
(٢) أحمد (١/ ٢٢٩) والحاكم (٢/ ٢٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر (٢٠٢٣).

سرية خالد بن الوليد إلي العزّى

قال ابن سعد: ثم سرية خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا: بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة، خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها. فخرج في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدموها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: هل رأيت شيئًا؟ فقال: لا؟ قال: فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها(١) باثنين ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: نعم تلك العزى، وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبدًا، وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بي كنانة وكانت أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بنو شيبان من بني سليم(٢) .

---

(١) قطعها وفصلها.

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢١٠).

سرية عمرو بن العاص إلى سواع

قال ابن سعد: ثم سرية عمرو بن العاص إلى سواع في شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث النبي ﷺ حين فتح مكة، عمرو بن العاص إلى سواع - صنم هذيل - ليهدمه. قال عمرو فانتهيت إليه وعنده السادن فقال: ما تريد؟.

قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تُمنع[(١)] !.

قلت: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك وهل يسمع أو يبصر؟

قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله[(٢)] .

---

(١) أي يمنعك سواع من ذلك.

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢١١).

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة

قال ابن سعد: ثم سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة في شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة، سعبد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان. فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي يهدمها، فخرج في عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة!

قال: أنت وذاك! فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال السادن: مناة دونك بعض غضباتك! ويضربها سعد بن زيد الأشهلي ويقتلها، ويقبل إلى الصنم معه أصحابه، فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا، وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ وكان ذلك لست بقين من شهر رمضان[١].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢١١).

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة من كنانة وكانوا بأسفل مكة

قال ابن سعد: ثم سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة من كنانة ـ وكانوا أسفل مكة. على ليلة ناحية يلملم ـ في شوال سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ وهو يوم الغميصاء.

قالوا: لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى، ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، بعثه إلى بني جذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً، فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فانتهى إليهم خالد.

فقال: ما أنتم؟

قالوا: مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا، وأذنا فيها.

قال: فما بال السلاح عليكم؟

فقالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح! قال: فضعوا السلاح!

قال: فضعوه، فقال لهم: استأسروا.

فاستأمر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضًا، وفرقهم في أصحابه. فلما كان في السحر نادي خالد: من كان معه أسير فليدافه والمدافاة الإجهار عليه بالسيف.

فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم.

وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم، فبلغ النبي ﷺ ما صنع خالد.

فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»(١) وبعث على بن أبي طالب فودي لهم قتلاهم وما ذهب منهم، ثم انصرف إلى رسول الله فأخبره.

أخبرنا العباس بن الفضل الأزرق البصري، حدثنا خالد بن يزيد الجوني حدثنا محمد ابن إسحاق عن ابن أبي حدرد عن أبيه قال: كنت في الخيل التي أغارت مع خالد بن الوليد على بني جزيمة يوم الغميصاء (٢) فلحقنا رجلا منهم معه نسوة فجعل يقاتلنا عنهن ويقول:

---

(١) البخاري (٤٣٣٩). من حديث سالم عن أبيه .

(٢) موضع بناحية البحر وقيل هو الموضع الذى أوقع فيه خالد بن الوليد ببنى جذيمة من بنى كنانة .

رَخين أذيـال الحقَاء(١) وأربعن مَشى حُيَّات (٢)كأن لم يُفْزَعَن
إن القوم ثَلاثُ تُمنْعَنْ

قال: فقاتل ثلاثًا عنهن حتى أصعدهن الجبل. قال: إذا لحقنا آخر معه نسوة، قال: فجعل يقاتل عنهن، ويقول:

قد عِلمَت بيضاءُ حَمْرَاءُ الإِطِل(٣) يحُـوزُها ذُو ثَـلاثَة وَذُو إبِــل
لأُغْنَنِينَ اليَوْمَ ما أغْنَى رَجُل

فقاتل عنهم حتى أصعدهن الجبل، فقال خالد: لا تتبعوهم(٤) .

أخبرنا العباس بن الفضل، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق القرشي، عن عبد الله بن عصام المزني، قال عن أبيه، قال: بعثنا رسول الله ﷺ يوم بطن نخلة فقال: اقتلوا ما لم تسمعوا مؤذنًا أو تروا مسجدًا إذ لحقنا رجلاً فقال له: كافر أو مسلم، فقال: إن كنت كافرًا فمه! قلنا له: إن كنت كافرًا قتلناك! قال دعونى أقضى إلى النسوان حاجة ! قال إذ دنا إلى امرأة منهن قال لها: اسلمي حبيش على نفد العيش.

أريْتك إذا طالبْتكم فوجدتكم بحلية أو أدركتكم بالخوانق
أما كان أهلا أن ينول عــاشق تكلف إدلاج السرى والودائق؟
فلا ذنب لي قد قلت إذ نحن جيرة أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن تشـحط النوى وينأى أميري بالحبيب المفارق.

فقالت: نعم جُنيت عشرًا وتر وثمانيًا تتري! قال: فقربناه فضربنا عنقه، قال فجاءت ترشفه حتى ماتت عليه! وقال سفيان: وإذا هي امرأة كثيرة النحض(٥) يعني اللحم(٦) .

---

(١) جمع عقود هو معقد الإزار .
(٢) جمع حُيبة وهي ذات الحياء.
(٣) الإطل: هو منقطع الأضلاع وقيل الخاصرة، ويحوزها : يملكها وذو ثلة: ذو جماعة من الغنم والثلة الكثيرة منها.
(٤) انظر سيرة ابن هشام ـ(٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٥) كثير اللحم.
(٦) الطبقات لابن سعد ـ(٢/ ٢١٢ ـ ٢١٥).

سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين (١)

قال ابن سعد: ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين - صنم عمرو بن حمة الدوسي - في شوال سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ. قالوا: لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين «صنم عمرو بن حمة الدوسي» يهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج سريعًا إلى قومه فهدم ذا الكفين، وجعل يحسُ النار(٢) في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عُبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكما
إني حششت النار في فؤادكا

قال: وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعًا فوافو النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة(٣) ومنجنيق وقال: يا معشر الأزد من يحمل رايتكم؟ فقال الطفيل، من كان يحملها في الجاهلية - النعمان بن بازية اللهبي، قال أصبتم (٤) .

(١) ذو الكفين: هو صنم من خشب له كفان.
(٢) يحشى: يحش النار يشعلها ويلهبها.
(٣) الدبابة : الة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المجاور لينقبوه، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم.
(٤) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٢٦).

سرية قيس بن سعد إلى صداء

قال الحافظ مغلطاي: وبعث قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن، في أربعمائة فارس، وأمره أن يطأ صُداء (١) .

فقدم زياد بن الحارث الصدائى ، فسأل عن ذلك البعث، فأخبر، فقال: يا رسول الله، أنا وافدهم، فاردد الجيش، وأنا لك بقومي، فردهم النبي ﷺ من قناة (٢) .

وقدم الصدائيون بعد خمسة عشر يومًا فأسلموا (٣) .

---

(١) صُداء : بلد باليمن.
(٢) واد شمالي المدينة يمر بقبور شهداء أحد.
(٣) الإشارة إلى سيرة المصطفى (ص٣٢٤).

سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

قال ابن سعد: ثم سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم ـ وكانوا فيما بين السقيا وأرض بني تميم ـ وذلك في المحرم سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارسًا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولوا، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًا فجلبهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله ﷺ فوضعوا في دار رملة بنت الحارث، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم عطارد بن حاجب، الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث بن مجاشع.. فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فعجلوا فجاء إلى باب النبي ﷺ وقالوا: يا محمد، إخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ وأقام بلال الصلاة وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه فوقف معهم، ثم مضى فصل الظهر ثم جلس في صحن المسجد، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] فرد عليهم رسول الله الأسرى والسبى، ثم بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة يصدقهم، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزور والغنم فرحًا به، فلما رآهم ولي راجعًا إلى المدينة فأخبر النبي ﷺ أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة. فهم رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ ذلك القوم فقدم عليه الركب الذين لقوا الوليد فأخبروا النبي الخبر على وجهه، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن، وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام ولم يضيع حقًا، وأقام عندهم عشرًا ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ راضيًا (١).

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

سرية قطبة بن عامر بن حديدة
إلى جثعم بناحية بيشة قريبًا من تربة

قال ابن سعد: ثم سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى جثعم بناحية بيش قريبًا من تربة في صفر سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ، قطبة بن عامر بن حديدة، في عشرين رجلاً، إلى حرص من خثعم بناحية تبالة(١) وأمره أن يشن غارة عليهم، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضر ويحذرهم فضربوا عنقه، ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا عليهم الغارة، فاقتتلوا قتالاً شديدً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعًا، وقتل قطبة بن عامر من قتل، وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة، وجاء سيل أتي فجال بين القوم وبينه فما يجدون إليه سبيلاً وكانت سهمانهم أربعة أبعره، أربعة أبعرة ، والبعير يعدل بعشر من الغنم، وذلك بعد أن أخرج الخمس(٢) .

---

(١) تبالة: اسم بلد باليمن.

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣١).

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي
إلى بني كلاب

قال ابن سعد: ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في شهر ربيع الأول سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ جيشًا إلى القرطاء عليهم الضحاك بن سفيان بن عوف بن أبي بكر الكلابي، ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط، فلقوهم بالزج ـ فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم فلحق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له في غدير بالزج، فدعاه أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبه وسب دينه، فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه، فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحة في الماء، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتل ابنه[١] .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣٢).

سرية علقمة بن مجزر المدلجي إلى الحبشة

قال ابن سعد: ثم سرية علقمة بن مجزر المدلجي إلى الحبشة في شهر ربيع الآخر سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، أن أناسًا من الحبشة تراياهم[١] أهل جدة فبعث إليهم علقمة بن مجزر في ثلثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم فأذن لهم، فتعجل عبد الله بن حذافة السهمي فيهم، فأمره على من تعجل، وكانت فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون فقال: عزمت عليكم إلا تواثبتم في هذه النار ! فقام بعض القوم فاحتجزوا حتى ظن أنهم واثبوان فيها فقال: اجلسوا إنما كنت أضحك معكم! .

فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «من أمركم بمعصية فلا تطيعوه»[٢] [٣] .

---

(١) أي تراءاهم.

(٢) حسن: أحمد (٣/ ٦٧) وابن ماجه (٢٨٦٣) والحاكم (٣/ ٦٣٠) وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٢٣٢٤) وصحيح الجامع (٦٠٩٩).

(٣) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣٢).

سرية على بن أبي طالب إلى الفلس صنم طيء ليهدمه

قال ابن سعد: ثم سرية على بن أبي طالب إلى الفلس صنم طيئ ليهدمه في شهر ربيع الآخر سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسًا ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس ليهدمه، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفلس وخربوه وملئوا أيديهم من السبى والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام، ووجد في خزانة الفلس ثلاثة أسياف: رسوب، ،والمخزم ، وسيف يقال له: اليماني ـ وثلاثة أدراع. واستعمل رسول الله ﷺ على السبي أبا قتادة، واستعمل على الماشية والرثة عبد الله بن عتيك، فلما نزلوا ركك اقتسموا الغنائم وعزل للنبي ﷺ، صفيا ـ رسوبًا والمخذم ـ ثم صار له بعد السيف الآخر، وعزل الخمس، وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة(١)

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣٣).

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجناب أرض عذرة وبلي

قال ابن سعد: ثم سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجناب أرض عذره وبلي، في شهر ربيع الآخر سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ (١).

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣٤).

سرايا خالد بن الوليد إلى أكيدر

قال ابن سعد: وكان رسول الله ﷺ قد بعث خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارسًا في رجب سنة تسع سرية إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم، وكان نصرانيًا، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد بن الوليد ، فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما ، فدخل الحصن، أجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ، على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح. فعزل للنبي ﷺ، صفيا خالصًا ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس ـ وكان النبي ﷺ ـ ثم قسم ما بقي بين أصحابه، فصار لكل رجل منهم خمس فرائض، ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد ـ وكان في الحصن ـ وبما صالحه عليه قافلاً إلى المدينة، فقدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فأهدى له هدية، فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما.

وكتب له رسول الله ﷺ ، كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه.

إلى بني عبد المدان بنجران:

ثم سرية خالد بن الوليد إلى بني عبد المدان بنجران في شهر ربيع الأول سنة عشر من مهاجر النبي ﷺ (١) .

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤١).

سرية على بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن ـ يقال مرتين

قال ابن سعد: ثم سرية على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إلى اليمن، يقال: مرتين: إحدهما في شهر رمضان سنة عشر من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ عليًا إلى اليمن وعقد له لواء وعممه بيده وقال: امض ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك! فخرج في ثلاثمائة فارس، وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد ـ وهي بلاد مذجح ـ ففرق أصحابه فأتو بكثير من الغنائم، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب الأسلمي، فجمع إليه ما أصابوا، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة فصف أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي، ثم حمل عليهم على بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرقوا وانهزموا، فكف عن طلبهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام.

وقالوا: نحن على من ورائنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله. وجمع على الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء فكتب في سهم منها لله، وأقرع عليها فخرج أول السهام سهم الخمس وقسم عليٌ على أصحابه بقية المغنم، ثم قال قفل النبي ﷺ بمكة قد قدمها للحج سنة عشر (١).

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢). وانظر البداية والنهاية (٥/ ١٠٤).

سرية أسامة بن زيد بن حارثة

قال ابن سعد: ثم سرية أسامة بن زيد بن حارثة إلى أهل أبنى (١) وهي أرض السراة ناحية البلقاء.

قالوا: لما كان يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: «سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحًا على أهل أُبْنَى وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل الليث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك» فلما كان يوم الأربعاء الذي بدئ برسول الله ﷺ فحم وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواد بيده ثم قال: «اغز باسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله!» فخرج بلوائه معقودًا فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة فيهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد ابن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش.

فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين! فغضب رسول الله ﷺ، غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في امارة أبيه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقًا وإن أبنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلى، وإنهما لمخيلان لكل خير واستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم » (٢) وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ ويمضون إلى العسكر بالجرف، وثقل رسول الله ﷺ. فجعل يقول: انفذوا بعث أسامة!

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ، وجعه فدخل أسامة من معسكره والنبي مغمور(٢) وهو اليوم الذي لدوه(٣) فيه فطأطأ أسامة، فقبله ـ ورسول الله ﷺ لا يتكلم

---

(١) موضع بين عسقلان والرملة وقيل بالقرب من مؤتة.

(٢) أي مغمي عليه.

(٣) سقوه الدواء .

فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، قال : فعرفت أنه يدعو لي، ورجع أسامة إلى معسكره، ثم دخل يوم الإثنين وأصبح رسول الله ﷺ مفيقًا، صلوات الله عليه وبركاته، فقال له: «**اغد على بركة الله**».

فودعه أسامة وخرج إلى معسكره، فأمر الناس بالرحيل، فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاءه يقول: إن رسول الله ﷺ يموت! فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت. فتوفي ﷺ حتى زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقودًا حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عنده.

فلما بويع لأبي بكر أمر بريدة بن الحصيب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي لوجهه، فمضى به بريدة إلى معسكرهم الأول فلما ارتدت العرب كلم أبو بكر في بقاء أسامة وجيشه فأبى وكلم أبو بكر أسامة في عمر أن يأذن له في التخلف ففعل.

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة احدى عشرة خرج أسامة فصار إلى أهل أبنى عشرين ليلة فشن عليهم الغارة وكان شعارهم: يا منصور أمت، فقتل من أشرف له، وسبى من قدر عليه، واشتعلت النار في طوائفها، ومنازلهم وحروثهم ونخلهم فصارت أعاصير من الدخاخين، وأجال الخيل في عرصاتهم وأقاموا يومهم ذلك في تعبئة ما أصابه من الغنائم وكان أسامة على فرس أبيه سبحة وقتل قاتل أبيه في الغارة، وأسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا واخذ لنفسه مثل ذلك فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ثم أغذ السير فوردوا وادى القرى في تسع ليال، ثم بعث بشيرًا إلى المدينة بخبر سلامتهم، ثم قصد بعد في السير فسار إلى المدينة ستًا وما أصيب من المسلمين أحد.

وخرج أبو بكر بالمهاجرين يتلقونهم سرورًا بسلامتهم ودخل على فرس أبيه سبحة واللواء أمامه يحمله بريدة بن الحصيب حتى انتهى إلى المسجد فدخل فصلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته.

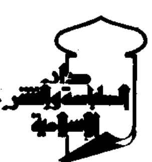
وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة فبعث رابطة يكونون بالبلقاء ، فلما نزل هناك حتى قدم البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر[١] .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٢).

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤
Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣